الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعـــة الحاج لخضـــر ـ باتنـــــة
كليـــــة العلـــوم الإنسانيـــــة
قسم اللغة العربية و آدابها

ابن الأبّـــار القضاعـــي و مـــدائحـــه فـــي البـــلاط الحفصـــي

دراسة موضوعية فنية

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب المغـــربي القديم

إعداد الطالب:
حميد طريفة

إشراف الدكتور:
محمـــد حجازي

أعضاء لجنة المناقشة

الدكتور: عيسى مـــدور أستاذ محاضر جامعة باتنـــة رئيـــــــــــسا
الدكتور: محمد حجازي أستاذ محاضر جامعة باتنـــة مشرفا و مقررا
الدكتور: السعيد لراوي أستاذ محاضر جامعة باتنـــة عضـــــــــــوا
الدكتور: العلمي المكي أستاذ محاضر جامعة أم البواقي عضـــــــــوا

السنة الجامعية:
1430 ــ 1431هــ/2009 ــ 2010م

مقدمة البحث :

يعد المديح ابرز أغراض الشعر العربي و أوسع موضوعاته و أبوابه ، فقد أخذ مساحة واسعة من دواوين الشعر و مدوناته الكبرى قديما و حديثا ، واستعمل الشاعر العربي منذ القديم المديح وسيلة للإعلاء من شأن بعض القيم السامية التي تسود بيئته ، فما الممدوح سوى أنموذجا عاليا مجسدا بسلوكه تلك القيم الرفيعة التي يحرص الشاعر على نشرها و حسن تمثلها ، كما كان المديح مطية لتحقيق ما يصبو إليه الشاعر من الثروة و الجاه و المكانة ، عبر دغدغة عواطف الممدوح و إشباع رغباته النفسية من مجد و شهرة وذكر حسن ، الأمر الذي جعل الحكام و السلاطين يتنافسون على استقطاب الشعراء إلى بلاطهم و تقريبهم ، بل إن المديح أصبح في نظر علماء البرمجة اللسانية العصبية ـ في العصر الحديث ـ وسيلة علاجية فعالة ، بوسعها التخفيف من التوتر النفسي و الحد من العدوانية ، بتحويل التصورات السلبية للأفراد عن محيطهم الخارجي إلى تصورات ايجابية ، و بذلك يتحقق التوازن و الانسجام بين الحياة النفسية الباطنية للشخص و محيطه الخارجي .

و قد نال المديح مكان الصدارة في الشعر الأندلسي و المغربي على غرار ما نال من مكانة بالمشرق ، و برز في مضماره جمع من الشعراء الفحول الذين تجاوزت شهرتهم الآفاق ، و من هؤلاء الشعراء : أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي موضوع البحث المعنون: ابن الأبار القضاعي و مدائحه في البلاط الحفصي .

و قد نزح الشاعر مكرها عن الأندلس بعد سقوط مدينته ـ بلنسية ـ في أيدي الصليبيين سنة (636هـ) ، فالتجأ إلى الإمارة الحفصية الفتية ، مستنجدا بسلطانها أبي زكريا ، طالبا العون و النجدة لرد الغزاة ، لكن ذلك لم يكن ممكنا ، فقد أحكموا قبضتهم على جل المدن و الحصون الأندلسية ، فقرر ابن الأبار الإقامة الدائمة

بالبلاط الحفصي بعد أن نجح في مد جسور التآخي بينه و بين السلطان و بعض نزلاء البلاط .

و تعود علاقتي بالأدب المغربي و الأندلسي إلى مرحلة الليسانس من دراستي الجامعية ، فقد بدأت هذه العلاقة في شكل ميل و انجذاب إلى دراسة الأدب الأندلسي و المغربي و مطالعة كل ما له صلة بذلك ، و سرعان ما تطور هذا الميل إلى إعجاب و شغف بالشعر ـــ خاصة ـــ و أضحت أسباب هذا الإعجاب أكثر وضوحا و أدق تحديدا ، إذ لا أخفي ما تثيره لفظة الأندلس في النفس من حرقة و شجن ، و ما تستدعيه من طيف ماض مشرق ظل لقرون ينشر شذاه و أريجه على تلك المنطقة ، أما عن علاقتي بالشعر المغربي القديم فهي طبيعية لا تحتاج إقامة الدليل عليها ، فكل إنسان مجبول على معرفة أصله و تمجيد أرومته ، فهي علاقة الفرع بالأصل و الغصن بالشجرة .

كما لا أنسى ما للشعر الأندلسي من عذوبة آسرة و سحر أخاذ ، لا يستطيع الخلاص من جاذبيته كل من يقترب منه و يتنسم من نفحاته و يغترف من معينه .

فالمغرب و الأندلس قد جمعت بينهما أواصر و صلات وثيقة في الكثير من مجالات الحياة: سياسيا و اجتماعيا و ثقافيا... و ما انفك التفاعل بين أدب كل منهما يزداد و يتطور ، و تلك الأواصر تشتد و تقوى إلى أن تحولت العلاقة إلى التحام لا يمكن فصل عراه و فك روابطه ، بل لقد أضحى المغرب و الأندلس ـــ في أغلب الفترات التاريخية التي أعقبت الفتح الإسلامي لهما ـــ إقليما واحدا لا يتجزأ ، و بعد نزوح جموع غفيرة من الأندلسيين إلى بلاد المغرب ، إثر سقوط جل مدنهم في قبضة الإسبان الصليبيين ، امتزج الأدب المغربي بالأندلسي و اكتسب الكثير من عناصر القوة و النضج و الجمالية .

و يمكن أن نلتمس أسبابا و دوافع تقف وراء الإقدام على البحث في هذا الموضوع منها :

ـ ندرة البحوث و الدراسات حول الشعر المغربي و الأندلسي خلال القرن السابع الهجري ، فقد اعتادت الدراسات للأدب في المغرب و الأندلس التوقف عند حدود القرن السادس الهجري ـ عصري المرابطين و الموحدين و ما قبلهما ـ دون الامتداد إلى ما بعد ذلك ، و كأن الخيال قد نضب و القريحة انطفأت في الأجيال التي أعقبت تلك القرون ، كما ركزت معظم تلك الدراسات حديثها على الشعراء الأعلام دون أن تعير عنايتها لغيرهم من الشعراء الذين زاولوا نشاطا علميا و برزوا فيه ، أمثال : الشعراء الفقهاء ، الشعراء الفلاسفة ، الشعراء المؤرخين ...

ـ الواجب القومي و الوطني الذي يفرض علينا العناية بتراثنا الأدبي و ما أنضاف إليه من أدب الأندلسيين النازحين عن ديارهم عقب الأوضاع المأساوية التي تعرضوا لها خلال هذه الحقبة التي يغطيها البحث ، و الاطلاع على أوجه الحياة الأدبية بالدويلات المستقلة عن الموحدين ، و خاصة الدولة الحفصية التي بسطت ملكها على الجناح الشرقي للمغرب العربي و ضمت جزء شاسعا من وطننا العزيز ، فقد بلغت حدودها إلى ما وراء مليانة غربا ، بل ربما وصلت إلى مشارف تلمسان ، و استمر حكمها أكثر من ثلاثة قرون .

ـ التعريف بابن الأبار القضاعي و دراسة قسم من ديوانه ، فقد غطت شهرته بوصفه مؤرخا و فقيها على شاعريته ، بل إن جل كتب التراجم و الطبقات التي ترجمت لحياته ، لم تذكر أن له ديوانا شعريا ، و اكتفت في مجملها بالإشارة إلى عدد قليل من قصائده و مقطعاته ، و لم يُعْرَفْ أن له ديوانا شعريا إلا في نهاية الستينات من القرن العشرين ، بعد العثور على مخطوط لديوانه بالخزانة الملكية بالرباط ، و لم يمض عن تاريخ نشره إلا وقتا قصيرا ، الأمر الذي يجعلنا نرجح أن الدراسات التي اهتمت بابن الأبار و ديوان شعره قليلة إن لم نقل نادرة ، لم تف هذا الرجل حقه من التعريف و الدراسة الفنية لديوانه .

ـ محاولة التعرف على الخصائص الفنية و الموضوعية التي طبعت الشعر عامة و المديح خاصة بالبلاط الحفصي خلال القرن السابع الهجري ، و ما يمتلكه

من عناصر الجمال و الجودة و الأصالة تمكنه من الاستمرارية و البقاء و احتلال المكانة اللائقة به إلى جانب شعر مختلف أقاليم العالم الإسلامي .

و من كل هذه الحيثيات وجدتني مدفوعا بقوة للبحث عن أنموذج أدبي عال يمكنه أن يقيم هذه العلاقة و يجسد هذا التمازج و الالتحام بين الشعر المغربي و صنوه الأندلسي ، فكان موضوع ابن الأبار القضاعي و مدائحه في البلاط الحفصي ، هو الرابطة بين شعر هذين الإقليمين .

من هنا فإن البحث سيتناول بالدراسة مختلف صور الحياة خلال القرن السابع الهجري بالأندلس و المغرب ، و التي كان لها الأثر الكبير في تكوين شخصية ابن الأبار ، و حضورا مكثفا في إبداعه الشعري ، إلى جانب دراسة حياته بمختلف جوانبها بكل من الأندلس و المغرب ، و آثاره العلمية و الأدبية مع العناية بديوانه الشعري الذي يتضمن المدونة التي يستهدفها البحث بالدراسة و التحليل ، الأمر الذي يوجب تحديد هذه المدونة و حصر أبعادها .

فقد جاء غرض المدح في ديوان ابن الأبار القضاعي ممتزجا بالاستنجاد و الاستعطاف ، وقد دعت إليهما الأحداث السياسية المأساوية التي عاشتها الأندلس خلال القرن السابع الهجري ، و اكتوى بنارها المسلمون في الأندلس و بلاد المغرب ، و نالهم من لفحها و لظاها عنت كبير .

و قصر ابن الأبار مدائحه على الحكام الحفصيين و خاصة السلطان أبي زكريا ، الذي أقام دعائم الدولة الحفصية و استقل عن دولة الموحدين ، و باستثناء قصائد المدح رقم : (54 ، 113 ، 152 ، 168) ، و القصائد رقم : (7 ، 8 ، 32) الموجودة بالملحق الأول ، فإن بقية قصائد الديوان في هذا الغرض كانت في مدح الأسرة الحفصية الحاكمة .

فقد سعى البحث إلى دراسة قصيدة المديح عند ابن الأبار للحكام الحفصيين دون غيرهم ، و تحليلها و مناقشتها لاستخلاص أهم قضاياها الموضوعية و الفنية ، و عدم إغفال ما يحيط بها من سياقات تاريخية .

و اقتصر البحث على غرض المديح دون بقية الأغراض الأخرى ، على عكس البحوث السابقة التي درست الديوان كله ، لتكون الدراسة أكثر عمقا و تركيزا ، و لأن مدائح الشاعر للحفصيين تغطي القسم الأكبر من ديوانه ، و قد توقف البحث عند المحطات الآتية :

مقدمة احتوت على أهم العناصر التي تطرق إليها البحث بالدراسة و التحليل .

التمهيد و عنوانه : صور الحياة في عصر ابن الأبار القضاعي ، الذي خصص للحديث عن البيئة السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية و الدينية بالأندلس و المغرب خلال القرن السابع الهجري ، و التي عاش فيها الشاعر و كان لها أثرها الواضح على شخصيته و شعره ، فالإنسان ابن بيئته التي لا فكاك له منها .

الفصل الأول و جاء بعنوان : ابن الأبار القضاعي حياته و آثاره ، و دارت الدراسة فيه عن حياة ابن الأبار القضاعي بمرحلتيها الأندلسية و المغربية من جهة ، و آثاره الأدبية و العلمية من جهة أخرى .

الفصل الثاني و كان بعنوان : موضوعات قصيدة المديح عند ابن الأبار القضاعي في البلاط الحفصي ، و حاول البحث في هذا الفصل أن يتتبع الموضوعات البارزة في مدائح ابن الأبار للحفصيين ، و مدى مطابقتها لموضوعات المديح التي حددها النقد العربي القديم .

الفصل الثالث و عنوانه : البناء و الصورة في قصيدة المديح عند ابن الأبار في البلاط الحفصي ، و تناول الجوانب الفنية في مدائح ابن الأبار بالبلاط الحفصي ، مركزا على هيكل قصيدة المديح بنوعيها : البسيطة و المركبة ، و ما تشتمل عليه من عناصر التقليد و التجديد ، كما تناول الحديث عن الصورة الشعرية و حصر أهم أنواعها و خصائصها الفنية .

خاتمة و تضم أهم النتائج التي توصل إليها البحث ، بعد دراسة وتحليل لجوانب الموضوع ، حيث اهتمت الدراسة و أولت عنايتها به .

الفهارس الفنية الضرورية في مثل هذه البحوث العلمية .

لقد اتكأ البحث في مناقشته لكل القضايا التي تطرق إليها ، على الكثير من المصادر و المراجع القديمة منها و الحديثة ، التي وفرت له السند العلمي الكافي و أضاءت له مختلف الزوايا الغامضة ، و من هذه المصادر و المراجع :

كتاب العبر لابن خلدون ، نفح الطيب للمقري ، تاريخ إسبانيا الإسلامية للسان الدين بن الخطيب ، الشعر و الشعراء لابن قتيبة الدينوري ، نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، الحيوان للجاحظ ، العمدة لابن رشيق المسيلي القيرواني ، منهاج البلغاء لحازم القرطجني...

و من الدراسات الحديثة : عصر المرابطين و الموحدين لمحمد عبد الله عنان ، النبوغ المغربي عبد الله كنون ، ظهر الإسلام لأحمد أمين ، في الأدب الأندلسي لجودت الركابي، الصورة الأدبية لمصطفى ناصف، الصورة الفنية لجابر عصفور ، المديح لسامي الدهان ، ملامح الشعر الأندلسي لعمر الدقاق ، الشعرية العربية لنور الدين السد ، قصيدة المديح في الأندلس لأشرف محمود نجا ...

بالإضافة إلى عدد غير قليل من المعجمات اللغوية مثل : لسان العرب لابن منظور ، تاج العروس لمرتضى الزبيدي ، المعجم الوسيط ، و الرسائل الجامعية و الدوريات المتخصصة .

أما عن الدراسات السابقة التي تناولت ابن الأبار القضاعي ، فهي قليلة كما سبق الذكر ــ فيما نعلم ــ فقد ألف عبد العزيز عبد المجيد كتابا حول ابن الأبار بعنوان ابن الأبار حياته و كتبه دون أن يشير إلى إبداعه الشعري ، بل لقد أنكر أن يكون لابن الأبار ديوان شعر . و بعد العثور على مخطوطة الديوان ، قام عبد السلام الهراس بتحقيقه و نشره و أنجز دراسة فيه ، لكن هذه الدراسة تناولت الديوان كله الأمر الذي أفقدها التركيز و التعمق ، كما قام الدكتور العلمي لراوي بتناول ابن الأبار بالدراسة و البحث في رسالته لنيل درجة الدكتوراه ، حيث دار القسم الأول منها حول حياة ابن الأبار و كتبه ، و خصص القسم الثاني منها لإجراء

دراسة فنية في شعره ، و قد انتفع البحث منها كثيرا ، غير أنني لاحظت أن هذه الجهود السابقة لا تزال في حاجة إلى من يكملها و يثريها ، فأخذت على عاتقي هذه المهمة الشاقة و الممتعة في الوقت نفسه ، و بدأت من حيث انتهت تلك الدراسات ، فكان بحثي المعنون : ابن الأبار القضاعي و مدائحه في البلاط الحفصي ، لعل و عسى ــ بعد ذلك ــ أتمكن من تقديم إضافة مفيدة إلى هذا الموضوع ، بالقدر الذي تسمح به أدواتي المعرفية المتواضعة .

و قد زاوج البحث بين جانبين : التنظير و التطبيق ، فكل فصل منه يبدأ بطرح القضايا النظرية أولا ، و ينتهي بالتطبيق الذي نال القسط الأوفر في هذا البحث .

و اعتمد البحث على منهجين أساسيين هما : المنهج الموضوعي و المنهج الفني ، بالإضافة إلى بعض المناهج الأخرى بصفة ثانوية ، فقد دعت الحاجة في هذه الدراسة إلى الاستفادة من مناهج مختلفة كل في موضعه ، فالمنهج التاريخي في التمهيد و الفصل الأول و في توثيق النصوص الشعرية عند الحاجة إليها ، و المنهج الموضوعي في الفصل الثاني ، و المنهج الفني عند الحديث عن أساليب التعبير و جماليات اللغة و أشكال الكتابة و نلمس ذلك في الفصل الثالث ، كما كان للتحليل مكانه من هذا البحث لاستخلاص أهم القضايا الموضوعية و الفنية ، فالبحث يرتكز أساسا على المنهج الموضوعي و المنهج الفني ، في حين أن المنهج التاريخي و المنهج التحليلي كانت الحاجة إليهما ثانوية تطلبتهما بعض السياقات ، و لهذا السبب كان وصف الدراسة بأنها موضوعية فنية .

ولا يفوتنا في نهاية المطاف أن نذكر بأن الاقتراب من الأدب المغربي و الأندلسي ، يعد مغامرة بحثية شاقة و مضنية لكنها ضرورية وممتعة في الوقت نفسه ، يقطع الباحث شوطا طويلا فإذا التفت وراءه وجد نفسه يراوح المكان ، و لعل قلة المصادر و المراجع و مشقة الحصول عليها ، أهم العراقيل التي يتقاسمها جل الباحثين و يعانيها معظم الدارسين في هذا الحقل المعرفي ، فلا ضرورة ــ و الحال هذه ــ أن نسترسل في سردها ، و بالرغم من كل الصعوبات ، فقد تم

إنجاز هــذا البحث ، بفضل الله و توفيقه ، فإن كنت لا أزعم أنه قال كلمة الفصل في الموضوع ، فإنني أتمنى ــ صادقا ــ أن يكون قد أضاف إلى الجهود السابقة فائدة جديدة ، و أن يفتح الطريق أمام بحوث لاحقة تثريه و تكمل ما فيه من نقص ، فالمعرفة الإنسانية تراكمية ، يضيف اللاحق إلى السابق ، أو هي مثل كرة الثلج المتدحرجة تبدأ صغيرة فكلما سارت كبرت ، أو كما قال الشاعر الحكيم :

و أزرق الفجر يبدو قبل أبيضه   و أول الغيث قطر ثم ينسكب .

و يقتضي المقام أن أنسب الفضل لأهله و أن أعترف بالجميل لذويه ، فإن كان في هذا البحث من إضافة ذات قيمة و جديد مفيد ، فإن الفضل بعد الله عــز و جل يعود إلى أستاذي الفاضل الدكتور محمد حجازي ، الذي أشرف على هذا البحـــث و تابع مراحل إنجازه خطوة خطوة ، فصوب أخطاءه و قوم اعوجاجه ، و لم يضق صدره بي ذرعا لحظة ، و لم يبخل علي بشيء من جهده و وقته ، و منحني من خالص نصائحه و عظيم عنايته و توجيهاته القيمة ما أعانني و بعث الحماس في نفسي لإكمال هذه الرسالة ، فله مني جزيل الشكر و عميم الثناء و فائق التقديــر ، و جزاه الله عن العلم و طلابه أوفــر الجزاء ، و رزقه الصحة و العافية .

كما لا يفوتني أن أوجه شكري و عرفاني لكل الأساتذة الذين أناروا دربـــــي و سددوا خطواتي و أزالوا عني غشاوة الجهل خلال مرحلة الدراسات العلـــــيا ، و أخص بالذكر الدكاترة : عبد الحميد بن صخرية ، علي عالية ، السعيد لراوي ، محمد زرمان ، كمال عجالي ، عيسى مدور ، صحراوي مقلاتي ، كما أشكر الدكاترة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الذين كلفوا أنفسهم عناء قراءة هذا البحــث و تثمين محاسنه و تصويب أخطائه .

ولله الحمد و الشكر و الثناء من قبل و من بعد على عونه و توفيقه و نعمه التي لا تحصى ، و أسأله السداد و الهداية و القبول ، و أن يعينني على شكره وذكـــره و حسن عبادته .

تمهيــــد

صور الحياة في عصر ابن الأبار القضـــاعـــي

أ - الصورة السياسية

1- في الأندلس

2- في المغرب

ب - الصورة الاقتصادية و الاجتماعية

1- في الأندلس

2- في المغرب

جـــ- الصورة الثقافية

1- في الأندلس

2- في المغرب

د - الصورة الدينية

1- في الأندلس

2- في المغرب

إن الحديث عن العصر الذي عاش فيه الشاعر، يتطلب دراسة الأحوال العامة و الأحداث المتعاقبة من جميع جوانبها ، ليتمكن الدارس من معرفة العوامل التي ساهمت إلى حد كبير في تشكيل المسار العام الذي نهض بالحياة التي كانت مجالا رحبا و واسعا للشاعر خلال القرن السابع الهجري ، بمحطتيه الأندلسية و المغربية ، و بذلك تشكلت معظم الاستنتاجات و المفاهيم لدى الشخصيات المحورية التي كان لها الدور البارز في تلك الفترة ، و منها شاعرنا الذي هو محور الدراسة .

و لكي يتم اكتشاف هذه المنظومة المعرفية للحيوات التي عاشها الشاعر ، فإنه حري بنا استبانتها حسب أهميتها و الدور الذي تِؤديه في المجتمع ، إن إيجابا أو سلبا ، و عليه فإن الحياة تنتظم بالصور الآتية :

أ- الصورة السياسية :

1- في الأندلس :

شهد القرن السابع الهجري بالأندلس أحداثا سياسية و عسكرية كثيرة ، و كان من نتائجها : تراجع الحكم الموحدي* ، و انكسار شوكة المسلمين ، و انحصار رقعتهم و انتكاس رايتهم ، و ذهاب ريحهم في معظم جهات الأندلس .

و بالموازاة فقد بدأ نجم الممالك النصرانية في الصعود ، و راياتهم المدعومة بالصليب في الارتفاع ، حيث توحدت كلمتهم ، و اجتمعت فلولهم ، و شرعوا في إسقاط المدن الإسلامية تباعا .

----

*- قامت دولة الموحدين على أنقاض المرابطين في بداية القرن السادس الهجري بالمغرب الأقصى ، و بسطت نفوذها على بلاد المغرب كلها و على الأندلس ، و قد أسسها محمد بن تومرت من قبيلة هرغة إحدى بطون قبيلة مصمودة ، يرجع نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، و قد شكك بعض المؤرخين في صحة هذا النسب ، غير أن ابن خلدون يؤكده . للمزيد ينظر/ عبد الرحمن ابن خلدون : المقدمة ، دار صادر ، بيروت ، ط 1 ، 2000 م ، ص 27- 28 .

ففي مطلع القرن السابع الهجري ، قرر البلاط الموحدي تنفيذ مشروعه القاضي بفتح الجزر الشرقية (ميورقة ، يابسة ، منورقة) ، و إخضاعها لسلطتهم ، و القضاء على ملك بني غانية* في عقر دارهم ، ثم ملاحقتهم في المناطق التي احتلوها بالمغرب ، دون أن يكون لهؤلاء ملاذا آمنا يتحصنون به ، و تمكن الموحدون من فتح ميورقة في شهر ربيع الأول سنة (600هـ/ 1203م)(1) .

لقد تمكن الموحدون من بسط سيادتهم على كامل الأندلس ، و القضاء على آخر جيوب مقاومة المرابطين و أتباعهم قضاء مبرما ، كما كان هذا الفتح تهديدا مباشرا للممالك النصرانية التي كان بنو غانية يسالمونهم ، و يقيمون علاقات ودية معهم .

و استمر الخليفة الناصر في الاعتناء بشؤون الأندلس السياسية ، و العسكرية ، و الإدارية ، و ذلك بتوجيه الأوامر إلى سائر ولاة الأندلس بإعداد الجيوش ، و صنع الأسلحة ، و شراء العتاد الحربي ، كما قام بتعيين ولاة جدد على بعض المدن الأندلسية كإشبيلية ، و بسطة ، و شلب و بلاد غرب الأندلس ، و بطليوس و جهاتها(2) .

و عليه تم التحضير لغزوة كبيرة ضد الممالك النصرانية ، و الذين ما فتئ خطرهم يتزايد يوما بعد يوم ، من خلال سعيهم الحثيث لتوحيد صفوفهم و تدعيم قوتهم ؛ فقد وصلهم المدد بالمال و السلاح و الرجال من الكثير من الممالك النصرانية بأوروبا .

((فلما اقترب أجل انتهاء الهدنة بين قشتالة و بين الموحدين ، أخذ ملك قشتالة

---

*- يرجع أصل بني غانية إلى مسوفة إحدى بطون قبيلة صنهاجة البربرية ، و عرفوا ببني غانية على اسم أمهم ، و كان علي بن يوسف المرابطي قد ولى على جزيرة ميورقة محمد بن علي المسوفي المعروف بابن غانية ، وبعد سقوط دولة المرابطين استقل بنو غانية بحكم ميورقة و الجزر القريبة منها. للمزيد ينظر /عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1981م ، جـ 6 ، ص 390- 409 . و علي محمد الصلابي : دولة الموحدين ، مؤسسة اقرأ للنشر ، مصر ، ط 1 ، 2007 م ، ص 128 .

(1)- بتصرف / محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين و الموحدين في الأندلس ، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، مصر ، ط 1 ، 1964م ، جـ 2 ، ص 258- 260 .

(2)- بتصرف / المرجع نفسه : ص 263 .

ألفونسو الثامن ، يتأهب لغزو الأندلس ، و كان منذ هزيمة الأرك* الساحقة ، يتــوق إلى الانتقام لهزيمته ، و رفع الوصمة التي لحقت من جرائها الجيوش النصرانية .

و في أوائل سنة (1209م) ، خرج ألفونسو الثامن من قشتالة في قواتــــــه ، و احتشد فرسان قلعة رباح في قلعة شلبطرة ... و سار ألفونسو صوب جيـــــــان و بياسة ، فانتسف الحقول و خرب الضياع ، و قتل و سبى ... و في العام التـــالي خرج ألفونسو إلى الأندلس مرة أخرى ، و عاث في أراضي جيان و بياســــــة ، و وصل في عيثه إلى أراضي ولاية مرسية ، ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم))(1).

و لما كانت الحاميات الموحدية بالأندلس عاجزة علـــى رد العـــدوان ، قـــرر الخليفة الموحدي تجهيز حملة عسكرية لمواجهة خطر هجمات الممالك النصرانية .

يقول ابن خلدون (ت 808هــ/1406م) : ((لما بلغ الناصر تغلب العدو علـــى كثير من حصـــــون بلنسية... خرج من مراكش سنة تسع و وصل اشبيلية و استقر بها و استعـــد للغزو... و سار على التعبئة إلى الموضع المعروف بالعقاب**، وقـــد استعد له الطاغية ، و جاءه طاغية برشلونة مددا بنفسه فكانت الدبرة على المسلمين، و انكشفوا في يوم بلاء و تمحيص أواخر صفر سنة تسع و ست مائـــة ، و انكفـــأ راجعا إلى مراكش فهلك في شعبان من السنة بعدها))(2) .

و جاءت الفترة الثانية من هذه الأحداث و ما تلاها من تغير في ســـدة الحكــم لدى هؤلاء ، بيد أن ذلك لم يكن له الأثر الذي يذكر ، بالرغم مــن طــول خلافــة بعضهم ، إلا أنها صورية شكلية لم تقدم في الأمر و لم تؤخر فيه ، و ذلــك نظــرا للأوضاع الغير اعتيادية التي كانت عليها الحال في تلك الفترة .

---

*- الأرك : حصن بالأندلس يقع قرب مملكة قشتالة النصرانية، دارت فيه معركة كبيرة بين قشتالة و حلفائها ، و بين الموحدين حيث حققت الجيوش الإسلامية بقيادة الخليفة الموحدي أبي يعقوب المنصور نصرا ساحقا سنة 591 هـــ . للمزيد ينظر/ علي محمد الصلابي : دولة الموحدين ، 133- 143 .

(1)- محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين و الموحدين في الأندلس ، جـــ 2 ، ص 284 .

**- العقاب : موضع بين مدينة جيان و قلعة رباح ، وقعت به معركة العقاب الشهيرة بين مملكة قشتالة النصرانية و حلفائها، و بين الموحدين بقيادة الخليفة الناصر سنة 609 هـــ ، و انهزم فيها المسلمـــــون. للمزيد/ ينظر ابن خلدون : كتاب العبر ، جـــ 6 ، ص 336 .

(2)- المصدر نفسه : جـــ 6 ، ص 521-522 .

((و بعد موت الناصر تولى الخلافة ابنه يوسف المستنصر أبو يعقــوب ولــم يتجاوز العشرة أعوام ، و قيل ستة عشر عاما ، كان قليل الخبرة و التجربة... وقام أعمامه و مشيخة الموحدين بإدارة الدولة نيابة عنه ، فكانت أيامه كلها دعة و تواكل و هدنة)) [1].

و بوفاة المستنصر سنة(620 هــ/1223 م) ، دخل الموحدون فــي صــراع دموي و تنافس حاد على السلطة ، و في هذه الأثناء ساءت الأحوال بالأندلـــــس ، و ازدادت الهجمات النصرانية على مرسية و اشبيلية ، وسيطر حاكم برشلونة على ميورقة سنة (627 هــ/ 1229 م) ، و قد اغتنم النصارى حالة الضعف و التفكــك و زحفوا على الأراضي الإسلامية في وقت واحد ؛ فأرغون من الشـــــــــــرق ، و البرتغال من الغرب ، و قشتالة من الشمال ، بمساندة قوات صليبية مــن أنحــاء أوروبا[2] .

((إزاء هذه الأوضاع المتردية جمع الأندلسيون كامل قواهم الذاتية ، و قـــاموا بانتفاضة شعبية شاملة ... و سلموا زعامتهم إلى رجال من أبنائهم ، كان أولهم ابن هود الذي تزعم الثورة سنة(625 هــ/1227 م)، و ثانيهما أبو جميل زيان سنـــــة (626 هــ/ 1228 م) ، و آخرهم الثائر ابن نصر سنة(629 هــ/ 1231 م))[3].

و في هذه الأثناء فر والي بلنسية أبو زيد بن أبي حفص بعد ثورة وزيره أبــي جميل عليه ، و التجأ إلى حاكم أرغون ، ويذكر ابن خلدون أنه دخــل فــي ديــن النصرانية[4] .

و تعد حادثة الارتداد هذه ــ إن صحت ــ دليلا على مدى الإفلاس و الهــوان الذي أصاب الحكام الموحدين بالأندلس خلال هذه الفترة الحرجة في تاريخها ، و قد

---

(1)- داود عمــر سلامــة عبيــدات : الموحدون في الأندلــس – المغــرب و الأندلــس ما بيــن ســـــنتي (541/ 667 هــ - 1146/1268م) ، دار الكتاب الثقافي ، الأردن ، 2005 م ، ص 126 .

(2)- بتصرف/ المرجع نفسه : ص 127- 129 .

(3)- المرجع نفسه : ص 129 .

(4)- بتصرف/ المرجع نفسه : ص 129- 130 .

نُكِبَت بقادة ضعاف و متخاذلين همهم الوحيد البقاء في سدة الحكـــم ، و هـــم غيـــر مؤهلين للقيام بأعبائه و تبعاته ؛ فجلبوا الويل على البلاد و العباد .

و ذكر لسان الدين بن الخطيب(ت 776هــ/1374م) أن أبا جميل زيـــان قـــد دخل بلنسية ، و أعلن الولاء للعباسيين ، و بايعتـــه بعـــض المـــدن والحـــصـــون الأندلسية ، و لم يمهله ملك أرغون طويلا ، و أوقع به الهزيمة بأنيشة قرب بلنسية ، و هلك فيها من المسلمين خلقا كثيرا ، ولم يجد من يمد له يـــد العـــون مـــن أهـــل الأندلس؛ فأعلن بيعته لأبي زكريا الحفصي* حاكم تونس ، حيث قدم عليه كاتبه ابن الأبار مستنجدا به لنصرة مدينته ، و ألقى بين يديه قصيدته السينيـــة :

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللهِ أَنْدَلُسَا   إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا

و لم يصل المدد و العون إلا بعد أن أحكم الحصار حولها سنة (635 هــ)[1].

((و واصل... ملك أرغون منازلة بلنسية ورميها بالمجانيق و شدة القتـــــال ؛ و ما زال المسلمون تنقص أعدادهم ، و النصارى تتوارد أمدادهم ... إلى أن بلـــغ الكتاب أجله ؛ فكانت المراوضة على إسلام البلد ، و الخروج عنه في الرابع عـــشر لصفر من السنة بعد سنة المنازلة))[2] .

و سقطت الحواضر الأندلسية تباعا في أيدي الممالك النصرانية ، حيث سقطت قرطبة سنة(633 هــ/1236 م) قبل بلنسية بثلاث سنوات ، كما لقيت المصير نفسه كلا من مرسية سنة(644 هــ/1246 م) ، و إشبيلية سنـــــة(646 هــ/1248 م) ، و كان هذا السقوط المريع في مدة و جيزة[3] .

---

*- يرجع نسب الحفصيين إلى هنتانة إحدى بطون قبيلة مصمودة البربرية، و كان أبو حفص عمر من أصحاب محمد بن تومرت المقربين، و هو الشخصية الثانية بعد عبد المؤمن بن علي في نظام الموحدين، ثم استقل بنوه بحكم افريقية سنة 627 هــ بعد خلاف عقائدي مع المأمون الموحدي، ثم ادعوا الانتساب الى عمر بن الخطاب في عهد المستنصر الحفصي . للمزيد ينظر/ ابن خلدون : كتاب العبر ، جــ 6 ، ص 577- 578 .

(1)- بتصرف/ لسان الدين بن الخطيب : تاريخ إسبانيا الإسلامية (أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام) ، تحقيق/ ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، لبنان ، ط 2 ، 1956م، ص 272- 273 .

(2)- المصدر نفسه : ص273 .

(3)- بتصرف/علي محمد الصلابي : دوله الموحدين ، ص 175 .

وكان لهذه الهزائم المتتالية ، أثرها البارز في مزيد من الانهزام و التقهقر من قبل المسلمين ، و قويت بالتالي شوكة النصارى ، و أخذوا بزمام المبادرة و الهجوم، و سيطروا على قلاع المسلمين قلعة تلو أخرى .

((لقد كان سقوط إشبيلية إيذانا بسقوط سائر المدن و الحصون الإسلامية فيما بينها و بين مصب الوادي الكبير، فاستولى النصارى تباعا على: شريش ، شذونة ، قادس ، شلوقة ، غليانة ، روضة ، ثغر شنتمرية ، و غيرها... و تحالف ابن الأحمر مع النصارى ، و عاونهم على قادس ، و بهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية في غربي الأندلس ، و انكمشت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة))[(1)] .

و بهذه النكبات و الهزائم المتتالية ، انفرط عقد الأندلس الثمين و قد كان من قبل منظوما ، و لم يبق من المدن و الممالك الأندلسية الكبيرة ، إلا مملكة غرناطة بقيادة محمد بن يوسف ابن الأحمر ، فعرف كيف يستغل الموقف المضطرم و يستثمره لصالحه ، في مهادنة النصارى ربحا للوقت و تحينا للفرصة .

و أستطاع هذا القائد بحنكته و دهائه أن يؤسس دولة في الجنوب الشرقي للأندلس ، و أعلن النصارى الحرب عليه في عام(660هـ/1261م) ، و تمكن من تحقيق نصرا كبيرا عليهم ؛ فانتعشت معنويات الأندلسيين بعد الأهوال و النكبات التي حلت بهم ، و لكن الهجمات من قبل ملك قشتالة لم تتوقف ؛ فبايع المستنصر الحفصي حاكم تونس ، حيث أمده ببعض العون و المساعدة لكنها لم تجدِ نفعا ؛ مما جعله يضطر إلى مهادنة ملك قشتالة ، ثم طلب العون من أبي يوسف المريني*،

---

(1)- المرجع السابق : ص 179

*- ينتسب المرينيون إلى مجموعة قبائل زناتة البربرية ، و يذكر المؤرخون أنهم عرب صريحون ، و أنهم بعض ولد مادغيس بن بر بن قيس عيلان ، و قيل غير ذلك ، حياتهم قائمة على الترحال طلبا للماء و الكلأ ، ولا يخضعون لحكم سلطان ، و يسكنون زاب إفريقية الى سجلماسة . للمزيد ينظر/ ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ 2 ، ص 5، 111- 112 .

و مات ابن الأحمر سنة(671هـ) ، بعد أن وطد الملك لبني نصر استمر أكثر من مائتين و خمسين سنة أخرى [(1)].

في خضم هذه الأحداث الجسيمة ، و الأوضاع المضطرمة التي شهدتها الأندلس خلال القرن السابع الهجري ، هاجرت جموع غفيرة من الأندلسيين موطنهم متجهين صوب المغرب و المشرق ، بحثا عن الأمن و الاستقرار المفقودين بالأندلس السليبة ، و التي تكالبت عليها قوى النصرانية المدفوعة بحقد صليبي أعمى ، و تخاذل أبناءها في نصرتها و الدفاع عنها ، و قد وصف عبد الله بن فرج اليحصبي المعروف بابن العسال* ، الحال المزرية التي بلغتها الأندلس ، و التفكك الذي باعد بين مدنها و أقاليمها ، فأضحت لقمة صائغة للأعداء ، فعند أخذ ألفونسو السادس لطليطلة سنة(475هـ) قال قصيدته التي ظاهرها اليأس و باطنها الحث و التحريض و شحذ العزائم و الهمم و أيقاظ الضمائر ، و مما جاء فيها:

يَا أهلَ أندُلسَ حُثُوا مَطِيَّكُم   فمَا المَقامُ بهَا إلاَّ مِنَ الغَلَطِ

الثَّوْبُ يُنْسَلُ مِنْ أطْرافِهِ وَ أرَى   ثوْبَ الجَزِيرَةِ مَنْسُولاً مِنَ الوَسَطِ

ونحن بين عدو لا يفارقنا   كَيْفَ الحَيَاةُ مَعَ الحَيَّاتِ فِي سَفَطِ** [(2)].

---

(1)- بتصرف/ علي محمد الصلابي : دولة الموحدين ، ص 182- 183 .

*- هو عبد الله بن فرج بن زغلون اليحصبي ، كنيته أبو محمد ، و يعرف بلقب ابن العسال أو العسال ، من كبار زهاد طليطلة ، مشهور بالكرامات ، كان حافظا للحديث عالما باللغة متبحرا في علومها متقنا لفنونها ، غادر طليطلة بعد استيلاء العدو عليها ، فقصد غرناطة و بها توفي سنة (487هـ) . للمزيد ينظر/ ابن سعيد المغربي : المُغرب في حلى المَغرب ، تحقيق/ شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط 2 ، جـ 2 ، ص21 .

**- السفط : وعاء يوضع فيه الطيب و نحوه من أدوات النساء ، أو هو وعاء من قضبان الشجر توضع فيه الأشياء و الفاكهة و نحوها . للمزيد ينظر/ مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، إعداد/ إبراهيم أنيس و آخرون ، دار المعارف ، مصر ، ط 1 ، 1973م ، مادة (سفط) ، جـ 1 ، ص 433 .

(2)- المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق/ إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط 1، 1968م ، جـ 4 ، ص 352 .

2- في المغرب:

عرف المشهد السياسي ببلاد المغرب خلال القرن السابع الهجري ، اضطرابا و صراعا داميا بين الموحدين و حلفائهم ، و أنصار المرابطين الذين كانوا يطمحون في استعادة أمجاد دولتهم من جديد ، و خاصة من خلال حلفائهم من الأعراب و بني غانية ، و نتج عن هذا الصراع هزيمة القبائل المناوئة للدولة الموحدية من جهة ، و كذلك تصدع دولة الموحدين و انهيارها ، و ظهور دويلات جديدة بمختلف أنحاء المغرب من جهة أخرى.

ففي سنة(601هـ) خرج الخليفة الناصر لدين الله الموحدي في حملة عسكرية كبيرة لاسترجاع تونس و بعض مدن المغرب الأدنى و الأوسط ، و التي سيطر عليها بنو غانية من قبل ، فدخلها ثم حاصر المهدية كذلك ، ولجأ ابن غانية إلى قابس هو و من معه من الأعراب ، فلاحقهم الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، و أوقع بهم الهزيمة بناحية تاجرا قرب قابس ، و استولى على معسكرهم ، ثم رجع الى المهدية فكان سببا في استسلامها ، و لاحق الموحدون فلول بني غانية و الأعراب و القبائل المناوئة إلى ما وراء طرابلس ، و فر ابن غانية إلى صحراء برقة و انقطع خبره (1).

و يظهر أن متاعب البلاط الموحدي لم تنته بهزيمة بني غانية في الأندلس كما مر معنا من قبل ، فقد برز هؤلاء من جديد على مسرح الأحداث بالمغرب ، و استقطبوا إليهم بعض القبائل الأعرابية المعروفة بالغزو ، و تمكنوا من الاستيلاء على بعض المناطق الشرقية من بلاد المغرب .

ولما قرر الخليفة الناصر مغادرة إفريقية سنة(603هـ) ، أسند الى أبي محمد عبد الواحد ابن أبي حفص الهنتاني أمرها ، و أعطاه مطلق التصرف في إدارتها

---

(1)- للمزيد ينظر/ ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ 6 ، ص 582- 583 ، و ما تلاهما ...

كي يستطيع القيام بأعبائها ، و يقضي على الفتن و الثورات المستمرة هناك بزعامة بني غانية و أحلافهم من العرب(1).

و ذكر ابن خلدون أن الشيخ ابن أبي حفص قد اعتذر عن قبول هذه المهمة في البداية ، لكن إلحاح الخليفة الناصر عليه جعله يوافق بعد أن اشترط شروطا منهـا : العودة إلى المغرب بعد قضاء مهمات إفريقية في ثلاث سنين ، وأن يعطى مطلق السلطة في التولية و العزل ؛ فوافق الخليفة على هذه الشروط(2) .

و يمكن عد هذه الشروط إرهاصات أولى ، و تباشير انفصال سياسي عن الدولة الموحدية ، و الإنفراد بحكم الجهة الشرقية لبلاد المغرب .

و عند وفاة الخليفة الناصر سنة (610هـ) ، تمهل الشيخ أبو محمد في بيعة الخليفة الجديد المستنصر ثم بايعه بالخلافة لاحقا.

و قام المستنصر بتعيين عمه أبا العلاء إدريس أميرا على تونس ؛ ليعنى بتدبير شؤونها إلى جانب الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، و لم يكن هذا التعيين محلا لرضا الشيخ و رأى فيه مضايقة له ، ولكن هناك من يقول بأن تعيين أبي العلاء لإمارة تونس لم يقع إلا بعد وفاة الشيخ أبي محمد ببضعة أشهر(3).

و من ثمة بعد تراكم هذه الأحداث بمجرياتها المتعددة و الكثيرة ، جاءت مرحلة أخرى : ((توفي الشيخ أبو محمد عبد الواحد بتونس في مستهل شهر محرم سنة (618هـ/ 8 مارس 1220م) ، بعد أن لبث نيفا و أربعة عشر عاما يضطلع بأعباء منصبه الشاقة... و كان لعزمه و شجاعته أكبر الأثر في تحطيم ثورة بني غانية ، و إنقاذ سلطان الموحدين بإفريقية ، و حماية جناح الدولة الموحدية الشمالي الشرقي من الانهيار))(4) .

---

(1)- بتصرف/ علي محمد الصلابي : دولة الموحدين ، ص 262 .
(2)- بتصرف/ ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ 6، ص 583 .
(3)- بتصرف/ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين و الموحدين في الأندلس ، جـ 2 ، ص 373 .
(4) المرجع نفسه : جـ 2 ، ص 374 .

و لم يكن تعيين الشيخ ابن أبي حفص واليا على الجناح الشرقي لدولـــة الموحـــدين قرارا اعتباطيا ، بل هو تدبير مقصود يهدف إلى التخلص من نفوذ آل بني حفــص في البلاط الموحدي الذي سيطر عليه آل عبد المؤمن ، فقد كان أبو حفص عمـــر* الرجل الثاني في نظام الموحدين .

و مهما يكن من أمر فإن وفاة الشيخ أبي محمد عبد الواحد قد جعل يحيى بـــن إسحاق بن غانية يتحرك من جديد ضد الموحدين ، ويسيطر على بـــلاد الجريـــد** ، فتحرك إليه أبو العلاء في جيش من الموحدين و العرب الموالين لهم و أوقـــع بهـــم الهزيمة وشتت شملهم ، و كان ذلك سنة (621هــ/1223م)، و استمرت غـــارات يحيى بن إسحاق بن غانية و من يواليه من القبائل العربية ، إلـــى أن مـــات علـــى ضفاف نهر الشلف سنة(631هــ)(1).

و يظهر من خلال الأحداث التي لا تكاد تنتهي فصول منها حتى تبدأ الأخرى ، أن هذه البلاد قد تشكلت دقائقها و أحداثها وفق هذه الأنماط من الـــسلوكات العنيفـــة المتعاقبة في بلاد المغرب ، و الذي لعب فيها بنو غانية أبرز الأدوار .

و بوفاة الخليفة الموحدي المستنصر سنة(620هــ/1223م) ، دخـــل آل عبـــد المؤمن في صراعات دموية على السلطة ، حيث تداول عليها في فترة وجيزة ثلاثة خلفاء كان ثالثهم المأمون ، الذي دعا لنفسه بالخلافة ، و استعان بالنـــصارى علـــى أخيه العادل سنة(624هــ)(2) .

---

*- هو والد الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني الذي عينه الناصر الموحدي واليا على المغرب الأدنى (الجناح الشرقي للدولة الموحدية) سنة(603هــ) ، و قد استقل بهذه الجهة ابنه أبو زكريا عن سلطة الموحدين في خلافة المأمون سنة (625هــ) .

**- هي منطقة صحراوية بالجنوب التونسي ، و من مدنها : قفصة و نفطة و الحامة و توزر... ينظر/ محمد بن عبد الله التنسي : تاريخ ملوك بني زيان (مقتطف من : نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان) ، تحقيق/ محمود بوعياد ، وزارة الثقافة (الجزائر عاصمة الثقافة العربية) ، الجزائر ، 2007م ، (فهرس الأماكن للمحقق) ، ص 285

(1)- بتصرف/ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين و الموحدين في الأندلس ، جــ 2 ص 374- 378 .

(2)- بتصرف/ داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 127- 128 .

و كان هذا الصراع إيذانا بتفكك و انهيار الدولة الموحدية ، في مختلف المجالات و الجهات التي بسطت عليها سلطتها من قبل ، و ظهور بعض الدول المستقلة بمختلف جهات بلاد المغرب ، مما مكن وسائط الضعف من الانتـــــــشار، و وسائل التحلل و التمزق من الاتساع ، و هذه نتيجة حتمية .

وأرسل المأمون إلى والي تونس أبي محمد عبد الله ليأخذ منه البيعة ، فــرفض مبايعته ، فأرسل إلى أبي زكريا الحفصي حاكم قابس ، و ولاه على بلاد إفريقيــة كلها ، وقبل بيعته وسيطر على تونس في الرابع و العشرين من رجب سنـــــــــة (625هــ) ، ثم تخلى عن بيعة المأمون الموحدي ، و انفصل نهائيا عــن الدولـــة الموحدية سنة(626هــ/ 1229م)[1] .

و تلقب بالأمير و وضع علامته في رسائله ، و جدد البيعة لنفسه سنة(634هــ) و ذكر اسمه في الخطبة بعد الإمام ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، و قد أشار عليه بعض الشعراء أن يتسمى بأمير المؤمنين في بعض قصائدهم إذ قال أحدهم :

ألا صِلْ بالأميرِ المُؤْمِنِينَ فأنْتَ بِهَا أحَقُّ العَالَمِينَا

و قد رفض ذلك حتى نهاية حكمه[2] .

وبذلك قامت الدولة الحفصية ، وارثة الدولة الموحدية على بلاد المغرب الأدنى و الجهة الشرقية من بلاد المغرب الأوسط ، بزعامة الأمير أبي زكريا الحفــصي ، الذي((استطاع أن يخضع الجزائر، أو بعبارة أدق أن يضمها إلى ولايته ، إذ كانت دولة الموحدين قد ضعفت ضعفا شديدا ، فاستقام له حكم البلدين حكما رشيدا يقــوم على نشر العدل و الأمن في البلاد))[3] .

---

(1)- بتصرف/أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم/ محمد الشاذلي النيفر ، عبد المجيد الريحي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1968م ، ص107-108

(2)- بتصرف/ ابن خلدون : كتاب العبر ، جــ 6 ، ص 594- 595 .

(3)- شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 1 ، 1995م ، ص 40 .

و بدأت أهداف الحفصيين تتحقق تدريجيا ، و دولتهم تمتد باتجاه الغرب ، وارثة بذلك الدولة الموحدية الآيلة للسقوط ، بفضل حنكة قادة الإمارة الحفصية الصاعدة .

و في سنة(633هـ/ 1236م) تسلم يغمراسن ولاية تلمسان بعد وفاة أخيه ، فكان أول أمير من بني عبد الواد* أعلن استقلاله عن الموحدين ، ويعتبر عهده بداية الدولة الزيانية و نهاية عهد الموحدين بالمغرب الأوسط (1) .

و قد أظهر يغمراسن حنكة سياسية وحربية و عزما و حزما كبيرين ، فتمكن من تأسيس دولة قوية ، استعصت على الأعداء و ذلك لقوة شوكتها و دربة مراسها ، حتى أنها استمرت عدة قرون ، و قد وصف يحيى بن خلدون مؤسسها يغمراسن بقوله : ((فارع الثنية و عاطف الحنية ، و المستأثر دون الملوك بالخلال السَنِيَةِ))(2).

لقد شكل قيام دولة الزيانيين ضربة جديدة للموحدين ، تضاف إلى الضربات التي تلقوها من قبل ، فانفرط عقدهم و ذهبت ريحهم و تلاشى ملكهم ؛ نتيجة الصراعات و الفتن التي نخرت جسد دولتهم ؛ فأخنى عليها الذي أخنى على لبد**.

و رأى الحفصيون أنهم أحق بوراثة ملك الموحدين ، فشرع أبو زكريا في بسط سلطته على تلمسان ، و قرر إخضاعها لحكمه و ضمها إلى إمارته .

---

*- بنو عبد الواد : ينتسب بنو عبد الواد إلى قبيلة زناتة البربرية مثلهم في ذلك مثل بني مرين، و هم من القبائل الرحل التي تجوب الصحراء ، وكانوا يقصدون الشمال الغربي من الجزائر كل صيف ، ويضعون أنفسهم في خدمة والي الموحدين على تلمسان، و يشاركون الموحدين في حروبهم ، و قد أتاح لهم ذلك الإقامة بتلمسان ، و تأسيس إمارة مستقلة بها على يدي قائدهم يغمراسن بن زيان سنة 633 هـ ، للمزيد ينظر/ ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ 4 ، ص 3- 7 ، 97- 161 .

(1)- بتصرف/ شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات) ، ص 42 .

(2)- يحيى بن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق/ عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، 1980م ، جـ 1 ، ص 204 .

**- هو شطر بيت شعري من معلقة النابغة الذبياني ، أخنى : بمعني أفسدها أو أتى عليها ، و لبد : اسم آخر نسور لقمان ، و كان ممن آمن بنبي الله هود ، فلما أهلك الله عادا ، خير لقمان بين بقائه إلى أن تفنى سبع بعرات سمر من أظب عفر لا يمسها القطر ، أو بقائه إلى أن تنتهي أعمار سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر ، فاختار الأنسر فكان آخر نسوره يسمى لبد أي أنه لا يموت ، و يزعمون أنه حين كبر قال له : انهض لبد فأنت الأبد . و قد شاع هذا البيت على كل لسان و سارت بذكره الركبان ، و أصبح يضرب كمثل سائر ، حين الحاجة إلى مثل هذه الأوصاف . للمزيد ينظر/ الشيخ أحمد الشنقيطي : شرح المعلقات العشر و أخبار شعرائها ، دار الأندلس ، بيروت ، ط 5 ، 1404هـ/1983م ، ص 204

((و في شهر شوال من سنة تسع و ثلاثين و ستمائة تحرك إلى تلمسان في جيش جملته أربعة و ستون ألف فارس ، و في شهر ربيع الأول من سنة أربعين و ستمائة دخلها عنوة من باب كشوطة ... و صاحبها حينئذ أبو يحيى يغمراسن بن زيان العبد الوادي ... ثم رجع الأمير أبو زكرياء إلى تونس سالما غانما ، و قد سلم البلاد للعبد الواديين إلا من مليانة شرقا ... و في سنة ثلاث و أربعين و ستمائة وصلت بيعة إشبيلية و المرية و شريش و طريف و سبتة و قصر ابن عبد الكريم و سجلماسة)) [1] .

و كانت بيعة أهل بلنسية قد وصلت من قبل ــ كما مر معنا ــ و من خلال تتابع الصراعات التي كانت قائمة حينئذ ، فقد فرضت بيعات جديدة و تغييرات منتظمة ، و إعادة رسم خريطة سياسية جديدة لبلاد المغرب .

و بايع المرينيون الذين كانوا يقاتلون الموحدين بالمغرب الأقصى أبا زكريا الحفصي خوفا من سطوته ، و حملوا الكثير من قبائل و أمصار المغرب الموالون لهم على مبايعته كذلك[2] .

لقد استطاع السلطان أبو زكريا أن يرسخ دعائم مملكته بتونس ، و يواجه خصومه في الداخل و الخارج بحنكة و دهاء كبيرين ، كما تمكن من توسيع حدود دولته من طرابلس شرقا إلى تلمسان غربا ، و أن يحظى بثقة و رضا الكثير من المدن و الممالك الإسلامية بالأندلس و المغرب ، و لا أدل على ذلك من الوفود الغفيرة التي جاءته مبايعة من الممالك و الأمصار، و ظهر و كأنه سيعيد الوحدة السياسية لبلدان المغرب الإسلامي مرة أخرى.

و خرج أبو زكريا من تونس الىجهة قسنطينة للإطلاع على أحوالها ، و وصل إلى باغاية* فأصاب السلطان هناك المرض ، فرجع إلى قسنطينة و منها

(1)- ابن قنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص 109 .
(2)- بتصرف/ ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ 6 ، ص 618- 619 .
*- باغاية : قد يقصد بها ابن خلدون منطقة بغاي التي تقع بالقرب من مدينة خنشلة ، و هي من الأماكن التي لها تاريخها في الزمن المغربي القديم ، و أنشطة الصراع فيه .

توجه إلى بونة* و نزل بظاهرها ، فاشتد به المرض و توفي بها سنـــة (647هــ) و دفن هناك(1) .

و بوفاته تنتهي فترة التأسيس و إثبات الوجود للدولة الحفصية ، و تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ هذه الدولة ، حيث يسعى البلاط الحفــصي الجديــد إلـــى تعزيــز المكاسب الثمينة التي تحققت من قبل ، و العمل على ترقية الحياة بكل صورها فـــي هذه الإمارة .

((وبعد موت أبي زكريا تولى زعامة الحفصيين ابنه أبو عبد الله محمد الـــذي تسمى بالمستنصر بالله الذي أعلن نفسه أمير المؤمنين بعد سقوط بغداد بيد التتار عام (656هــ) ، وكان إعـــلانه كأمير المؤمنين للمسلميـــن سنة (657هــ/1259م) ، و بايعه شريف مكة بالخلافة))(2) .

و بوصول بيعة أهل الحجاز ، حققت الدولة الحفصية الناشئة مكسبا سياســـــيا و دينيا لم تكن تحلم بتحقيقه أعظم الإمارات في ذلك الوقت التي قامـــت بـــالمغرب الإسلامي ، و أضحت تتمتع بثقة و احترام المسلمين في مختلف الجهات .

و يذكر القلقشندي (ت821هــ/ 1418م) : ((إن المستنصر أول مـــن تلقـــب بأمير المؤمنين من خلفاء الدولة الحفصية ، و ذلك عقب سقوط الخلافـــة العباســـية ببغداد ، و مبايعة شريف مكة له بالخلافة))(3) .

---

*- بونة : هي مدينة عنابة الواقعة بالساحل الشرقي للجزائر حاليا على مسافة 600كلم شرق الجزائر العاصمة، أسسها الفينقيون، وغزتها قرطجنة، ثم استولى عليها ملوك نوميديا، و لما هزم يوغرطة سنـــة (105ق م) ، ضمت إلى ما يسمى ولاية إفريقية الرومانية، و أصبحت مقرا للأسقفية، فتحها المسلمون سنة 78هــ ، و قد عرف بها أحمد البوني من خلال كتابه (التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف). للمزيد ينظر/ إسماعيل العربي : المدن المغربية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984م ، ص196 .

(1)- بتصرف/ ابن خلدون: كتاب العبر، جــ 6 ، ص 654 .

(2)- علي محمد الصلابي : دولة الموحدين ، ص 267 .

(3)- صبح الأعشى في صناعة الإنشا : نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر ، القاهرة ، جــ 5 ، ص 135 .

و لقد كان للطابع الديني الأثر الكبير في حياة الخلفاء الحفصيين ، فهم جميعهم ينتسبون إليه ، و يحاولون العمل بمقتضاه ؛ لذلك كانوا يتسمون بأسماء عظماء العهد الإسلامي الأول ، حتى مراتبهم و أسماء إماراتهم .

حاول بنو حفص أن يربطوا أنفسهم بالأصل العربي ، فزعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب ، و أعلنوا ذلك في كل حفل و مناسبة ، و أطلقوا اسم الدولة العمرية أو الفاروقية على الدولة الحفصية [1] .

و يظهر أن الحفصيين و من خلال إدعاء الانتساب إلى عمر بن الخطاب سعوا إلى توفير الشرعية الدينية لدولتهم ، وربطها بالنسب العربي الصريح و المتمثل في قريش ـــ قبيلة الرسول صلى الله عليه و سلم ـــ على غرار العباسيين و الفاطميين من قبل ، و ذلك توطيدا لسلطانهم و كسبا لمحبة الناس و استدرارا لعواطفهم الدينية.

و تمكن بنو مرين من إسقاط ما تبقى من دولة الموحدين بالمغرب الأقصى ، و كان ذلك سنة (668هـ/1269م) ، و بعد هذا التاريخ استقل المرينيون بحكم المغرب الأقصى و أنهوا تبعيتهم للحفصيين [2].

و لم يمر وقت طويل على هذه الأحداث المتوالية ، ففي السنة نفسها ، كانت حملة النصارى بقيادة الفرنسيس على تونس ، إذ نزلوا ساحل قرطاجنة ثم انسحبوا منها صلحا بعد موت ملكهم و اختلال التوازن لديهم ، فصار أمرهم إلى رحيل ، و فعلوا [3] .

و استمر المستنصر الحفصي يسهر على شؤون الحكم و القيام بأعبائه ، و ازدهرت في أيامه الدولة الحفصية في الكثير من المجالات ، و كانت وفاته بتونس سنة(675هـ) ، وخلفه ابنه الواثق بعد أن بايعه الناس بالخلافة في السنة نفسها[4].

---

(1)- بتصرف/ علي محمد الصلابي : دولة الموحدين ، ص 267- 268 .
(2)- بتصرف/ المرجع نفسه : ص 234- 235 .
(3)- للمزيد ينظر/ ابن خلدون : كتاب العبر، جـ 6 ، ص 667 ، 670-671 .
(4)- بتصرف/ ابن قنفد القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص 134 .

و مما تقدم ذكره يتضح أن الحياة السياسية بالأندلس وبلاد المغرب قد عرفت الكثير من الأحداث و الصراعات والفتن المتعددة الأطراف بين المسلمين فيما بينهم من جهة ، و بين المسلمين و النصارى من جهة أخرى ، و كانت نتائجها سقوط المدن و الممالك الإسلامية بالأندلس في أيدي النصارى ، وتراجع المسلمين وهجرتهم إلى المشرق و المغرب ، ولم يتبق للمسلمين في نهاية القرن السابع الهجري بالأندلس إلا مملكة غرناطة .

كما شهد هذا القرن ببلاد المغرب تفكك الدولة الموحدية إلى ثلاث دويلات هي: دولة بني حفص بالمغرب الأدنى و شرق المغرب الأوسط ، و عرفت ازدهارا كبيرا ، و هاجر إليها الأندلسيون بكثافة ، واستقطبت جل العلماء و الأدباء من أهل الأندلس ، و لذلك تعد الدولة الحفصية ، دولة العلم و العلماء ؛ لسعتها لهم ، و حرصها عليهم ، و دولة بني زيان بالمغرب الأوسط ، و عاصمتها تلمسان، و كان طابعها حربيا أكثر مع عنايتها بالعلم و العلماء أيضا ، و دولة بني مرين بالمغرب الأقصى و التي قضت نهائيا على الموحدين وذلك سنة(667هـ) .

لقد حرصت هذه الدول الفتية جاهدة العمل على استتباب الأمن و الاستقرار؛ وهما الشرطان الأساسيان في تحقيق التطور الاقتصادي المرجو ، و الرفاهية الاجتماعية المنشودة .

ب - الصورة الاقتصادية و الاجتماعية:

1 - في الأندلس:

يتأسس النشاط الاقتصادي على أركان ثلاثة تشكل حلقات مترابطة و متكاملة فيما بينها هي: الزراعة، و الصناعة، و التجارة، وقد شكلت هذه العناصر نواة الحياة الاقتصادية في الأندلس خلال القرن السابع الهجري ، حيث شجع الموحدون السكان في نشاطهم الاقتصادي بمختلف أوجهه و اشرفوا عليه ، وذلك بحسب خصوصيات كل منطقة من مناطق الأندلس المناخية ، و الجغرافية ، و كذلك البشرية .

ففي مجال الزراعة ، ((كان للخلفاء الموحدين الفضل في تقريب و تشجيع المهندسين المبرزين بالمساحة و الفلاحة ... و إليهم يعود الفضل في تنفيذ كل المشاريع الهامة ، و بخاصة الاقتصادية منها))[1].

و لقد كانت أرض الأندلس مهيأة لمثل تلك الأعمال و الأنشطة المهمة ، إذ تعد ــ لخصوبتها و اخضرارها ــ جنة الله في الأرض .

لقد سعى الموحدون و بذلوا جهودا مضاعفة من أجل الاهتمام بالزراعة و تحسين الإنتاج ، و تشجيع السكان على خدمة الأرض و حسن استغلالها ، فظهرت المشاريع الزراعية في مختلف جهات الأندلس ، و إليها يرجع الفضل في تحقيق الأمن الغذائي ، و قد عدت: سلة الغلال بالنسبة للدولة الإسلامية .

((و اهتم الموحدون باعمار أراضي جبل طارق الصخرية بالزراعة و استنبات الكروم و البساتين ، حيث جمعت مياه الينابيع من سفح الجبل ، و أجري جدول يصب في خزانات ضخمة لري أراضيه ، ثم سربت للجبل و اشبيلية المياه العذبة في قنوات فخارية تحت الأرض))[2].

لقد كان المناخ المناسب بالأندلس ، عاملا حاسما في ازدهار الزراعة و وفرة الإنتاج ، مكن أهلها من تأمين حاجياتهم الزراعية ، و رفع مستوى معيشتهم .

---

(1)- داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 141- 142 .

(2)- المرجع نفسه: ص 142 .

((و قد عرف أهل الأندلس كيف يستفيدون من هذه الظروف الطبيعية المناسبة لجعل أراضيهم على درجة عالية من الخصب و العطاء ، و بخاصة في ظل حكم الموحدين الذي حقق للبلاد على جانبي المضيق استقرارا سياسيا ، و حرية اجتماعية))[1].

و تخصصت بعض جهات الأندلس ، بزراعة معينة تتناسب و طبيعة المناخ و نوعية التربة بها ، الأمر الذي ساعد على تحسين الإنتاج كما و كيفا .

لقد كانت بياسة تعرف بإنتاج الزعفران ، و تصدره إلى المدن المجاورة و إلى بلاد المغرب ، و جيان بإنتاج اللحوم و العسل و الحبوب ، واشتهرت اشبيلية بزراعة الزيتون و عصره و التين القوطي و الشعري ، وهما صنفان لا يوجدان إلا بها ، كما عرفت غرناطة بزراعة الكروم ، وكانت قرطبة واسعة السهول متنوعة المحاصيل [2].

و تحدث الكتاب من الذين اشتغلوا بدراسة الحياة في الأندلس ، عن طبيعتها و الظروف التي صنعت منها ، تلك الأرض التي تميز أهلها بالبدل و العطاء في مختلف مجالات الحياة ، و تمكنوا من النهوض و تحقيق كل الحاجيات الضرورية ومنها ، ما ذكره سلامة عبيدات حين قال: إن عدد الطواحين وصل إلى أرقام كبيرة ، تدل على مستوى المجد الذي بلغته هذه البلاد التي تحسنت فيها حال أهلها كثيرا ، و منها جاء إبداعهم في جل المجالات: ((فتواجدت في الأندلس الطواحين المائية و النواعير ، مقامة على حواف الأنهار ، على طول الوادي الكبير ؛ قرب قرطبة ، و بالمنطقة الواقعة في المياه الواطئة من اشبيلية ، و يذكر أن هناك أكثر من ثلاثمائة طاحونة تدار بالماء في داخل أسوار غرناطة و خارجها فقط))[3] .

و ظهرت في الأندلس خلال القرن (السابع الهجري) العديد من الدراسات الجادة عن الزراعة ، كان لها الأثر الكبير في تنمية هذا القطاع الحيوي الهام ، و الذي يعد

(1)- المرجع السابق : ص 143 .
(2)- للمزيد ينظر/ المرجع نفسه : ص 143- 144 .
(3)- المرجع نفسه : ص 145 .

الركيزة الأهم في التنمية الاقتصادية: ((فظهرت تقنيات الحراثة و البستنة و زراعة الأشجار الحرجية ، فضلا عن تقنيات علم الحيوان))[1].

و بفضل هذه الجهود المتواصلة من أهل الأندلس ، و بتشجيع و دعم من الخلفاء الموحدين ، و حكام بعض الأقاليم المستقلة، تطورت الزراعة و تنوعت محاصيلها ، و صدرت بكميات وفيرة إلى خارج البلاد خلال هذا القرن .

ومع ذلك فقد واجهت الزراعة الأندلسية الكثير من الصعوبات و العراقيل لا من قلة خصوبة أراضيها ، و لا من شح المياه فيها ، و إنما من جراء كثرة الحروب و الغزوات ، التي كانت تقع بين الحين و الآخر في بعض المدن و الأقاليم الأندلسية من طرف الممالك النصرانية ، و بعض الحكام المسلمين .

وتسببت الفيضانات التي تجتاح بعض المناطق ، في الكثير من الخسائر في قطاع الزراعة ؛ بسبب كثرة الأودية الدائمة الجريان ، و غزارة تساقط الأمطار، حيث يذكر محمد عبد الله عنان قائلا : ((وقع باشبيلية حادث مفزع هو وقوع السيل العظيم ، الذي لم يسمع بمثله من قبل ، فاجتاح أجزاء كبيرة من سور المدينة ... و غمرت المياه المدينة بأسرها ... و اجتاح هذا السيل وادي النهر الكبير كله من قرطبة إلى إشبيلية ، و حتى ثغر قادس ، و مات من جرائه الكثيرون غرقا))[2].

أما في المجال الصناعي الذي يمثل ركنا هاما من أركان النشاط الاقتصادي لدى جل الشعوب المتحضرة ، و مؤشرا واضحا على مدى التقدم التقني و العلمي ، و رافدا متميزا من روافد النهضة الاقتصادية للسكان ، فقد ظهر اهتمام الأندلسيين بالصناعة بوضوح ، بالإضافة إلى حرص الموحدين على تنمية هذا القطاع الحيوي الهام .

وقد عرفت بلاد الأندلس خلال القرن السابع الهجري الكثير من الصناعات ، حيث توفرت المواد الخام ، و الأيدي الفنية الماهرة .

---

(1)- المرجع السابق : ص 144 .
(2)- محمد عبد الله عنان : الأندلس في عصر المرابطين و الموحدين ، جـ 2 ، ص 256- 257 .

((و لم يتوان ملوك بني عبد المؤمن عن دعـم آلاف الـصناعات النـسيجية والمعدنية ، الورقية و الزيوت النباتية ، و الصابون و الدباغة التي أنتجت صنوف الحقائب و الأحذية ، ثم صناعة الصباغة و الزجاج و الحبر))[1].

كما تميزت كل مدينة بصناعة معينـة ، و برعـت فيهـا ، واسـتطاعت أن تصدرها إلى خارج الأندلس ؛ فمن تلك المدن التي ذاع صـيتها و اشـتهرت فـي ميادين متعددة ، من هذا النهوض الصناعي الكبير في ذلك الوقت:

بلنسية التي تخصصت في صناعة النسيج الفاخر، و الذي كان يصدر إلى بلاد المغرب و اشبيلية ، وتخصصت مرسية في صناعة السجاد و الأفرشـة و الأدوات المعدنية ، أما المرية فقد عرفت بصناعة الحرير بمختلف أنواعه و ألوانه ، وصناعة الفخار، كما ازدهرت صناعة الرخام الأبـيض و الملـون بقرطبـة و غرناطـة ، وانفردت هذه الأخيرة بصناعة الألبسة الملبدة [2].

و اهتم الخلفاء الموحدون بالصناعات الحربية ، و ذلك من أجل تـأمين الـبلاد و تحصينها ضد كل غزو محتمل ، و ضبط الأمن الداخلي ، و تحقيـق الاسـتقرار المنشود للبلاد ، و من أجل ذلك :

((أقيمت الصناعات الحربية...لإنتاج الأسلحة ، من أسهم و رمـاح سـيوف ، و ابتكرت المصانع الحربية المدافع القاذفة التي تقذف الكـرات الحديديـة الملتهبة))[3].

لقد اعتنى الموحدون بالصناعة العسكرية المختلفة التي لا يمكن الاستغناء عنها لا في الحرب ولا في السلم ، فلا تكاد الحرب تضع أوزارها هنا إلا و يرتفع لهيبها هناك.

كما نشطت حركة التبادل التجاري خلال هذا القرن في داخل الأندلس ، و كذلك مع الكثير من الدول خارجها .

---

(1)- داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 146 .
(2)- بتصرف/ المرجع نفسه : ص 147 .
(3)- المرجع نفسه : ص 148- 149 .

((و استمرت منتجات المدن الأندلسية تتدفق على المغرب ، و تـصدر إليها الأخشاب و الحبوب و الكتان ، مما حدا بالموحدين أن يزيدوا في عيار الدينار الموحدي (رفع قيمة العملة) ، و قد نشطت حركة المراكب التجارية بين العدوتين ، تحمل الغلال و الطعام من المغرب ، و تعود بأنواع الفواكه و القطن و زيت الزيتون من اشبيلية إلى ميناء سلا ، فضلا عن المنسوجات البلنسية و أدوات الزينة من المرية)) [1] .

إن هذا النشاط التجاري الكبير لم يكن مقتصرا على بلاد الموحدين في العدوتين فحسب بل تعداه إلى الممالك النصرانية المجاورة ، و إلى من له التأثير المباشر عليهم و الاستفادة الكاملة من و جوده و انتظامه و نهوضه.

فقد عمل بنو غانية حكام ميورقة على إبرام المعاهدات التجارية مع الدول النصرانية القريبة مثل: جنوة ، و بيزة ، حيث كثرت المبادلات التجارية بينهم ، وكانت ميورقة تستورد منهم السفن و الأسلحة ، و تصدر إليهم الحبوب و منتجات الجزيرة الأخرى[2] .

و قد كان لبعض المدن ، المكانة الرفيعة في ذلك الوقت ، حتى أن نشاطها تجاوز حدود الأندلس و بلاد المغرب ، إلى بقية البلدان الأخرى، التي كانت تستفيد من تلك النهضة التي تعددت مجالاتها و ابتكاراتها.

((كما كانت مدينة المرية ثغرا هاما تحط و تنطلق منها المراكب التجارية الدولية ، فلم يكن في بلاد الموحدين أكثر مالا من أهل المرية ، و لا أعظم تجارة ... حيث كان بها من الحمامات الوفيرة و الفنادق لاستقبال التجار من سائر الأقطار، نحو الألف فندق)) [3].

و رغم الصعوبات و المخاطر التي طالما هددت التجار الأندلسيين كالقرصنة البحرية ، و قلة الأمن في الطرق البرية ، و كذلك الضرائب التي كانت تفرض على

---

(1)- المرجع السابق : ص 151 .
(2)- بتصرف/ محمد عبد الله عنان : الأندلس في عصر الموحدين ، جـ 2، ص 258 .
(3)- داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 152 .

التجارة ؛ فإن ذلك لم يثن التجار من تسويق بضائعهم إلى مختلف الأسواق في الداخل و الخارج .

تلك هي أهم الملامح الجوهرية للحياة الاقتصادية بمختلف فروعها بالأندلس خلال القرن السابع الهجري ، و لاشك أن للنشاط الاقتصادي آثاره العميقة على صورة الحياة الاجتماعية ؛ فهي ثمرة له و نتيجة عنه ، و لها سمات تعرف بها في الحياة بالأندلس خلال هذا القرن ، و تكمن في عناصر تشكلها النشاطات التالية كما يذكرها أحمد أمين: ((على كل حال كانت العناصر التي سادت الأندلس أربعة :

(1) العرب ، و كانوا يحسون إحساسا قويا بأرستقراطيتهم لغلبتهم على الإسبانيين و البربر و إدخالهم في الإسلام، و بلغتهم التي تفوق غيرها.

(2) البربر ، و هم يشاركون العرب في البداوة و الإسلام و العصبية القبلية و الشجاعة، و لذلك وجد منهم العرب الأمرين عند فتحهم للمغرب.

(3) الإسبان، و هم مسيحيون كاثوليك، يرون أن البربر و العرب دخلاء عليهم و أنهم أحق بملك بلادهم.

(4) المسلمون المولدون من تزاوج العرب بالبربر ، أو العرب بالإسبانيات و الصقالبة))(1).

و قد انصهرت هذه العناصر السكانية انصهارا شديدا بفضل مبادئ الإسلام السمحة و قيمه الرفيعة ، و التي لا تقيم وزنا للعرق ولا للغة ولا للون ، فدخل السكان الأصليون في دين الله أفواجا ، و عاش سكان الأندلس في كنف الأمن و الاستقرار في بداية القرن السابع الهجري ، و كان نشاطهم هو الزراعة ؛ و ذلك لخصوبة أرضهم و وفرة المياه ، و ازدهرت الصناعة و التجارة ، وعرف السكان حياة البذخ و الرفاهية ، في الملبس و المأكل و المشرب.

---

(1)- أحمد أمين : ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ط 5 ، 1969م ، جـ 3 ، ص 1- 2 .

((و عرفت للأندلسيين صفات خاصة ، فمثلا اشتهروا بالنظافة ... و قد اعتادوا أن يسيروا في الشوارع و رؤوسهم عارية ، حتى لقد ترى القاضـــــــي ، أو المفتي و هو عاري الرأس ، و يندر أن يتعمم ، و اعتادوا أيضا أن يلبسوا البياض عند الحداد ، و قال القائل :

يَقولونَ البَياضُ لِبَاسُ حُزْنٍ بأنْدَلُسَ فَقلْتُ مِنَ الصَّوَابِ
أَلَمْ تَرَنِي لَبِسْتُ بَيَاضَ شَعْرِي لأنِي قدْ حَزِنْتُ عَلَى الشَّبَابِ[1].

و انتشرت في ربوع الأندلس البساتين و المتنزهات العامـــة منهـــا: المنيـــــة العامرية ، و منية السرور، ومنية الناعورة ، و جنة وادي العـــسل ، و الرصـــافة بمدينة بلنسية ، و التي تغنى بجمالها الشعراء ، و عرف الأندلـــسيون ألوانـــا مـــن الأطعمة ، و التي تعبر عن مستوى المعيشة التي كانوا عليها ، و قد ذكر طائفة منها صاحب كتاب الطبيخ [2].

و كان لهذه العادات الاجتماعية في القرن السابع الهجري آثارها الواضحة على الإمارات النصرانية المجاورة للمدن الإسلامية في الأندلس.

((و أخذت المرأة الإسبانية تتزين بالحياء ، و تسبل الستار على وجهـــــــها ، و مارست عادة الجلوس على الأرض ، و قد ظلت الحياة الاجتماعية فـــي اســـبانيا متأثرة تأثرا كبيرا بالحياة الإسلامية)) [3].

لقد كان تأثير الحضارة الإسلامية واضحا على شعوب شبه القارة الايبيرية بل تعداها إلى مختلف شعوب جنوب أوروبا ؛ وتلك سنة الله في خلقه*.

---

(1)- المرجع السابق : جـــ 3 ، ص 8 .
(2)- بتصرف/ داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 179 ، 183 .
(3)- المرجع نفسه : ص191 .
*- يذكر ابن خلدون أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره و زيه و نحلته و سائر أحوالـــــــه ، و السبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها و انقادت إليه ، و أن كل قطر يغلب على أهله زي الحامية و جند السلطان في الأكثر؛ لأنهم الغالبون لهم ، حتى أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى و لها الغلب فيسري إليهم من هذا التشبه و الاقتداء حظ كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة ، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم و شاراتهم و الكثير من عوائدهم و أحوالهم . للمزيد ينظر/ ابن خلدون : المقدمـــــــــة ، ص 114- 115 .

غير أن الحال الاجتماعية قد تدهورت كثيرا ، نتيجة عودة الحروب ، و تفكــك الدولة الموحدية و انهيارها ، و سقوط المدن الأندلسية في يد الممالك النــصرانية ، فبدأ أهل الأندلس في هجرة مدنهم قاصدين بلدان المغرب ، و المشرق هروبا من

بطش الصليبيين ، و بحثا على الأمن و الاستقرار ، و قد بدأ تفكيرهم في الهجــرة بعد هزيمة الموحدين في موقعة العقاب المذكورة آنفا ، حيث يقول إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي:

وَ قَائِلَةٍ: أرَاكَ تُطِيلُ فِكْرًا   كَأنكَ قدْ وَقفتَ لَدَى حِسَـــــابِ
فقلتُ لَهَا: أفكرُ فِي عِقابٍ   غَدَا سَبَبًا لِمَعْرَكَةِ العِقـَــــابِ
فمَا فِي أرْضِ أندَلُسَ مُقَامٌ   وَ قدْ دَخلَ البَلا مَن كُــلِ بــَابِ[1]

---

(1)- المقري : نفح الطيب ، جـــ 4 ، ص 464 .

2- في المغرب:

اهتم الخلفاء الموحدون و ولاتهم في أقاليم المغرب ، في بداية القرن السابع الهجري بالنشاط الاقتصادي بمختلف جوانبه ، من زراعة و صناعة و تجارة... وعملوا على رفع الإنتاج و تحسينه ، و ذلك لتأمين حاجيات السكان الضرورية ، و تحسين مستوى معيشتهم ، و تحقيق التقدم المنشود للبلاد.

ففي مجال الزراعة أشرف الخلفاء على استصلاح الأراضي و زراعتها ، و استنبات الكثير من الغلال و المحاصيل و إقامة البساتين ، ((وكان الخليفة الناصر يختلف دائما إلى بساتينه بمراكش ، و لشدة محافظته عليها من العبث ، و اهتمامه بها من التعدي ، عين عليها حراسا دائمين ليلا مع نهار وقد أولع ابنه المستنصر بتربية المواشي و تكثيرها ، إذ عمل على تحسين نسلها من الأنواع الجيدة ، و إهلاك الرديء منها ، فكان يؤتى إليه بأصناف البقر المحسن من الأندلس ، و يرسلها إلى الحظائر المعدة لذلك في بساتين مراكش))[1].

و استمرت عنايتهم و حرصهم على تنمية الزراعة وتطويرها في شتى المجالات، و كان لتلك العناية الدور البارز و الأثر المحمود لدى عامة الناس و خاصتهم حيث ؛ احتفى الجميع بخدمة الأرض و استصلاحها ؛ من أجل تأمين الغذاء و تصدير الفائض إلى مختلف الأقطار و الأمصار .

((وهكذا لاحظنا تنوع في الإنتاج و كثرته في المغرب ، فهو ينتج الغلال و الزيتون ، منها ما يستعمل للتغذية و الإنارة و العلاج ، بالإضافة إلى المزروعات الصناعية ؛ و أهمها قصب السكر في نواحي مراكش و سوس ، و القطن في جهات سجلماسة ، و تستنبت الحنا في أراضي درعة ، و غيرها من النباتات التي تستخرج منها الأصباغ))[2].

---

(1)- داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 142 .
(2)- المرجع نفسه : ص 143 .

و عمل الخلفاء الحفصيون على تشجيع الزراعة و تنميتها ، و الاهتمام بإقامة البساتين و غرس الأشجار المثمرة ، فقد أنشأ المستنصر الحفصي بساتين رأس الطابية و أبي فهر قرب أريانة ، و التي وصفها ابن الأبار في شعره* ، كما عمل على جلب المياه إلى تونس العاصمة ، و تجديد الحنايا الرومانية الجالبة للمياه من زغوان من أجل سقي الأشجار و الزروع عامة .

و يذكر شوقي ضيف أن الكثير من مدن شرق الجزائر و وسطها ، و التي كانت خاضعة للحكم الحفصي ، قد عرفت بخصوبتها و إنتاج الكثير من المحاصيل الزراعية مثل : القمح ، و الشعير، و الكتان ، و الفواكه ، و العسل ... كما عرفت بتربية المواشي ، و تزرع الأشجار المثمرة كالجوز، و التين ، والسفرجل ، و الكروم ، و إن سهل المتيجة الذي يبلغ طوله ـ حسبه ـ خمسة و أربعين ميلا و عرضه ستة و ثلاثين ميلا ، و ينتج القمح بكميات وفيرة(1).

و من هذه المحاصيل الوفيرة و المتنوعة تتضح مدى العناية و الاهتمام بقطاع الزراعة من طرف السكان ، و الدعم و التشجيع المقدم من الحكام الحفصيين .

أما في المجال الصناعي ، فلم يكن الاهتمام به أقل من الاهتمام بالزراعة ، فقد : ((نهض الموحدون بالصناعة التي توفرت لها المواد الخام المنتشرة في أنحاء المملكة الواسعة من مختلف المعادن ... و لم يتوان ملوك بني عبد المؤمن عن دعم آلاف الصناعات النسيجية و المعدنية و الورقية و الزيوت النباتية و الصابون و الدباغة التي أنتجت صنوف الحقائب و الأحذية ، ثم صناعة الصباغة و الزجاج و الحبر، هذا عدا عن ثلاثة آلاف طاحونة ، تطحن بالطاقة المائية بفاس وحدها))(2).

---

*- مثل قوله : **و لا تكلفوا بالند و المسك بعدها   تراب أبي فهر هو المسك و الند**
تذكر جنات الخلود حدائق   زواهر لا الزهراء و لا الخلد
للمزيد ينظر/ أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاعي : الديوان ، تحقيق/ عبد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر/ ديون المطبوعات الجامعية ، تونس/ الجزائر ، ط 2 ، 1986م ، ص 148 .
(1)- بتصرف/ شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات) ، ص 54- 57 .
(2)- داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 146 .

و ظهر اهتمام الموحدين بالصناعات الحربية بجلاء ، حيث: ((ازدهرت دورا لصناعة و إنتاج سفن الأساطيل الحربية ، و سفن النقل لحمل المحاربين و أسلحتهم و تموينهم في قصر معمورة قرب طنجة ، إذ كان مركزا لإنتاج المراكب و صنع الحراقات لنقل المسافرين))[1] .

كما حاول الحفصيون تنشيط الصناعة في الجهة الشرقية لبلاد المغرب على غرار الموحدين، فقد أشرف السلطان أبو زكريا على توجيه الحياة الصناعية و التجارية ، ((و بدأ بتخصيص أسواق للمهن و الحرف و الصناعات حول جامع الزيتونة و في أطراف المدينة ... مثل: أسواق الصباغين ، و العطارين ، و الشماعين، و الجلادين ، و أسواق الذهب و الفضة و الزجاج و النقش على النحاس و بعض المعادن)) [2].

و يذكر شوقي ضيف عند حديثه عن مثل هذه الحرف ، التي تعطي انطباعا على توقد الحس و جودة القريحة و النهوض الحضاري المتميز ، أن بعض مدن الجزائر قد انتشرت فيها صناعات مختلفة : كالحدادة ، و النجارة ، و الحياكة ، و استخراج المعادن ، كالحديد الذي عرفت بصناعته مدينة عنابة ، و الرصاص و الزنك بسطيف ، و كان ببجاية دار صناعة كبرى لإنشاء الأساطيل و السفن [3].

و كان لهذه الصناعات دورا هاما في تأمين البلاد ، و تنشيط التبادل التجاري بقسميه الداخلي و الخارجي ، و إيجاد حركية اقتصادية فاعلة .

و عمل البلاط الموحدي على تنشيط الحركة التجارية الداخلية و الخارجية : ((وتشجيعا منه أعفى التجارة من الضرائب المقررة و أخضعها للدولة ، بأن راقب موازينها و جودتها ، و عين رجال الحسبة الذين كانوا يسهرون ليلا مع نهار يجوبون الأسواق ، و يضبطون الأسعار))[4].

---

(1)- المرجع السابق : ص 148 .
(2)- أحمد الطويلي : في الحضارة العربية التونسية ، دار المعارف ، تونس ، ط 1 ، 1988م ، ص 16 .
(3)- بتصرف/ شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات) ، ص 57 .
(4)- داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 150 .

و بالرغم من الصعوبات الجمة التي تعرض لها التجار المغاربة ، حين يتجهون إلى المناطق الجنوبية الصحراوية ؛ لقلة الأمن في هذه الطرق و كثرة مخاطرها، الأمر الذي أضعف الحركة التجارية و حد من نشاطها :((لكن بلاد الموحدين رغم ذلك ظلت تحتفظ بالرخاء في ميادين الزراعة و الصناعة و التجارة عبر سجلماسة ، مرورا بطريق الذهب إلى بلاد السنغال الذي استمر عامرا ، في حين تعطلت باقي الطرق الصحراوية الأخرى)) [1].

أما عن حركة التجارة في إمارة الحفصيين ، فقد شهدت تطورا ملحوظا بسبب الاستقرار الذي عرفته خلال هذا القرن ، حيث يذكر أحمد الطويلي نقلا عن ربير برينشفيك ، أن المملكة الحفصية قد ارتبطت بمعاهدات اقتصادية مع بعض الدول الأوروبية ، كالنرويج ، و أرغون ، و بيزا ، و صقلية ، و خاصة في عهد المستنصر الذي أرسل وفودا الى باريس سنة (1269م) لمعالجة بعض المسائل المالية[2] .

و عن الحركة التجارية بالجناح الغربي لمملكة الحفصيين ــ شرق و وسط الجزائرــ و ما يلي ذلك من مملكة الزيانيين ، فلم تختلف عما كانت عليه الحال ببقية جهات المغرب باستثناء تلك الخصوصيات الطبيعية و البشرية التي يمنحها الإقليم .

((و اشتهرت مدينة بجاية بتجارة الرقيق بنوعيه الأبيض و الأسود مما أغرى إسحاق بن غانية أن يشحن أجفانه (سفنه) في رحلاته ... لاستخدامهم في الجندية و خدما في القصور و عمالا لفلاحة الأرض)) [3].

كما تبوأت تلمسان في عهد الزيانيين مكانة هامة في التجارة بالمنطقة ؛ لما تتمتع به من خصائص جغرافية و اقتصادية: ((فقد سهل لها موقعها القريب من

---

(1)- لويس ارشيبالد : القوى البحرية و التجارية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، تقديم محمد شفيق غربال ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، 1370هـ/1950م ، ص 150 – 151 .
(2)- للمزيد ينظر/ أحمد الطويلي : في الحضارة العربية التونسية ، ص 15 و ما بعدها .
(3)- داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 153 .

الموانئ الساحلية الشمالية و وجودها في مكان تلتقي فيه الطرق التجارية الكبيــرة ، أن تكون سوقا عالمية لمختلف السلع و البضائع المتباينة ، القادمة من وراء البحــر الأبيض المتوسط ، و من بلاد المغرب و المشرق و جنوب الصحراء))[1].

لقد حاول الخلفاء الموحدون و حكام الممالك المغربية المستقلة عنهم ، النهوض بالحياة الاقتصادية في بلاد المغرب خلال القرن السابع الهجري ، و دفــع وتيــرة الإنتاج إلى الأمام ، لتلبية ضروريات الحياة ، و تحسين معيشة السكان ، و ذلك بحثا عن الاستقرار و التضامن الاجتماعي ، حيث يعدان الركيزتان الحاسمتان فــي كــل تنمية منشودة ، و قد كان لهذه الحركية الاقتصادية آثارها الواضحة علــى الحيــاة الاجتماعية في كامل بلاد المغرب الإسلامي ، الذي أصبح قلعة من قلاع النهــوض و التحضر ، على غرار ما كانت عليه الحال في بلاد الأندلس .

أما عن الناحية الاجتماعية خلال القرن السابع الهجري ، فقد عرفت جملة مــن المميزات و السمات ، نتيجة المعطيات الاقتصادية و التحولات السياسية الحاصــلة في بلاد المغرب ، ففيما يخص التجانس السكاني ، يذكر شوقي ضيف أن سكان بلاد المغرب يتشكلون من ثلاثة عناصر كبرى هي: البربر و هم الــسكان الأصــليون ، و ينقسمون إلى فرعين كبيرين هم: البربر البتر، و البربر البرانس ، و يرجع نسبهم عند بعض المؤرخين إلى العرب و عند البعض الآخر إلى الساميين و الحــاميين ، أما العنصر الثاني لسكان المغرب ، فهم العرب الذين هاجروا أثناء الفتح الإســلامي و بعده ، و أما العنصر الثالث فهم الأندلسيون الذين أخذوا في الهجــرة الــى بــلاد المغرب في نهاية القرن الثاني الهجري ، و ازدادت هجرتهم خلال القــرن الــسابع الهجري بعد سقوط مدنهم في يدي النصارى[2] .

---

(1)- عبد العزيز فيلالي : تلمسان في العهد الزياني ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2002 م ، جــ 1 ، ص 134 .

(2)- بتصرف/ شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات) ، ص 298- 303 .

و قد ألف الإسلام بين هذه العناصر السكانية ، و ربط بيـــنهم بربـــاط الأخـــوة الإسلامية المتين ، و صهرهم في بوثقته صهرا كاملا .

و ارتكزت الحياة الاجتماعية في بداية الدولة الموحدية علـــى إتبـــاع المبـــادئ التومرتية*، و القائمة على الزهد و التقشف و التواضع في اللباس و المعيشة ، غير أن الخلفاء المتأخرين ــ القرن السابع الهجري ــ تخلوا عن تلك التعاليـــــم ، ثم : ((أخذ الموحدون يقلدون الأندلسيين شيئا فشيئا ، في ارتداء مختلف أنوع الـــديباج من الملابس الحريرية و الصوفية و الكتانية و القطنية))(1) .

كما انتشرت مظاهر الاحتفالات البهيجة و أخذت طابعا رسميا : ((كان الجيش يسير للغزو بموكب احتفالي مهيب و بروز عظيم... و قد استمر العمل بهذا النظـــام الرتيب طوال حكم الموحدين)).(2)

أما عن الحياة الاجتماعية في إمارة الحفصيين فقد عرفت تطورا متزايدا، حيث عمل حكامها على دفع عجلة التقدم و الازدهار في جميع المجالات، بتأمين البـــــلاد و تحقيق الاستقرار و تنشيط الحياة بأوجهها المختلفة ، فأقاموا البساتين و المنتزهات منها : رياض رأس الطابية، و بساتين أبي فهر ، كما سبق الذكر .

و يتحدث ابن قنفد القسنطيني (ت 809هـــ/1407م) مظاهر الحياة الاجتماعية في عهد أبي زكريا الحفصي قائلا: ((و كانت أيامه خير أيام و أكثرها ســــعادة ، و أدرها أرزاقا ، و أكثرها أفراحا ، و نام الناس معه على مهاد العافية ، و اكتسبوا الأموال ، و أكثروا الغراسات))(3) .

و واصل الخلفاء الحفصيون العمل على ترقية الحياة الاجتماعيـــة و تحـــسين معيشة السكان ، فقد ذكر أحمد الطويلي نقلا عن المؤنس لابن دينار ، أن في عهد

---

*- نسبة إلى محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية ، و الذي عرف بالتقشف و الزهد و الورع ، و الابتعاد عن بهارج الحياة الدنيا و مباهجها ، و قد كان حصورا فلم يتزوج ، كما لم يتخذ جارية (ملك اليمين) .

(1)- داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 182 .

(2)- المرجع نفسه : ص 171 .

(3)- ابن قنفد القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص 112 .

أبي يحيى أبي بكر(692هـ/749م) : ((كان بتونس أزيد من(700) حانوت للعطارة ، و كان يصنع بتونس كل يوم (4000) قفيز*من القمح ألف تُبَلٌّ ، و ألف تطحن ، و ألف تغربل ، و ألف تعجن ، و زهت البلاد في أيامه))(1) .

كما كان لهجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب و خاصة إلى إمارة بني حفص آثارها الواضحة على الحياة الاجتماعية ، و ذلك يرجع إلى ما حملوه معهم من خبرات و مهارات ، و تقاليد في فن العمارة و الزراعة و الصناعة ، و بعض العادات و التقاليد في المأكل و الملبس ما تزال آثارها ماثلة إلى اليوم(2) .

أما عن مناطق شرق الجزائر فيذكر محمد الطمار قائلا: ((و وقع في هذه الآونة تغيرات اجتماعية أخرى ، تحركات الأعراب كان لها أثرها من الناحية الاقتصادية ؛ فنزح العمران إلى السواحل البحرية بعيدا عن أولئك العناصر))(3) .

و ازدهرت الحياة الاجتماعية ــ كذلك ــ في إمارة الزيانيين ، حيث انتشرت المراكز التجارية و المرافق العامة ذات الطابع الاجتماعي ، مما أدى إلى انتشار الرخاء و ازدهار المجتمع ، بالرغم من الحروب و الصراعات مع الدول المجاورة .

لقد نشطت الحياة الاقتصادية في الأندلس خلال القرن السابع الهجري بجوانبها الثلاثة : (الزراعة ، و الصناعة ، و التجارة) ، و ساعد على هذا النشاط عوامل مختلفة منها : العامل الجغرافي ، و العامل المناخي ، و كذا العامل البشري ، و على غرار ذلك عرفت الحياة الاجتماعية تطورا متزايدا ، و برزت مظاهر الثراء

---

*- القفيز : هو مكيال كان يكال به قديما، و يختلف مقداره في البلاد، و يعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلو جراما. و من الأرض قدر مائة و أربع و أربعين ذراعا. للمزيد ينظر/ مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، (مادة قفز) ، جـ 2 ، ص 851 .

(1)- أحمد الطويلي : في الحضارة العربية التونسية ، ص 18- 19 .

(2)- بتصرف/ محمد الطالبي : الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين ، مجلة الأصالة ، تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية الجزائر ، مطبعة البعث ، قسنطينة ــ الجزائر ، العدد 26 ، 1395هـ/ 1975م ، ص 46 .

(3)- محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري ، منشورات الجزائر عاصمة الثقافة العربية ، المطبعة الشعبية للجيش الجزائر ، ط 1، 2007م ، ص 90 .

و الرفاهية بجلاء في بداية القرن السابع الهجري ، غيـر أن الأوضـاع السياسية المتفجرة بين المسلمين أنفسهم ، و بين النـصارى المتربـصين ؛ جعـل النـشاط الاقتصادي يخبو و يتضرر ، مما انعكس سلبا على الجانب الاجتماعي برمتـه ، و بدأت هجرة الأندلسيين نحو بلاد المغرب تتزايد .

أما في بلاد المغرب فقد عمل الموحدون و حكام الإمارات المـستقلة عـنهم ، على توفير الشروط الضرورية لدفع العجلة الاقتصادية قدما إلى الأمـام ، و مـن أهمها : استتباب الأمن و تحقيق الاستقرار ، فنشطت الحركة الاقتصادية بمختلـف جوانبها ، و ساهم ذلك في تحسين معيشة السكان و ازدهار الحياة الاجتماعيـة ، و استمر هذا الوضع إلى نهاية القرن السابع الهجري ، و استقطبت بـلاد المغـرب الكثير من الكفاءات الثقافية الأندلسية ، و في خضم هذه الهجرات الفرديـة و الجماعية نحو بلدان المغرب الإسلامي ، تشكل المشهد الثقافي ، و عرف زخمـا علميا و أدبيا متزايدا ، في كل من الأندلس المغرب .

جـ – الصورة الثقافية:

1- في الأندلس:

عرف المشهد الثقافي بالأندلس خلال القرن السابع الهجري ازدهارا كبيرا ، في معظم مجالات العلم و المعرفة ــ على غرار ما عرفه من قبل ــ و يرجع ذلك إلى حرص البلاط الموحدي على تنشيط الجانب الثقافي بربوع إمارتهم الممتدة ، و رعاية الأدباء و المثقفين و تقريبهم و إغداق الأموال و الهدايا عليهم ، فراجت سوق الأدب و الشعر، و ازدهرت الحكمة و الفلسفة ، و تطورت مختلف العلوم و الفنون .

و قد اشتهرت الكثير من المراكز الثقافية بالأندلس ، و شكلت منارات إشعاع معرفي ، و وجهة مفضلة لدى الأدباء و العلماء يشدون رحالهم إليها من مختلف الجهات ، و من المراكز التي لا يجوز إغفالها ذكرها في تلك الفترة : ((قرطبة و شريش و مالقة و غرناطة و بلنسية و مرسية واشبيلية...))(1).

و أضحت قرطبة ــ أم الحواضر الأندلسية ــ منارة إشعاع حضاري على مر العصور، و شكلت واسطة عقد الثقافة الأندلسية إلى أن سقطت في قبضة النصارى .

و حضيت قرطبة باهتمام العديد من الشعراء و الأدباء ، الذين تفننوا في وصف محاسنها ، و التغني بأمجادها و منجزاتها الحضارية ، كما نبغ بها و أمَّها العلماء و الأدباء من كل فج عميق ، منهم : ((الأول: ابن هشام القرطبي*، و الثاني :

---

(1)- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، تحقيق محمد لحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ،(مقدمة المحقق) ، 1966 م ، ص 47 .

*- ابن هشام القرطبي : هو الشاعر الأندلسي أبو القاسم عامر بن هشام القرطبي ، ولد بقرطبة و بها نشأ و تعلم ، و كان شاعرا متهتكا ثم صلحت حاله ، رحل إلى مراكش - حاضرة الخلافة الموحدية - و أقام بها ، له شعر في وصف الأندلس و الحنين إلى مسقط رأسه ، توفي سنة 623 هـ . للمزيد ينظر/ أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي : زاد المسافر و غرة محيا الأدب السافر ، أعده و علق عليه : عبد القادر محداد ، دار الرائد العربي ، بيروت 1980م ، ص 104 .

أبو زيد الفازازي*))(1) .

و كانت إشبيلية من المراكز الكبرى في الثقافة الأندلسية في عصر الموحدين ، حيث اتخذوها مركزا لولاياتهم بالأندلس ، و بقيت مترددة بين الخضوع للموحدين ، أو الولاء لبعض القادة المحليين خلال القرن السابع الهجري ، إلى أن وقعت في قبضة النصارى .

((أنجبت إشبيلية كبار العلماء و الأدباء ، و أشاد بها شعراؤها ، و رثوها عند سقوطها بأروع القصائد ، و حن إليها العديد من شعراء الأندلس ، سواء من شعرائها أو الشعراء الذين أخذوا عن علمائها ، و أقاموا في أحضانها فترة من الزمن))(2).

و ازدهرت الحياة الثقافية بغرناطة ؛ و هي إحدى مدن جنوب الأندلس ، حكمها خلال هذا القرن الموحدون ، ثم خضعت لبني الأحمر، و أنجبت هذه المدينة شعراء و علماء كثيرين، برعوا في مختلف العلوم و الفنون ، منهم : ابن سعيد المغربي** ، و أبو الحسن الششتري*** ، و غيرهما كثير(3) .

---

*- أبو زيد الفازازي : هو الفقيه الشاعر الكاتب البلاغي اللغوي الفيلسوف عبد الرحمان بن يخلفتن بن أحمد أبو زيد الفازازي ، ولد بقرطبة و نشأ فيها ، ثم انتقل إلى تلمسان حيث تلقى علومه على أيدي شيوخها ، و منهم : أبو عبد الله التجيبي، و أبو الوليد اليزيد بن عبد الرحمان بن بقي القاضي ، و كان كاتبا لدى أمراء الأندلس و مراكش ، و مال للتصوف، له شعر غزير في عدة أغراض، توفي بمراكش سنة 637 هـ . للمزيد ينظر/ المقري : نفح الطيب ، جـ 4 ، ص 468 -469 .

(1)- محمد أحمد دقالي: الحنين في الشعر الأندلسي(القرن السابع الهجري) ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، مصر، ط 1 ، 2008 م ، ص 149.

(2)- المرجع نفسه : ص 165.

**- ابن سعيد المغربي : هو علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد العنسي الغرناطي ، الأديب الرحالة و المؤرخ ، وصفه المقري بواسطة عقد بني سعيد ولد سنة 610 هـ، غادر الأندلس و استقر بتونس، ثم رحل إلى المشرق و أقام بمصر بعض الوقت ثم حج و رجع إلى تونس سنة 652 هـ ، وخدم في البلاط الحفصي خلال حكم المستنصر، و كانت وفاته بها سنة 685 هـ، ترك الكثير من المؤلفات منها: المغرب في حلى المغرب، و المشرق في حلى المشرق، و المرقصات و المطربات. للمزيد ينظر/ المقري: نفح الطيب، جـ 2 ، ص 262- 292 .

***- أبو الحسن الششتري : هو ابن عبد الله النميري الفقيه الصوفي من أهل العلم و العمل ، جال الآفاق و حج عدة مرات كما أقام بدمشق ، ألف العديد من الكتب منها : المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية ، و العروة الوثقى ، و الرسالة القدسية ، كما له ديوان شعر ، توفي بمصر سنة 668 هـ. للمزيد ينظر/ المصدر نفسه ، جـ 2 ، ص 185- 187 .

(3)- بتصرف محمد أحمد دقالي : الحنين في الشعر الأندلسي ، ص 200 .

و تألقت مدينة مرسية بين المدن الأندلسية و ازدهرت بها الحياة الثقافيـــــــة ، و سطع في سمائها الكثير من العلماء و الأدباء ، و الفقهاء و اللغويين و من أمثـــال هؤلاء : ((الشاعر الذائع الصيت ، أبو بكر محمــد بــن أحمــد ابــن الــصابوني الإشبيلي*))[1] .

كما ازدهرت الحياة الثقافية بمدينة بلنسية، و تألقت بين حواضر الأندلس ، و قد تحدث عنها المقري التلمساني (1041هــ/1632م) طويلا و أفاض في وصـــفها إذ قال : ((تعرف بمطيب الأندلس ، و رصافتها من أحسن متفرجات الأرض ، و فيها البحيرة المشهورة الكثيرة الضوء و الرونق ، و يقال إنه لمواجهــة الــشمس لتلــك البحيرة يكثر ضوء بلنسية ... و لم تخل من علماء و لا شعراء... وأهلهــا أصــلح الناس مذهبا ، و أمتنهم دينا ، و أحسنهم صحبة ، و أرفقهم بالغريب))[2].

لقد ألهمت الطبيعة الساحرة لبلنسية الكثير مــن الأدبــاء ، و حركــت خيــالهم الخصب ، فجادت قرائحهم بروائع البيان و نفثات اللسان ، كأنــه الــسحر و لكنــه السحر الحلال ، من الشعر و النثر ، تردد صداه في المغرب و المــشرق ، يــشهد على عبقرية الأندلسيين و جودة قريحتهم عبر العصور .

و نبغ في هذه المدينة العديد من العلماء ، و حظيت بالكثير من الشعــــــــراء و الكتاب و المؤرخين : ((فمن شعرائها في القرن السابع الهجــري: ابــن الأبــار المتوفى سنة(658هــ) ، و أبو الربيع سليمان الكلاعي المتوفى سنة (634هــ) ، و الشاعر الرحالة ابن جبير الكناني** المتوفى سنة (614هــ) ، و من شعراء

---

*- ابن الصابوني : هو أبو بكر محمد بن أحمد بن الصابوني الإشبيلي ، نال شهرة واسعة في عصره ، استقدمه والي مرسية في إمارة ابن هود ، ثم ألتحق بالمأمون الموحدي ، ثم قصد أبا زكريا الحفصي و مدحه ، ثم رحل إلى مصر ، اشتهر بالتعفف و البلاغة و الأدب و كان شاعرا مطبوعا ، و توفي بالإسكندرية قبل سنـــــــة 638 هــ . للمزيد ينظر/ محمد العريس : موسوعة شعراء العصر الأندلسي ، دار اليوسف ، بيروت ، ط 1 ، 2005م .

(1)- داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 280 .

(2)- المقري : نفح الطيب ، جــ 4 ، ص 54 .

**- ابن جبير الكناني: هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني ، ولد سنة 540 هــ ببلنسية اشتهر بالأدب و قرض الشعر و الكتابة ، و هو صاحب الرحلة المشهورة ، زار المغرب و المشرق ، توفي بالإسكندرية سنة 614 هــ. للمزيد ينظر/ المقري نفح الطيب ، جــ 2 ، ص 381- 494 .

جزيرة (شقر) ، من أعمال بلنسية... أبو المطرف بن عميرة المخزومي*المتــوفى سنة (656هــ))[1].

لقد كانت الأندلس أرضا خصبة، و مناخا مناسبا ازدهرت فيها الثقافـــــــــة ، و تنوعت بها مختلف العلوم و المعارف: كالفقه ، و الحديث ، و الأدب ، و التاريخ، و التصوف ، و الفلسفة ، و العلوم المادية بمختلف شعبها ، برعاية و تــشجيع مــن خلفاء و ولاة الدولة الموحدية ، حيث كان بعضهم من من كبار العلماء و الشعراء .

و عاشت الأندلس زخما معرفيا و ثقافيا كبيرا ، إلى أن عضها الدهر بأنيابــه ، و سحقها بكلكله ، نتيجة الصراعات الدامية و الحروب الطاحنــة بــين المــسلمين المتفرقين فيما بينهم ، و الممالك النصرانية المتحالفة ، حيث استولت على جل المدن الأندلسية في وقت قياسي: ((و قد أصابت حرب الاسترداد القومية فــي الــصميم الحياة الفكرية و الثقافية بالأندلس ، و كان لسقوط قرطبة بالخصوص من النتائج ما حمل كثيرا من أسر العلم و الأدب على الهجرة))[2] .

لقد حدث ما يشبه النزيف الذي أصاب الحياة الأدبية و العلمية بالأندلس ، حيث نزح خيرة أبنائها و حاملو راية حضارتها نحو بلدان المغرب و المشرق الإسلاميين، و بأعداد غفيرة بحثا عن الأمان و الاستقرار المفقود في ربوع الأندلس الــسليبــة ، و التي لطالما عرف أهلها رغد العيش و صفو الحياة ، و تسلقوا مدارج الحضارة ، و لكن سنة الله حاكمة في خلقه .

و من بين كبار العلماء و الأدباء النازحين عن الأندلس في تلك الفترة الحالكــة من تاريخها المليء بالأمجاد و البطولات: الفقيه المتصوف ابن عربي الحاتمــي**،

---

*- أبو المطرف بن عميرة المخزومي : هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي ، ولد بجزيرة شقر من أعمال بلنسية سنة 582 هــ، له علم بالفقه و الأدب و الشعر ، و ولي القضاء ببعض مدن الأندلس و المغرب،استوطن بجاية مدة طويلة، و عمل كاتبا في البلاط الحفصي في خلافة المستنصر، توفي بتونس سنة 658هــ. للمزيد ينظر/ الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر، 1970م ، ص 250- 253

(1)- محمد أحمد دقالي : الحنين في الشعر الأندلسي ، ص 46 .

(2)- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، ص 46 .

**- ابن عربي: محي الدين بن عربي محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الصوفي الفقيــه=

و ابن مالك*، و ابن البيطار**، و ابن الرومية***،و غيرهم كثير: ((ومثل هــؤلاء ممن اضطر إلى مهاجرة مسقط رأسه الأندلس بدون رجعة إليه كثير ، و قد رأيناهم إثر مفارقتهم له مقيمين إما بالمغرب بمراكش أو بإفريقية ، و إما بالمشرق بـــسوريا أو بمصر أو بالحجاز . و هذا بدون شك عامل من عوامل انقراض الحياة الفكريـــة الإسلامية هناك))(1).

كما كان ابن الأبار من بين العلماء و الأدباء النازحين عن بلدهم الأندلس ، و قد اختار تونس ــ حاضرة الدولة الحفصية ــ مقرا لإقامته ، كما أقام ببجاية أيضا .

و بالرغم من فداحة الخسارة التي أصابت الحياة الثقافية و الفكرية جراء هجرة الأدمغة و الكفاءات الأندلسية موطنها ، فقد ساهمت هذه الهجرة في إنعـــاش الحيـــاة الثقافية ببلدان المغرب ؛ فازدهرت و ظهرت ثمارها بكل و وضوح في الكثير مـــن شعب الحياة ، و كانت هذه الهجرة بمثابة الغيث الذي أينما وقع نفع .

= الظاهري ، ولد بمرسية سنة 560 هـــ، تعلم باشبيلية ثم ارتحل إلى المشرق و أقام بالحجاز و هو من كبار الصوفية الناشرين لفكرة وحدة الوجود، من بين مؤلفاته: الفتوحات المكية، و ترجمان الأشواق الذي ألفه بمكة المكرمة أثناء إقامته في ضيافة أحد فقهائها . توفي بدمشق سنة 638 هـــ. للمزيد ينظر/ المقري نفح الطيب ، جـــ 2 ، ص 161- 169 .

*- ابن مالك: هو جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني ، اشتهر بالنحو و علوم العربية ولد بجيان سنة 600 هـــ، و نشأ و تعلم بها علي يدي ثلة من الشيوخ منهم ابن الطيلسان و أبي رزين بن ثابت و غيرهم ، رحل إلى دمشق و أقام بها و سمع من علمائها، ثم تصدر للدرس و التف حوله طلبة اللغـــــة و النحو و علوم العربية، من مؤلفاته المشهورة : الألفية النحوية التي استقاها من ألفية ابن معطي الزواوي الجزائري، و له أيضا كتاب التسهيل ، توفي بدمشق سنة 672 هـــ. للمزيد ينظر/ المصدر نفســه ، جـــ 2 ، ص 222- 233 .

**- ابن البيطار: هو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن البيطار المالقي، اشتهر بالطب وله معرفة و دراية بالنبات ، سافر إلى بلاد الروم و الإغريق ، كما زار بلاد المغرب ، ثم رحل إلى مصر و أقام بها في بلاط الكامل بن العادل حاكم مصر و كان رئيسا لسائر العشابين ، من مؤلفاته: الجامع في الأدوية المفـــــردة ، و الإبانة و الإعلام بما في المنهاج من الخلل و الأوهام ، و الأفعال العجيبة و الخواص الغريبة ، و شرح كتاب ديسقوريدوس، توفي بدمشق سنة 646 هـــ. للمزيد ينظر/ المصدر نفسه ، جـــ 2 ، ص 691- 692 .

***- ابن الرومية: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبي خليل الإشبيلي ولد بإشبيلـــــية سنــــــة 561 هـــ و نشأ و تعلم بها مختلف العلوم من الفقه و الحديث و نبغ في الطب و معرفة النبات ، رحل إلى دمشق و سمع من علمائها علوم الحديث ، و من مؤلفاته الحافل في تكملة الكامل ، و المعلم بما زاده البخاري على كتـــاب مسلم ، كما ألف كتابا في النبات رتبه على حروف المعجم ، توفي بإشبيلية سنة 637 هـــ. للمزيد ينظر/ المصدر نفسه ، جـــ 2 ، ص 596-598 .

(1)- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، (مقدمة التحقيق) ، ص 46- 47 .

2- في المغرب:

رعى خلفاء الموحدين و حكام الإمارات المغربية المستقلة عنهم ، الحياة الثقافية بمختلف جوانبها : العلمية ، و الأدبية ، و الفكرية ، و رصدوا للأدبـــاء و العلمـــاء الجوائز و المكافآت ، و عملوا على تقريبهم من بلاطهم ، و لاغرو في ذلك فقد كان الحكام أنفسهم شعراء و مثقفين، و انتشرت دور العلم و مراكز الثقافـــة ، و أقبـــل الناس يغترفون من معينها الذي لا ينضب ، و كان لهجرة الأندلسيين إلى المغـــرب آثارا طيبة على الحياة الثقافية ؛ فتنوعت مصادرها و ازدهرت بمختلف شعبـــــــها و مجالاتها.

و من المراكز الثقافية الهامة التي اشتهرت بالمغرب خـــلال القـــرن الـــسابع الهجري : ((مدينة فاس ، حيث اجتمع فيها علم القيروان ، حاضرة إفريقية ، عندما عاثت فيها غزوات الأعراب ... وعلم قرطبة عاصمة الأندلس ، حينما اضـــطرب الأمن بعد بني أمية ، رحل من كان فيها من العلماء و الفضلاء فرارا من الفتنة إلى فاس))[(1)].

كما انتشرت مختلف العلوم و المعارف كالنحو ، و اللغة ، و العـــــــــروض ، و البلاغة ، و التاريخ ، و الفقه و التصوف ، وتدرجت هذه المعارف فـــي مـــدارج التطور و التقدم ، و نبغ فيها الكثير من أبناء المغرب مثل : ابن معطي الـــزواوي[*]، و ظهرت المدارس النحوية كمدرسة فاس ، و مدرسة تلمسان، و مدرسة سبتة[(2)].

---

(1)- داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 274 .

*- ابن معطي : هو أبو الحسين زين الدين أبو زكريا يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي، من قبيلة آفراوسن بزواوة ، ولد بالجزائر سنة 564 هـــ ، أخذ العلم عن مشايخ بلده ثم انتقل إلى الشام فسمع من علمائها، و اشتهر بالنحو و علوم اللغة، و نظم الألفية في النحو المشهورة(بالدرة الألفية في علم العربية) و التي أخذ عنها ابن مالك و أشاد بها ، وله مؤلفات عديدة مثل كتاب العقود و القوانين في النحو، كما عرف بنظم الكتب و المعجمات، توفي بالقاهرة سنة 628 هــ. للمزيد ينظر/ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة و النشر، بيروت ، ط 2 ، 1980 م ، ص : 167- 168 . موسوعة العلماء و الأدباء الجزائريين ، دار الحضارة ، الجزائر، 2003 م ، ص 17 . و ابن خلكان : وفيات الأعيـــان و أنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، جــ 6 ، ص 197 .

(2)- بتصرف/ عبد الله كنون : النبوغ المغربي في الأدب العربي ، دار الكتاب اللبنانـــي ، بيروت ، ط 2 ، ص 126 .

و قد عرف المشهد الثقافي زخما علميا و أدبيا متزايدا في القرن السابع الهجري ، و بالرغم من الاضطرابات السياسية الدامية خلال فترة حكم المأمون ؛ فإن ذلك لم يمنع النشاط العلمي من مواصلة سيره الحثيث قدما إلى الأمام ، و تطوره نحو آفاق أرحب ، فقد حرص الخلفاء الموحدون من بعده على العناية بالجانب الثقافي و الفكري للدولة .

لقد كان الرشيد الموحدي شديد العناية بالنواحي الأدبية و العلمية حيث أولاها فائق عنايته ، و كان يتردد باستمرار على مدينة فاس ــ عاصمة الثقافة و الفكر ــ و ينفق بسخاء على العلماء و الأدباء و المثقفين ، و يشرف بنفسه على سير مختلف مرافق العلم و دور الثقافة ، على الرغم من الوضع السياسي المتفجر هناك [1] .

و عرف المشهد الثقافي في دولة بني حفص خلال القرن السابع الهجري ، ازدهارا كبيرا ، بفضل عناية الخلفاء الحفصيين و رعايتهم للأدباء و العلماء ، و تقريبهم و إغداق الأموال و الهدايا عليهم ، و إقامة المنشآت الثقافية في مختلف أنحاء المملكة ، كما ساهمت هجرة العلماء و الأدباء الأندلسيين في إنعاش الجانب الثقافي بالإمارة الحفصية ، فاستقر بها عدد كبير منهم ، و احتلوا مكان الصدارة في البلاط الحفصي ، و زاحموا أبناء البلد الأصليين في مختلف مجالات الحياة .

((و اشتهر الخلفاء الحفصيون عموما برعاية الأدباء ... و تأسيس المؤسسات العلمية و الدينية من جوامع و مدارس و مكتبات و زوايا ، نذكر منها خاصة مكتبة أبي زكرياء الأول ، و كانت كتبها لا تقل عن 36000 كتاب))[2].

و كان السلطان أبو زكريا أديبا شاعرا محبا للأدب ، ((و كان معدودا من العلماء و في الشعراء النبلاء ، و له شعر مدون))[3] .

(1)- بتصرف حازم القرطاجني : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، ص 57 .
(2)- أحمد الطويلي : في الحضارة العربية التونسية ، ص 10 .
(3)- ابن قنفد : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص 112 .

و سار المستنصر على نهج أبيه في الاعتناء بالثقافة و تقريب العلماء و الأدباء من بلاطه ، فازدهرت مختلف العلوم و الفنون ، و أصبحت تونس قبلة للمثقفين .

((و قد تألقت مجالسه الأدبية و الفنية بألمع شعراء عصره من الأندلس و المغرب و إفريقية ، و سيروا شعرهم فيه مشرقا و مغربا ، و ضمت هذه المجالس بالإضافة إلى الشعراء صفوة من اللغويين و المؤرخين و الكتاب و العلماء في شتى الفنون)) [1].

و بذلك أتيح لمختلف العلوم و المعارف أن تزدهر و تتقدم في ظل الخلفاء الحفصيين خلال القرن السابع الهجري ، و تعرف رواجا و انتشارا كبيرين .

((فالعلوم الإسلامية و العلوم الأدبية علاوة عن غيرها من الصنائع و الحرف وجدت ما ينميها ، إذ توفرت عليها ثقافتان: ثقافة أندلسية وافدة ، و ثقافة أصيلة من مدرستين: مدرسة المهدية و مدرسة القيروان ، و لقحت الثقافتان بثقافة شرقية جلبها إما بعض الأندلسيين الوافدين الذين زاروا المشرق قبل أن يتوطنوا إفريقية ، أو بعض الأفارقة الذين قصدوا المشرق لتتميم هذه الثقافة))[2].

لقد غادر جمع غفير من الأندلسيين ديارهم متجهين نحو بلاد المغرب و المشرق ، فرارا من الأهوال و المحن التي تعرضت لها الأندلس ، و الخراب الذي لحقها جراء سقوط مدنها و قلاعها بأيد الغزاة الصليبيين ، الذين زحفوا على الأندلس خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري ، و كان في مقدمة النازحين: العلماء ، و الأدباء ، و المثقفين ، و أصحاب الحرف و الصناعات ، و قرروا الإقامة بالإمارة الحفصية ؛ فقد عمل الحكام الحفصيون على استقطاب خيرة أبناء الأندلس النازحين ، لغرض تنشيط الحياة بمختلف جوانبها بإمارتهم الفتية خلال هذا القرن ، و من الشخصيات الأندلسية البارزة نذكر: أبو بكر بن سيد الناس

---

(1)- أحمد الطويلي : في الحضارة العربية التونسية ، ص 18 .
(2)- ابن قنفد القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص 28 .

اليعمـــري*، أبو المطرف بن عميرة ، ابن عصفور**، حازم القرطاجني***، علـــي بن سعيد المغربي ، و قد جلب هؤلاء الأندلسيون معهم ما تعلموه بالأندلس من علوم و فنون منها ذلك الإنشاء الراقي الذي كان محل إعجاب الأفارقـــة و عـــدوه مـــن محاسن الأندلسيين و امتيازاتهم(1).

لقد التقت بالإمارة الحفصية عدة ثقافات وافدة من الأندلس و المشرق و امتزجتا بالثقافة المحلية ، الأمر الذي أدى إلى تنوع فكري خصب و ثراء ثقـــافي مثمـــر ، تحول على إثره المغرب الإسلامي إلى قوة جدب و مركز ثقل للحـــضارة العربيـــة الإسلامية ، بعد أن تراجع المشرق عن دوره الريادي في العالم الإســـلامي خـــلال القرن السابع الهجري ، جراء الصراعات الداخلية التي ما فتأت تنخر جسد الدولـــة هناك ، بالإضافة إلى الأخطار الخارجية المتزايدة التي باتت وشيكة الوقوع ، و قـــد وصلت إلى ذروتها فسقطت الخلافة الإسلامية ببغداد في بداية النصف الثـــاني مـــن القرن السابع الهجري ، فكل هذه التداعيات ساهمت في تحويل بلاد المغرب إلى قبلة يمم شطرها العلماء و الأدباء و دووا المهارات و أصحاب الحرف .

*- ابن سيد الناس اليعمري : هو الفقيه المحدث اللغوي المؤرخ أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري الاشبيلي، أصله من أبدة من أعمال جيان، ولد سنة 561 هـــ كان خطيبا بالمسجد الأعظم ببجاية ، ثم استقدمه المستنصر الحفصي إلى مجلسه و كانت له حضوة عنده، كما كان حسن الكتابة و النظم، توفي بتونس سنة 659 هـــ. للمزيد ينظر/ الغبريني : عنوان الدرايـــــــــــة ، ص 246- 249 .

**- ابن عصفور : هو الشيخ الفقيه النحوي اللغوي المؤرخ أبو الحسن علي بن عبد المؤمن بن محمد بن علي الحضرمي عرف بابن عصفور من أهل اشبيلية، نشأ و تعلم بها على ثلة من الشيوخ منهم : أبي علي الشلوبين ، أقام ببجاية و كان أستاذا للأمير أبي يحيى ، ثم انتقل إلى تونس ، و كان من جلساء المستنصر الحفصـــي المقربين ، من مؤلفاته: المقرب في اللغة و النحو، توفي بتونس سنة 670 هـــ . للمزيد ينظر/ المصدر نفسه : ص 266- 268 .

***- حازم القرطاجني : هو الشيخ النحوي الشاعر الكاتب الناقد أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني صاحب كتاب منهاج البلغاء و له عدة مؤلفات أخرى ، ولد بقرطاجنة الخلفاء بالأندلس سنة 608 هـــ و نشأ بها ، و أخذ العلم على الكثير من الشيوخ منهم ابن رشيد الفهري صاحب الرحلة غادر الأندلس و أقام بمراكش في خلافة الرشيد ثم انتقل إلى تونس و عين في ديوان الإنشاء بالبلاط الحفصي في خلافة المستنصر ، توفي بتونس سنة 684 هـــ . للمزيد ينظر/ المقري نفح الطيب ، جـــ 2 ، ص 584- 589 .

(1)- بتصرف ابن قنفد القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص 28- 29 .

و من العلماء و المفكرين الأفارقة : ابن حماد الصنهاجي*، و ابـن ميمـون**، وغيرهما كثير(1).

كما شجع الولاة الحفصيون العلماء و المثقفين ، و قربوهم منهم فـي قـسنطينة و عنابة و بجاية و مدينة الجزائر ، فاشتهر الكثير منهم مثـل : أبـي القاسـم بـن السطاح***، و غيره من العلماء و المثقفين(2) .

و نشطت الحياة الثقافية بمختلف جوانبها في إمارة بني زيان خلال القرن السابع الهجري ، بتشجيع ملوك هذه الإمارة للعلم و العلماء ، و إقامة المدارس و دور العلم في مختلف جهات مملكتهم ، و رصد الجوائز و المكافآت للعلماء و الطـلاب ، و العمل على إيجاد الشروط الضرورية المناسبة لإقامتهم ، و بخاصة في تلمـسان حاضرة الدولة الزيانية .

و قد تحولت تلمسان إلى منارة إشعاع ثقافي ليس في بلاد المغرب فحسب بـل في كامل العالم الإسلامي مشرقه و مغربه ، فأمها الطلاب من كل حدب و صوب ، و راجت فها سوق العلم و الأدب ، و نبغ في مملكة الزيانيين الكثير من الأدبـاء و الفقهاء و اللغويين ، و في مختلف شعـب العلـم و المعـرفة مثل : ابن خمـيس

---

*- ابن حماد الصنهاجي : هو الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي من قلعة بني حماد، تعلم هناك ثم ببجاية أخذ العلم عن كثير من الشيوخ منهم: أبي مدين شعيب ، ولي قضاء الجزائر ثم قضاء سلا بالمغرب الأقصى ، و من مؤلفاته: الإعلام بفوائد الأحكام ، و شرح مقصورة ابن دريد ، توفي سنة 628 هـ. للمزيد ينظر/ الغبريني: عنوان الدراية، ص192 ، و عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص197 .

**- ابن ميمون : هو الشيخ الفقيه النحوي المؤرخ الشاعر أبو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون القلعي، نشأ بالجزائر و تعلم بها ، ثم انتقل إلى بجاية و سمع من الكثير من الشيوخ مثل: الفقيه ابن محـرز ، و ابن عميرة ، برع في علوم العربية كما برع في علم التصريف متأثرا بابن جني ، له الكثير من المؤلفات منها: الموضح في علم النحو، و نشر الخفي في مشكلات أبي علي و غيرها ، توفي ببجاية سنة 673 هـ. للمزيد ينظر/ المرجع نفسه: ص 267- 268 . الغبريني: عنوان الدراية ، ص 94- 99 .

(1)- بتصرف ابن قنفد القسنطيني: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص 29 .

***- ابن السطاح : هو الشيخ الفقيه النحوي اللغوي أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر بـن السطاح ، نشأ بالجزائر ثم رحل إلى اشبيلية و بها تعلم ، و من شيوخه: ابن زرقون، ثم انتقل إلى مدينة مرسية و أخذ عن أبي القاسم الطرسوني ، و اشتغل بالتدريس و التوثيق ، ثم رجع إلى وطنه سنة 623 هـ ، و سكن بجاية إلى أن توفي بها سنة 629 هـ . للمزيد ينظر/الغبريني : عنوان الدراية ، ص 225 . عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر، ص177 .

(2)- بتصرف محمد الطمار : تاريخ الأدب الجزائري ، ص 90- 93 .

التلمساني*، و غيره من الأعلام ممن ذكرهم الحفناوي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف(1) .

و بالإضافة إلى ما قام به حكام بني زيان من تشجيع و تنشيط للحياة الثقافية بمملكتهم ، فإن لهجرة الأندلسيين إلى الإمارة الزيانية و استقرارهم بها الأثر العميق في ازدهار مختلف العلوم و الفنون بها .

((كان من نتائج نزوح الأندلسيين إلى تلمسان : ازدهار الحركة الفكرية بها حيث قام مجموعة من أفراد هذه الجالية بنشر التعليم بواسطة إلقائهم الدروس بالمؤسسات التعليمية في تلمسان و المدن التابعة لها))(2) .

و عرفت الحياة الثقافية بمملكة المرينيين خلال القرن السابع الهجري تقدما ملحوظا ، بعد فتور أصابها بسبب الصراع السياسي بين الموحدين و المرينيين ، غير أن الحكام المرينيين الذين آل إليهم حكم المغرب الأقصى عملوا جاهدين على تنشيط الحركة الثقافية و بعثها من جديد .

((لقد استأنفت الحركة العلمية سيرها إلى الأمام ، في ظل الدولة المرينية التي ما فتئت ترعاها و تشجعها ، بمد يد الإعانة إلى رجالها و تنشيطهم حتى ينصرفوا لخدمتها ، بل إن رجال الدولة أنفسهم كانوا يقدمون لها أجل الخدمات... فقد كان السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب المنصور من أهل العلم))(3) .

---

*- ابن خميس التلمساني : هو الفقيه الشاعر النحوي البلاغي الفيلسوف المتصوف الطبيب أبو عبد الله محمد بن عمر الحميري الحجري الرعيني المعروف بابن خميس التلمساني ، ولد بتلمسان سنة 650 هـ ، و نشأ و تعلم بها ، و انعزل عن الناس مدة إلى أن التقي بالرحالة المغربي العبدري ، ثم عمل في ديوان الإنشاء أيام السلطان أبي سعيد الأول ، و غادر تلمسان و نزل بسبتة ثم رحل إلى غرناطة ، واشتغل بالتدريس ، و نظم الشعر ، و قد أثنى عليه العبدري ، وصفه يحيى بن خلدون بأنه شاعر المائة السابعة ، ترك ديوان شعر جمعه بعد وفاته محمد بن إبراهيم الحضرمي ، بعنوان : الدر النفيس من شعر ابن خميس ، قتل بغرناطة في هجوم على قصر الوزير ابن الحكيم سنة 708 هـ . للمزيد ينظر/ عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر ، ص 135- 136 . و موسوعة العلماء و الأدباء الجزائريين ، ص 12- 13 . أبو القاسم محمد الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 2 ، 1405هـ / 1985م ، ص 375 – 390 .

(1)- للمزيد ينظر/ المرجع نفسه : ص 180 و ما بعدها .

(2)- مختار حساني : موسوعة تاريخ و ثقافة المدن الجزائرية ، دار الحكمة ، الجزائر ، 2007م ، جـ 4 ، ص 48 .

(3)- عبد الله كنون : النبوغ المغربي ، ص 188 .

لقد وجدت الحياة الثقافية في أشخاص الحكام المرينيين ، من يرعاها و يشرف عليها و يقرب روادها ، و قد أتت هذه العناية و الرعاية أكلها ، فبرز الكثير من العلماء و الأدباء في مختلف شعب العلم و المعرفة ، و أضحت فاس قبلة مفضلة لطلبة العلم و الأدب ، و ذكر محمد عبد الله كنون جمع غفير من أعلام الثقافة بمختلف مجالاتها بإمارة بني مرين ، من أمثال الرحالة أبي عبد الله بن رشيد الفهري* و غيره كثير[1] .

لقد ازدهرت الحياة الثقافية خلال القرن السابع الهجري ، في كل من الأندلس و المغرب و حرص الخلفاء الموحدون في بداية القرن على رعاية العلماء و المثقفين في كل مجالات العلم و المعرفة ، و لا عجب في ذلك فقد كان جل خلفاء دولة الموحدين من العلماء و الأدباء ، وقد استمدوا نشاطهم الثقافي من توجيهات و تعاليم مؤسس دولتهم محمد بن تومرت ، و برغم الخلافات و الفتن داخل الأسرة الموحدية ، نتيجة الطموح السياسي لبعض القادة و الولاة ، و الصراعات الدامية مع الممالك النصرانية ، و التي أدت إلى هجرة أبناء الأندلس و مثقفيها ؛ فقد واصلت الحياة الثقافية سيرها قدما إلى الأمام متوثبة تارة و متأنية تارة أخرى .

كما عمل حكام الإمارات المستقلة عنهم في الأندلس و بلاد المغرب على ترقية الحياة الفكرية ، و بدلوا جهودا كبيرة في بناء المنشآت الثقافية ، و في جلب العلماء و تقريبهم منهم ، و لم تخبو جذوة العلم و نهم المعرفة في أبناء الأندلس و المغرب حتى في أحلك الأيام و أصعب الأوقات ، و نبغ الكثير من العلماء و المثقفين في مجالات العلم و المعرفة ، و من أمثال : ابن الأبار القضاعي البلنسي الأندلسي .

---

*- ابن رشيد : هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي ، الرحالة الشهير ، و من علماء القرن السابع الهجري ، ولد بسبتة سنة 657 هـ ، و بها نشأ و تعلم ، برع في الحديث و النحو و علوم العربية و الأدب و التاريخ ، كثير الترحال جال المغرب و المشرق ، ألف رحلته المسماة : (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة و طيبة) ، و له مؤلفات أخرى ، توفي بفاس سنة 721 هـ. للمزيد ينظر/ الصفدي : الوافي بالوفيات ، دار النشر فرانز شتاينر ، شتوتغارت ، ألمانيا ، ط 2 ، 1991م ، جـ 20 ، ص 147 .

(1)- بتصرف عبد الله كنون : النبوغ المغربي ، ص 206- 207 .

د - الصورة الدينية:

1- في الأندلس:

عرفت الحياة الدينية في الأندلس خلال القرن السابع الهجري نشاطا متزايـدا ، على غرار ما عرفته بقية العلوم و المعارف العقلية منها و النقلية ، و بالرغم مـن الفتن و الصراعات المتعددة الأطراف بين المسلمين أنفـسهم ، و كـذلك حـروب الاسترداد الصليبية ، و ما خلفته من خراب و دمار على كل المستويات ، بالإضافة إلى هجرة الكثير من العلماء و الفقهاء للأندلس ، فإن ذلك لم يحـل دون مواصـلة الحركة الدينية طريقها نحو التقدم و الازدهار في جل مناحيها و جوانبها المتعددة : كالفقه ، و التفسير ، و القراءات ، و علم الحديث ، و علم الكلام ، و التصوف ...

لقد بقي أهل الأندلس متمسكين بالمالكية* في الفقه و بالأشعرية** فـي العقيـدة لقرون عديدة ، حيث يذكر أحمد أمين نقلا عن المقدسي قوله : ((و أهل الأنـدلس على مذهب مالك ، وقراءة نافع . و هم يقولون: لا نعرف إلا كتاب الله ، و موطـأ مالك...))[1].

---

*- المالكية : مذهب في الفقه الإسلامي، وهو من المذاهب السنية الأربعة المشهورة يقوم على إتباع الأثر- الكتاب و السنة- عكس بعض المذاهب الأخرى التي تأخذ بالرأي، ظهر بالمدينة على يدي إمام دار الهجـرة و سيد فقهاء الحجاز أبو عبد الله مالك بن أنس ، و هو يمني الأصل، ولد بالمدينة سنة 93هـ و بها تعلم ، توفي بها سنة 179 هـ ، و ترك بعض المؤلفات منها: كتاب الموطأ ، و المدونة الكبرى... و قد انتشر مذهبه بالمغرب أكثر من انتشاره بالمشرق، و لا يزال إلى يومنا هذا. و قد حارب الإمام مالك أهل البدعة و دعاة الضلالة و كان يتمثل بقول الشاعر :

و خير الأمور ما كان سنة　　　و شر الأمور المحدثات البدائع

للمزيد ينظر/ محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية ، دار الفكر العربي، مصر، 1976م، جـ 2(في تاريخ المذاهب الفقهية) ، ص 176- 224 .

**- الأشعرية : مذهب في الاعتقاد ومسلك في إثبات العقائد الإسلامية بالنقل و العقل معا، كما أخذ بظاهر النص أخذا مطلقا مع ميله إلى الوسطية و الاعتدال، و ظهر هذا المذهب على يدي أبي الحسن الأشعري، و قد ولد بالبصرة سنة 260هـ ، و تخرج على المعتزلة في علم الكلام وتتلمذ لشيخهم في عصره أبي علي الجبائي، ثم وجد ميلا إلى آراء الفقهاء و المحدثين فتخلى على فكر المعتزلة و سفه آراءهم، و صار يأخذ بمذهب الإمام أحمد بن حنبل حيث قدمه على سائر الفقهاء، توفى سنة 330هـ ، ألف الكثير من الكتب منها: كتاب الإبانـة، و كتاب مقالات الإسلاميين ... للمزيد ينظر/ المرجع نفسه : جـ1 (في السياسة و العقائد) ، ص 180- 194 .

(1)- أحمد أمين : ظهر الإسلام ، جـ 3 ، ص 13 .

و يمكن عد هذا القول دليلا على مدى تمسك أهل الأندلس بفقه إمام دار الهجرة و حرصهم الشديد على الوحدة المذهبية ، إلا أن ذلك لم يحل دون وجود من يأخذ ببعض المذاهب الفقهية الأخرى : كالمذهب الظاهري*، و آراء المعتزلة و الفرق الكلامية القائلين بتأويل المتشابه من آيات القرآن الكريم .

لقد عمل البلاط الموحدي على توجيه الحياة الدينية في الأندلس و جهة جديدة تقوم على الاجتهاد و نبد التقليد و الإتباع المذهبي الذي شكل جوهر الحياة الدينية من قبل: ((فلما أتى الموحدون الأندلس أعادوا القول بالاجتهاد ، و رأوا أن المختصرات الفقهية جنت على الفقه ، فأرادوا إحياءه بالرجوع إلى الكتاب و السنة ، و استنباط الأحكام منهما ، و عدم العمل بأي مذهب من المذاهب المعروفة...))(1).

و كان من نتائج هذا التوجه الجديد في المجال الديني ، أن ظهرت الكثير من المدونات و الدراسات القرآنية و الحديثية في الأندلس خلال القرن السابع الهجري ، و نبغ العديد من المفسرين و المحدثين و الفقهاء ...

((و قد عنى الموحدون بالحديث الشريف عناية فائقة فكان إمامهم المهدي ابن تومرت محدثا حافظا غير أنه استند في مهدويته إلى طائفة من الأحاديث المنتحلة التي نسجها خيال غلاة الشيعة ليبرروا مبادئ الإمامة و المهدوية... أما الأحاديث التي نقطع بصحتها فيما جمعه ابن تومرت ، فهي تلك التي أخذها من موطأ الإمام مالك ــ رضي الله عنه ــ و جردها من الأسانيد و جعلها فقها سار عليه الموحدون))(2) .

*- الظاهرية : نسبة إلى الفقيه ابن حزم الظاهري الأندلسي الذي كان يأخذ بظاهر النص و يرفض تأويل آيات الصفات و المتشابه من القرآن الكريم خلافا لما كان عليه المعتزلة و الأشاعرة و بقية الفرق الكلامية .

(1)- المرجع السابق : جـ 3 ، ص 65- 66 .

(2)- عبد الله علي علام : الدولة الموحدية بالمغرب (في عهد عبد المؤمن بن علي) ، منشورات الجزائر عاصمة الثقافة العربية ، الطباعة الشعبية للجيش ، الجزائر ، 2007 م ، ص 300 .

و قد اشتهر الكثير من المحدثين الأندلسيين خلال القرن السابع الهجـــــــري ، و عرفوا بالرواية و الحفظ و غزارة التأليف في هذا الباب من العلوم الدينية ، نذكر منهم : المحدث الشهير أبو الربيع سليمان الكلاعي البلنسي ــ شيخ ابن الأبارــ الذي استشهد في موقعة أنيشة قرب بلنسية .

2- في المغرب :

و شهدت الحياة الدينية في بلاد المغرب خلال القرن السابع الهجري ، نشاطا متزايدا على غرار ما عرفته الحياة الدينية بالأندلس في الفترة نفسها ، فقد عمل الموحدون في بداية قيام دولتهم على نبد فقه الفروع بالعودة إلى الكتاب و السنة و أخذ الأحكام مباشرة منهما ، و قد بلغ هذا التوجه الجديد أوجه خلال حكم يعقوب المنصور ــ ثالث خلفاء الموحدين ــ الذي تجند لتطبيق خطة مؤسس دولتهم محمد ابن تومرت في محاربة علم الفروع ، حيث ينقل عبد الله كنون عن المراكشي قوله: ((و في أيامه انقطع علم الفروع و خافه الفقهاء و أمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث الرسول صلى الله عليه و سلم و القرآن ... فحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون و كتاب ابن يونس و نوادر ابن أبي زيد و مختصره و كتاب التهذيب للبراذعي و واضحة ابن حبيب و ما جانس هذه الكتب و نحا نحوها ... و أمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة ؛ الصحيحين و الترمذي و الموطأ و سنن أبي داود و سنن النسائي و سنن البزار و مسند ابن أبي شيبة و سنن الدار قطني و سنن البيهقي ؛ في الصلاة و ما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة ... و كان قصده في الجملة محو مذهب مالك و إزالته مرة واحدة و حمل الناس على الظاهر من القرآن و الحديث))(1) .

إن ما قام به بعض حكام الدولة الموحدية من تضييق على المذاهب الفقهية و الحد من انتشارها ، و حث الناس على الأخذ بظاهر النص ــ القرآن الكريم و السنة النبوية ــ لا يعني تبنيهم للمذهب الظاهري ، و لم يمنع ذلك من مواصلة المذهب المالكي انتشاره في بلاد المغرب و التفاف الناس حوله ، ((و الحجة

---

(1)- عبد الله كنون : النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ص 119

الكبيرة في أن القوم لم يكونوا على مذهب أهل الظاهر ، هي مجموعة كتب المهدي بن تومرت هذه التي نشرها المستشرق المجري جولدزهير و تشمل على كتاب أعز ما يطلب و العقيدة المرشدة وكتاب الطهارة الذي يقال إن المنصور جمع كتابا في الصلاة على منواله ، إلى غير ذلك من تعاليق المهدي و كلها ليس فيه ذكر للظاهرية و لا لِعَلَم من أعلامها ، بل إن في تعاليقه الأصولية ما يعارضها و هو إثبات القياس و مدحه مما لا يجنح إليه أهل الظاهر كما هو معلوم))[1] .

غير أن الخلفاء المتأخرون في الدولة الموحدية ، قد تخلوا عن هذا المنهج الذي أقره المهدي بن تومرت و تبعه فيه الخلفاء الأوائل ، فقد نما علم الفروع من جديد و أقبل الناس على الفقه المالكي ، و ظهرت الكثير من الدراسات الفقهية ، وبلغ هذا الأمر ذروته بسقوط دولة الموحدين و قيام الدولة المرينية ، فقد عرفت العلوم الشرعية و علم الفروع خلال فترة حكم بني مرين ازدهارا و انتشارا كبيرين ، ((أما العلوم الشرعية ، و هي الفقه و الحديث و التفسير و توابعها فقد نُحِيَ فيها منحى التبسيط و التفريع ... و بلغ التوسع في ذلك منتهاه . يدلنا على ذلك كثرة الفقهاء الذين نبغوا في هذا العصر ، و التآليف العظيمة التي وُضِعت في فروع الفقه ...))[2] .

---

(1)- المرجع السابق : ص 125
(2)- المرجع نفسه : ص 189

الفصل الأول

ابن الأبار القضاعي حياته و آثاره

أ- حياة ابن الأبار القضاعي

1- نسبه

2- مولده

3- نشأته و تعليمه

4- شيوخه

5- رحلاته

6- أخلاقه

7- مكانته بين أهل عصره

8- وفاته

ب- آثاره الأدبية و العلمية

1- تلامذته

2- مؤلفاته

3- ديوانــــه

4- مدائحه في البلاط الحفصي

تكتسي دراسة حياة ابن الأبار القضاعي أهمية قصوى ، و تعد حلقة هامة لا مناص من الوقوف عندها ، بالتعرف على أهم مراحل حياته ، و الوقوف عند محطاتها الكبرى بدء بنسبه ، مرورا بمولده ، نشأته و تعليمه ، رحلاته ، أخلاقه ، مكانته بين أهل عصره ، وفاته ، و صولا إلى آثاره العلمية ، من أجل الاقتراب أكثر من الشاعر و التعرف إلى الظروف و الملابسات الحياتية لديه ، و التي كان لها أكبر الأثر في تكوين شخصيته و صقل تجاربه و إثراء خياله ؛ فراح يحلق في الأعالي وثابا إلى المعالي وقد ألهبت قضايا أمته نفسه .

إن دراسة هذه الجوانب التي أحاطت بالشاعر ، كفيلة بالإجابة عن بعض التساؤلات العالقة ، و جديرة بالكشف عن أهم عوامل نبوغه ، و أسرار شاعريته الفذة التي ألبسته تاج الخلود فملأ الدنيا و شغل الناس .

أ- حياة ابن الأبار القضاعي :

1- نسبه :

((هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمان بن أحمد بن أبي بكر القضاعي* البلنسي ، اشتهر بلقب ابن الأبار))[1] .

و يتحدث الصفدي (ت 764هـ/1363م) عن نسبب ابن الأبار بشيء من التفصيل مع اختلاف طفيف قائلا : ((ابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن

*- القضاعي: نسبة إلى قبيلة قضاعة العربية اليمنية ، و يقال لبني قضاعة و هم قبيلة من حمير من القحطانية ، و هذا هو المشهور في قضاعة ، و عليه جرى ابن الكابي و ابن إسحاق و غيرهما من النسابين . قال في العبر و قد يحتج له بما رواه ابن الهيعة عن عقبة بن عامر الجهني (رضي الله عنه) ، قال قلت يا رسول الله : ممن يمن قال من قضاعة بن مالك ، و في ذلك يقول عمرو بن مرة القضاعي :

نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر بن قضاعة بن مالك الحميري .

فالقضاعي منسوب إلى قضاعة واسمه عمرو بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبـــأ و إليه تنسب الكثير من قبائل اليمن مثل كلب و جهينة... و ذهب بعض النسابين إلى أن قضاعة من العدنانية ، و يقولون هذا هو قضاعة بن معد بن عدنان ، قال ابن عبد البر و عليه الأكثر ، قلت و الأشهر هو الأول و الله أعلم . للمزيد ينظر/ محمد أمين البغدادي الشهير بالسويدي : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ص 19 .

(1) - ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 9 .

عبد الله بن عبد الرحمان بن أحمد بن أبي بكر الحافظ العلامة أبو عبد الله القضاعي البلنسي الكاتب الأديب المعروف بابن الأبار و الأبار))[1] .

و قد أجمعت جل المصادر* التي ترجمت لابن الأبار على هذا النسب ، مع بعض الفوارق في إيراد الترجمة طولا و قصرا .

و يظهر جليا من هذه التراجم : أن اسمه محمد ، و كنيته أبو عبد الله ، و لقبه ابن الأبار ، أو الأبار .

و ذكر بعض الدارسين الذين تعرضوا لحياته : أن هذا اللقب أطلقه عليه خصومه لسوء هيأته و لباسه ، و بذاءة لسانه و حدته ، ومن هؤلاء نجد إبراهيم الأبياري محقق كتاب المقتضب من تحفة القادم لابن الأبار ، حيث ذكر في مقدمة التحقيق: أن هذا اللقب أطلِق على أبي عبد الله لصفات كان يتصف بها منها : أنه خبيث اللسان إذا هجا ، و أنه أشبه شيء بالفأر في إيذاء خصومه و الكيد لهم في الخفاء ، بالإضافة إلى دمامة منظره و رثاثة هيئته[2].

غير أن هناك من نفى هذه المزاعم ، و أكد أن هذا اللقب أصيل كان أجـداده يحملونه و يعرفون به ؛ فقد ذكر محقق ديوان ابن الأبار قائلا: ((و هو لقب أصيل كان أجداده يحملونه و يعرفون به ، و كان هو يوقع بعض رسائله به ، و من الخطإ

(1)- الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ 3 ، ص 355 .
*- من المصادر التي ترجمت لابن الأبار نذكر : الغبريني: عنوان الدراية ، ص 309- 313 . الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ 3 ص 355- 356 . أبي العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني : الوفيات ، تحقيق: عادل نويهض ، المكتب التجاري للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ط 1 ، 1971م ، ص 324- 325 . محمد بن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، 1974م ، جـ 3 ، ص 404 – 405 . ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ 6 ، ص 652- 655 . المقري : نفح الطيب ، جـ 2 ، ص 589- 594 . محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين و الموحديـن ، جـ 2 ، ص 705 . جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، مطبعة الهلال ، مصر ، 1913م ، جـ 3 ، ص 77- 78 . أحمد أمين : ظهر الإسلام ، جـ 3 ، ص 279- 280 . و غير ذلك من المصادر و المراجع .
(2)- بتصرف/ ابن الأبار: المقتضب من تحفة القادم ، تحقيق: إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الإسلامية / دار الكتاب المصري / دار الكتاب اللبناني ، ط 2 ، 1982 م ، (مقدمة التحقيق) ، ص 16 .

القول بأن اللقب جديد أطلق أول ما أطلق عليه ، كما أنه لم يكن ــ كما قيل ــ سبة له لبذاءة لسانه و رثاثة هيأته))[1] .

و لم يكن ابن الأبار القضاعي أول من حمل هذا اللقب من أعــلام الأنــدلس وعلمائها ؛ بل سبقه إليه غيره من الشعراء و الكتاب منهم : ابن الأبار الخولاني* .

و ينحدر ابن الأبار من قبيلة عربية (قبيلة قضاعة اليمنية) ، التي اســتوطن جل أفرادها المهاجرين شرق الأندلس ، و يذكر الغبرينـــي (ت 714هـــ/1315م) قائلا : ((هو من أهل بلنسية و أصله من أجردة** و هي وما والاها دار القضاعيين بالأندلس))[2].

و يشير ابن الأبار نفسه في بعض قصائده صراحة إلى نسبه اليمني إذ يقول :

لَهَا اللهُ لِمْ ضَنَّتْ عَلَيَّ بِوَصْلِهَا وَ لِمْ حَرَمَتْنِي القُرْبَ دُونَ دَرَى القُرْب
وَ مَا ضَرَّهَا أَنِّي يَمَانٍ وَ أَنَّهَــا لِقَيْسٍ ، أَلَسْنَا فِي تَعَارُفِنَا عُرْبَــــــا؟[3].

فقد ذكر الشاعر تصريحا لا تلميحا ، أنه ينحدر من قبيلة عربية يمنية ، كما يشي البيت الأخير بالكثير من المعاني و الدلالات ، التي تعبر بوضوح عن مدى اعتزاز ابن الأبار بنسبه العربي الصريح - على عادة العرب جميعا - و تمسكــه به ، و افتخاره الكبير بأصله اليمني .

---

(1)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 9 .
*- ابن الأبار الخولاني : أبو جعفر أحمد بن محمد الخولاني الأندلسي الاشبيلي المعروف بابن الأبار الشاعر المشهور - كان من شعراء المعتضد بن عباد بن محمد اللخمي صاحب اشبيلية - المجيد في فنونه ، و كان عالما فجمع و صنف ، و له في صناعة النظم فضل لا يرد ، و إحسان لا يعد ، و له ديوان شعر ذكره ابن بسام في الذخيرة . توفي سنة 433 هــ . للمزيد ينظر/ أبو العباس شمس الدين بن خلكان : وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، جـــ 1 ، ص 141- 142 .
**- أجردة : هي البلدة التي سكنها القضاعيون بالأندلس كما يسميها الغبريني ، غير أن جل المــصادر التاريخية ، تدعوها أندة ؛ فقد يتعلق الأمر بخطأ وقع فيه صاحب عنوان الدراية ، أو أن لها أكثر من اسم .
(2)- أحمد الغبريني : عنوان الدراية ، ص 309 .
(3)- ابن الأبار : الديوان ، ص 66 .

2- مولده:

((ولد ابن الأبار في مدينة بلنسية (Valencia) التي أنجبت كثيرا من العلماء و الشعراء و الشخصيات، وذلك في فجر يوم جمعة في أحد شهري ربيع سنـــة 595هـــ/ دجمبر أو يناير سنة 1198م))[(1)] .

وقد أكدت جل المصادر و المراجع التي ترجمت لابن الأبار هذا التاريخ ، غير أن هناك من أورد تاريخا آخر لمولد ه ، فقد ذكر الغبريني في عنوان الدراية تاريخا آخر لمولد الشاعر مخالفا لما أجمعت عليه معظم المصادر هو(575هـــ)[(2)] .

و قد يرجع هذا الخلاف حول سنة مولد ابن الأبار بين الغبريني و بقية أصحاب كتب تراجم الأعلام ، إلى التصحيف و التحريف الذي لا يستبعد وقوعه في بعض النسخ المخطوطة لكتاب عنوان الدراية ، إذ يستبعد أن يصدر هذا الخطأ من الغبريني نفسه المشهود له بالحصافة و الدقة و الأمانة و الضبط ، بالإضافة إلى قرب عصره من العصر الذي عاش فيه ابن الأبار.

و إذا كان الخلاف قد حصل بين المصادر التي ترجمت لابن الأبار حول تاريخ مولده ؛ فإن ذلك لم يحصل حول مكان ولادته ، فقد أجمعت كل المصادر التي في أيدينا ، أن مولده كان في بلنسية إحدى مدن شرق الأندلس و قواعدها الكبرى ، وقد وصفها المقري التلمساني بقوله : ((تعرف بمطيب الأندلس ، و رصافتها من أحسن متفرجات الأرض ، و فيها البحيرة المشهورة الكثيرة الضوء و الرونـــق ، و يقال إنه لمواجهة الشمس لتلك البحيرة يكثر ضوء بلنسية إذ هي موصوفة بذلك ... و لم تخلو من علماء و لا شعراء ، و لا فرسان يكابدون مضايق الأعــداء ... و أهلها أصلح الناس مذهبا ، و أمتنهم دينا ، و أحسنهم صحبة ، و أرفقهــم بالغريب))[(3)] .

---

(1)- المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 9 .
(2)- بتصرف / الغبريني : عنوان الدراية ، ص 309 .
(3)- المقري : نفح الطيب ، جـــ 3 ، ص 589 .

و مهما يكن من أمر الخلاف الحاصل حول تاريخ ميلاد ابن الأبار ، فإنه من الراجح أن مولده كان في نهاية القرن السادس الهجري ، الذي شهد أحداثا كبرى في الأندلس ، و صراعات عنيفة بين المسلمين و الصلبيين الذين بدأ خطرهم يزداد يوما بعد يوم ، و شرعوا في حشد قواتهم و توحيد كلمتهم تحت راية الصليب ، استعدادا للانقضاض على المسلمين في الأندلس الذين بدأت أحوالهم في التدهور، بسبب الخلافات السياسية الحادة بين العصب المتنافسة على السلطة هنا و هناك .

3- نشأته و تعليمه :

بمدينة بلنسية المشهورة بجمال طبيعتها و اعتدال مناخها ، و في عائلة معروفة بالعلم و الثراء ، نشأ ابن الأبار تنشئة صالحة محاطا برعاية عائلته التي وفرت لابنها ظروفا تساعد على النبوغ و التفوق ، فشب الشاعر شغوفا بالمعرفة ، حريصا على طلب العلم ؛ فقد كان والده من أعيان بلنسية و علمائها ، حيث يذكر محقق الديوان متحدثا عن الأجواء التي أحاطت الشاعر مند ولادته : ((نشأ ابن الأبار في بيئة تمتاز بجمال الطبيعة و بين أهل عرفوا بحسن الطباع و كرم النفوس و أناقة الأزياء ، و في جو علمي مثقف متفقه . كان والده من علماء بلنسية ، له علاقـــات و صلات علمية بعدد من علماء الأندلس عموما وشرقيها خصوصا . اشتهر بملازمته لشيخ الأندلس أبي الربيع سليمان الكلاعي إذ كان من أخص بطانته و أدنى صنائعه إليه))[1] .

لقد جند والد ابن الأبار كل ما في وسعه من الوقت و الجهد ، و استغل جل معارفه و علاقاته من أجل تنشئة و تعليم ابنه وتوجيهه الوجهة الصحيحة ، فقد كان يطمح أن ينال ابنه مكانة مرموقة بين أقرانه و معاصريه ؛ و أن يتبوأ أعلى الدرجات العلمية ، فيحقق الوالد من خلال الولد كل رغباته التي عجز هو عن تحقيقها في بيئة كانت تقدر العلم و تجل العلماء وتعترف لهم بالفضل و ترعى لهم المكانة.

و يظهر أن ابن الأبار كان الولد الوحيد في أسرته ، فلم تحدثنا المصادر التي ترجمت له ــ على كثرتها ــ أن له إخوة ، الأمر الذي جعله يحظى بكامل الرعاية من أسرته و والده على الخصوص .

فقد ((اهتم الوالد بتوجيه ولده محمد الذي كان ــ فيما يبدو ــ ولده الوحيد ، وحرص على أن يوفر له كل الظروف و الفرص لطالب العلم ، و من ذلك أنه كان

---

(1)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 9 .

يصحبه معه إلى مجالس العلم و زيارة العلماء و يستجيز له الأعلام و هو بعد لم يتجاوز مرحلة الطفولة و الصبا))[1] .

و ليس غريبا على والد ابن الأبار أن يكون حريصا أشد الحرص على توفير الأجواء الملائمة لابنه من أجل طلب العلم و تحصيل المعارف ، فقد كان هو نفسه من المثقفين الملازمين للعلماء و المترددين على حلقات الدرس .

((عرف ابن الأبار بالجد و المثابرة و البحث و الاستقصاء ، و لم يقتصر في الأخذ عن شيوخ بلنسية و شرقي الأندلس بل نراه يقوم برحلة علمية عبر بعض المدن الأندلسية للدراسة و الأخذ و ذلك أثناء حياة والده))[2] .

و هكذا فقد ورث ابن الأبار عن أبيه روح الجد و التفاني في تحصيل العلـــــم و المعرفة و تحقيق الأهداف بصبر لا يفتر و عزيمة لا تلين ، يدفعه في ذلك شغف العلم و نهم المعرفة ، و لم يتوان في سبيل ذلك على المغامرة و ركوب المخاطر ، فقد تجشم عناء السفر و الارتحال عبر كامل ربوع الأندلس للدراســـــة و الأخذ عن كبار علمائها .

لقد كان ابن الأبار شعلة من الذكاء و النباهة ، الأمر الذي مكنه من تحصيل العلوم و المعارف المتاحة في عصره في شتى المجالات ، فقد فاق الكثير من معاصريه في الأندلس و خارجها ، و طبقت شهرته الآفاق ، و عمل حكام الممالك و الأمصار على تقريبه منهم و ضمه إلى بطانتهم و مستشاريهم .

((و يظهر من خلال ما قاله ــ ابن الأبارــ عن نفسه أنه على قدر كبير من الذكاء و الفطنة ، فقد بدت عليه سمات النباهة منذ طفولته الأولى على غير عادة الأطفال ، إذ من العادة أن يظهر الاستعداد للتحصيل العلمي في العام الخامـــــــس

---

(1)- المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 9 .
(2)- المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، الصفحة نفسها .

أو السادس ، لكن ما حدث مع الشاعر أنه ما إن بلغ عامين حتى أجاز له القاضي أبو بكر بن أبي جمرة جميع روايته))[1] .

و إذا كان موضوع ذكاء ابن الأبار أمرا مقبولا بل راجحا ؛ للجو العلمي الممتاز الذي أحيط به منذ ولادته ، فإن مسألة حصوله على إجازة من أحد العلماء و هو لم يتجاوز العامين من عمره مسألة لا يمكن تقبلها بسهولة ، و يزداد الأمر صعوبة إذا صدرت هذه الإجازة من طرف عالم يعرف قيمة العلم و جدارة من يحمله ؛ لأن ذلك يخالف العادة و يناقض المنطق السليم ، إلا إذا كان حصول هذا الأمر يرتبط بعلاقات والده و صلاته بعلماء الأندلس ، فتمكن من الحصول لابنه على هذة الإجازة استثناء ، و هذا يعني أن إجازة ابن الأبار المبكرة لا يمكن أن تقوم دليلا على ذكائه و فطنته بأي وجه من الوجوه ، ذلك أن الحصول على إجازة العلماء ليس بالأمر اليسير حصوله ، حتى للذين قطعوا أشواطا معتبرة في طلب العلم .

غير أن حقيقة الموضوع هي أن هذه الإجازة المبكرة ، كانت موجهة في الأصل لوالد ابن الأبار و أضيف اسم الابن فيها إلى أبيه تكرما ، فقد ذكر ابن الأبار أن أبا بكر بن أبا جمرة كتب لوالد ابن الأبار يجيز له جميع روايته و ألحق في الإجازة الولد بالوالد[2] .

((كانت حياة ابن الأبار العلمية حافلة و جليلة و لذلك لا يأخذنا العجب إن رأيناه يأخذ عن أكثر من مائتي شيخ خلال حياته . و لم يكن يستنكف عن الاستفادة ممن هم أقل منه علما و مكانة ، و كانت له علاقة مع علماء غير أندلسيين كالشيخ عبد العظيم المنذري صاحب الترغيب و الترهيب . و لم يعقه عن مواصلة الأخـــذ

---

(1)- العلمي لراوي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكـــر القضاعـــي البلنسي الشهيـــر بابـــن الأبـــــار (595هـــ - 658هـــ 1199م - 1260م) حياته و مؤلفاته و دراسة فنية لشعره ، مخطوطة رسالة الدكتوراه ، قسم اللغة العربية و آدابها ، جامعة الإخوة منتوري ، قسنطينة ، 1997م- 1998م ، ص 19 .

(2)- بتصرف/ أبو عبد الله محمد بن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، مكتبة الثقافـــة الإسلامية ، القاهرة ، 1956 م ، جـــ 2 ، ص 889 .

و الطلب إلا رماح تناوشت جسمه لتنتزع منه روحه و تقضي على تلك الهمة الجبارة))[1] .

لقد كان ابن الأبار محظوظا خلال مسيرته العلمية حيث تداول على تعليمه و تكوينه هذا العدد الجم من خيرة شيوخ الأندلس و علمائها ، فلا عجب ــ و الحال هذه ــ أن يكتسب الشاعر ثقافة واسعة و زخما علميا كبيرا كان له الأثر البعيد في غزارة التأليف لديه في مختلف مجالات العلم و المعرفة .

---

(1)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 10 .

4 – شيوخه :

كان المسار التعليمي لابن الأبار القضاعي موفقا إلى حد بعيد ، فقد ساهمت العديد من العوامل في تكوينه و صقل مواهبه ؛ الأمر الذي مكنه من الحصول على ثقافة واسعة و رصيد معرفي كبير ، و قد عرفت حياته التعليمية محطات مختلفة بداية بأسرته التي لم تدخر جهدا في تعليم ابنها و تزويده بمختلف المعارف ، ثم انتقل من محيطه التعليمي الصغير ـــ أسرته ـــ ليندمج و يمتزج بفاعلية كبيرة في محيط أوسع منه ، لم تتوقف حدوده على مدينة بلنسية فحسب بل يتعداها إلى كل بلاد الأندلس .

((بدأ التحصيل العلمي مبكرا ، إذ حفظ القرآن عن والده عبد الله بن أبي بكر ، استمر في تحصيل العلوم وفق نظام التحصيل المتبع آنذاك ، و هو نظام الاستماع و الإجازة* ، فأخذ عن ما يفوق مائة شيخ من فطاحل علماء الأندلس ، هؤلاء الذين درس عنهم ابن الأبار مباشرة أو بطريقة غير مباشرة هم قادة العلم في الأندلس ، حفظ عنهم القرآن و تلاوته بالقراءات السبع ، روى عنهم الحديث و الأخبار و تعلم عنهم اللغة ونحوها و الأدب و أجازوه لفظا و خطا ، هذا يكشف المبلغ الكبير الذي بلغه في العلم))(1) .

لقد كان النظام التعليمي السائد في عصر ابن الأبار و ما قبله ، هو نظام الأخذ عن الشيخ سماعا سواء كان ذلك في المسجد أو بمنزل الشيخ ، فلم تكن هناك هياكل تعليمية مخصوصة ، و لا مؤسسات و هيئات رسمية تشرف على التعليم عكس ما هي عليه الحال في وقتنا الحاضر ، فقد كانت الأسرة هي المنوط بها مهمة تدريـــس

*- الإجازة عبارة عن شهادة أو إقرار من الشيخ أن التلميذ قد فهم كتابه الذي يدرسه له فهما جيدا و استوعبه استيعابا تاما ، و أصبح قادرا على تدريسه لغيره ، فهذا هو نظام الاستماع و الإجازة ، و تكون الإجازة إما لفظية أو مكتوبة أو كليهما معا ، و قد تكون الإجازة للصبيان و حديثي السن من باب التشريف ، يمنحها الشيخ بناء على ما يلاحظ على الطفل من استعداد فطري و فطنة وذكاء ، و تكون خاصة بأبناء السادة ، وقد حصل ابن الأبار على إجازة من الشيخ أبي بكر بن أبي جمرة و لما يتجاوز السنتين من عمره .

(1)- العلمي لراوي : ابن الأبار بين التأليف و الإبداع ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، الجزائر ، عدد 13 – جوان 2000م - شركة دار الهدى عين مليلة ، الجزائر ، ص 223- 224 .

و تعليم أبنائها، بحسب قدرتها المادية على ذلك و درجة الوعي لديها بأهمية التعليم ، الأمر الذي حرم الكثير من الأبناء من نيل قسط من العلم و المعرفة ، و من هنا يمكن القول إن فرص التعليم كانت منحصرة ــ في الغالب ــ على أبناء الطبقات الميسورة الحال ، كأسرة ابن الأبار التي كان لها نصيبا من العلم وحظا من النعمـــة و فضلا من الثراء.

((ونعتقد أن أول من جلس إليه يتعلم عليه ، هو والده يتعلم عليه القرآن بقراءة نافع و يسمع منه الأخبار و الأشعار ، فهو المعلم الأول لابنه ، فبعد أن حفظ عليـــه و أمتحنه و تأكد من استيعابه و تمثله لما تحصل عليه ، منحه جميع كتبه ثم سمح له بمصاحبته للأخذ من الشيوخ الذين روى عنهم الوالد و انفرد الولد بالأخذ عن شيوخ آخرين لم تتح الفرصة للوالد أن يجالسهم بحكم مهامه المختلفة))[1] .

ثم كانت المرحلة التعليمية الموالية في حياة ابن الأبار ، فبدأ يتردد على حلقات الدرس و التي غالبا ما كانت تعقد بالمساجد عقب كل صلاة أو بمنازل الشيـــــــوخ و الأساتذة المتصدرين للتدريس ، و يتنقل من بلدة لأخرى طلبا للعلوم و تحصيلا للمعارف المتاحة في ذلك العصر .

((و لم يكتف ابن الأبار بالدراسة على علماء بلنسية ، بل قام برحلة طويلة جاب بها الأندلس ، و أصبح يجمع إلى تضلعه في الحديث ثقافة جامعة لعلــوم عصره ، ثم عاد أخيرا و لما يبلغ الثلاثين من عمره))[2] .

إن كثرة الشيوخ الذين أخذ عنهم ابن الأبار و ما يمتازون به من التحصيـــــل و تنوع المعارف و العلوم لديهم ، قد ساهم في تكوينه و اكتسابه ثقافة موسوعية ثرية و حافلة .

((فهو قد درس على شيوخ كثيرين يردد أسماءهم في مؤلفاته ، و ينقل عنهم ،

---

(1)- لراوي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي الشهير بابن الأبار ، (مخطوطة رسالة دكتوراه) ، ص 19 .

(2)- محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا القدماء و المحدثون ، منشورات مكتبة الوحدة العربية ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط 1 ، 1962م ، ص 321 .

أمثال أبي عبد الله بن نوح ، و أبي جعفر الحصار ، و أبي الخطاب بن واجـــــب ، و أبي الحسن بن خيرة ، و أبي سليمان بن حوط ، و أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن سعادة ، و يمكننا أن نعد أبا الربيع بن سالم في طليعة شيوخ ابن الأبار ، فقد لزمه قرابة عشرين عاما ، و أبو الربيع أكبر محدث في عصره ، و أشهر علماء الأندلس في زمانه ، و هو الذي علم ابن الأبار صناعة الكتابة ، و أورثــه إياها))[1] .

و قد ترجم ابن الأبار نفسه في بعض كتبه للكثير من العلماء و الشيوخ الذين كان لهم الفضل الكبير في تعلمه و تكوينه في مختلف العلوم و الفنون ، و من بين هؤلاء الشيوخ الذين تتلمذ عليهم :

ــ **محمد بن أيوب بن محمد بن وهب بن نوح الغافقي** : هو من أهــل بلنسية و علمائها ، ولد سنة(530هــ) ، وتعلم على خيرة مشايخها ، و زاحم العلــــــماء و الفقهاء ، توفي سنة(608هــ) ، و كان محدثا حافظا و عالما بالأنساب و الأخبار و القراءات ، اشتغل بالقضاء في بعض مدن الأندلس و إماما خطيبا بجامع بلنسية مدة ، و طال عمره حتى أخذ عنه الآباء و الأبناء[2] ,

كما((كان من الراسخين في العلم بارعا في العربية و الفقه و الإفتاء))[3] .

و يظهر بوضوح انطلاقا من تاريخ وفاة هذا الشيخ ، أن ابن الأبار قد أخذ عنه بعض العلوم و المعارف كالفقه و القراءات في بداية حياته الدراسية ، إذ توفي الشيخ و لم يتجاوز ابن الأبار الثالثة عشرة من عمره .

ــ **محمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري النحوي** : من أهل بلنسية و كنيته أبو عبد الله ، قرأ عنه ابن الأبار قبل وفاته سنة(610هــ) ، أي قبل أن يبلغ سن الخامسة عشرة ، و يقول عنه أنه لم يكن يعتمد على النقل فقط

---

(1)- المرجع السابق : ص 321 .

(2)- بتصرف / ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، جــ 2 ، ص 582- 584 .

(3)- صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات ، جــ 2 ، ص 239

بل كان يعمل العقل و المنطق ، عارفا بعلوم اللسان و متبحرا في العربية ، عاكفا على إقرائها و التعليم بها قائما على كتابتها بصيرا ، بصناعة الحديث مكبا عليه ، قرأ و أقرأ جمعا كبيرا و أفاد و استفاد كثيرا ، و قد نقلت من خطه ما نسبته إليه في هذا الكتاب " تكملة كتاب الصلة" و أجاز لي بلفظه و سمعت منه بعض نظمـــــه ، و كان شاعرا محمودا[(1)] .

ــ **أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن سعادة** : من أهل شاطبة ، قدم إلى بلنسية في أول شوال سنة(610هــ) ، أخذ القراءات عن أبي الحسن بن هديـــــــل و غيره من كبار العلماء ، سمع من أبي عبد الله بن سعادة و أبي حفص بن واجب لما جاء بلنسية أخذ عنه ابن الأبار و سمع منه و أجاز له ، توفي بشاطبة يوم الثلاثاء التاسع من شوال سنة(614هــ) بعد أن عمر طويلا فبلغ المائة سنة[(2)] .

ــ **داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمان بن سليمان بن عمر ابن خلف بن عبد الله الرؤوف بن حوط الله الأنصاري الحارثي** : من أهل أندة و كنيته أبو سليمان و ولد بها سنة(552هــ) ، سكن مالقة ، و أخذ عن أبيه و أخيه ، و تجول ببلاد الأندلس للسماع من علمائها و الأخذ عن رواتها فزار بلنسية و شاطـــــــــبة و مرسية و قرطبة ... و سمـــع و روى عن ابن بشكوال صاحب كتاب الصلــــــة و ابن زرقون و غيرهما من علماء الأندلس و فقهائها ، و كان شديد العناية بالرواية و لم يكن في وقته من يجاريه فيها ، ولي قضاء الجزيرة الخضراء ، ثم ولي قضاء بلنسية في آخر سنة(608هــ) ، توفي بمالقة و هو على قضائها سنة(621هــ) [(3)] .

ــ **محمد بن ابراهيم بن مسلم البكري و يكنى أبو عبد الله** : هو من أهل بلنسية و قد أخذ العلم عن أبي عبد الله بن نوح و لازمه ، و أخذ عنه العربيـــــــة و الآداب و علم بها ، و كان مقدما حسن التعليم ، و أخذ عنه ابن الأبار علوم اللغة

---

(1)- بتصرف/ ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، جــ 1 ، ص 313 .
(2)- بتصرف/ المصدر نفسه : جــ 1 ، ص 313- 314 .
(3)- بتصرف/ المصدر نفسه : جــ 1 ، ص 316 .

قرأ عليه كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي ، و كان من أهل الديانة و النزاهـــــــة و الانقباض ، و توفي سنة(627هـ)[1] .

ـ ((**محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي زاهر المكتِب** : من أهل بلنسية يكنى أبو حامد ، أخذ القراءات عن أبيه ، و سمع من أبي العطاء بن نذيـــر و أبي عبد الله بن نسع كثيرا و من غيرهما و أدب بالقرآن ، و هو معلمي و عنه أخذت قراءة نافـــع و به انتفعت في صغري ، و سمعت منه و أجاز لي ، و سمع مني كتاب "معدن اللجين في مراثي الحسين من تأليفي ، و كان ناشئا في الصلاح محافظا على الخير متواضعا ، يجمع إلى جودة الضبط براعة الخط ، و صلى بالناس الفريضة ، في مسجد رحبة القاضي ـ من داخل بلنسية ـ دهرا طويـــلا ، و كان من العدالة و النزاهة بمكان ، و رحل حاجا في سنة(632هـ) ، فمرض بالإسكندرية أو في طريقه إليـــها ، و توفي بعيذاب ـ قاصدا بيت الله الحرام ـ في آخر سنة(633هـ)))[2] .

ـ **أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي** : هو الحافظ المحدث الشهير سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميري الكلاعي ، ولد ببلنسية سنـــة (565هـ) ، فاق أهل زمانه في علم الحديث و الرواية ، و كان له حظ وافر في الأدب و البلاغة و الخطابة و الشعر ، له الكثير من المؤلفات في شتى فنون الكتابة منها: الإكتفاء في مغازي الرسول (صلى الله عليه و سلم) و الثلاثة الخلفاء , كتاب مصباح الظلم و كتاب الأربعين و غيرها ، توفي شهيدا في موقعة أنيشة قرب بلنسية سنة (634 هـ) ، و قد كان لأبي الربيع سليمان الكلاعي الأثر الكبير في حياة ابن الأبار العلمية و الأدبية ، الأمر الذي جعله يردد اسمه في جل ما ألفه من كتب ، كما بكاه عند استشهاده بقصيدة من أجود ما قال في الرثاء[3] .

---

(1)- بتصرف/ المصدر السابق : جـ 1 ، ص 986 .
(2)- المصدر نفسه : جـ 2 ، ص 635 .
(3)- بتصرف/ صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات ، جـ 15 ، ص 432- 436

ـ **أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن خيرة البلنسي** : كان من مقرئي القرآن و من رواة الحديث ، و خطيب مسجد بلنسية و إمام الصلاة تقلد الإمامة أربعين سنة فيها ، و كان رجلا مجتهدا في طلب العلم بالأندلس و المشرق ... توفي في أواخر رجب سنة(634)هـ[1] .

ـ ((**الشيخ أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي يحي ابن مطروح التجيبي** : و كان فقيها عارفا بالأحكام ، عاكفا على عقد الشروط ، من أهل الشورى و الفتيا أديبا شاعرا مقدما فكها ، صدوقا في روايته . سمعت منه حكايات و أخبارا و أنشدني لنفسه و لغيره كثيرا و أجاز لي غير مرة لفظا جميع ما رواه و أنشأه ، توفي الشيخ عند المغرب من ليلة يوم الجمعة التاسع و لذي القعدة سنة(635هـ) و الروم محاصرون لبلنسية))[2] .

ـ **الشيخ نذير بن وهب بن لب بن عبد الملك بن أحمد بن محمد بن نذير الفهري ، يكنى أبو عامر**: أخذ القراءات عن أبيه أبي العطاء ، و سمع منه ، و من أبي بكر بن جزي ، و أخذ العربية و الأدب عن أبي محمد بن عبدون ، و كتب إليه من أهل المشرق جلة من العلماء الأفاضل ، عني بعقد الشروط ، فلم يكن أحد يدانيه في ذلك حسن مأخذ ، و سهولة الألفاظ ، و براعة مساق مع المشاركة في الفقه ، و كان قائما على الكامل للمبرد كثيرا ما سمعته يورد أشعاره و يسرد من حفظه أخباره ، و ولي قضاء بعض المدن الأندلسية ، و كان محدثا حافظا ، فأخذ عنه طلاب العلم ، و يذكر ابن الأبار أنه سمع منه كثيرا و أجاز له لفظا و خطا ، بقي الأستاذ ببلنسية حتى أخذها ملك أرغون ، فانتقل إلى مدينة دانية و ولي قضاءها إلى أن توفي بها في منتصف شهر شعبان سنة(636هـ) [3] .

---

(1)- بتصرف/ ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، جـ 1 ، ص 681 .
(2)- المصدر نفسه : جـ 2 ، ص 517 .
(3)- بتصرف/ المصدر نفسه : جـ 2 ، ص 424- 425 .

ــ **أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب القيسي** : من أهل بلنسية ، يكنى أبو الخطاب حامل راية الرواية بشرق الأندلس ، و آخر المحدثين المسندين .

ولد في بلنسية سنة(537)هــ و توفي بمراكش ، قرأ ابن الأبار عن الشيخ أبي الخطاب الحديث و التاريخ حوالي سنة(609هــ) ، و أجاز له غير مــرة خطا و لفظا ، و كان ابن الأبار يسند إليه كثيرا من روايات الحديث و روايات الأخبار .

ولي أبو الخطاب القضاء في بلنسية و شاطبة ، اختصر تأليف ابن بشكوال في الغوامض و المبهمات و رتبه ترتيبا مفيدا ، و اختصر كتاب الفصل للوصـــــل المدرج في النقل لأبي الخطيب[1] .

لقد كان شيوخ ابن الأبار القضاعي الذين تناوبوا على تدريسه و تعليمه مختلف العلوم و الفنون ، سواء كان ذلك ببلنسية ــ مسقط رأسه ــ أو خارجها كثيــرون ، و لن يستطيع هذا البحث أن يحيط بهم و إن حرص على ذلك ، فقد ألمحنا إلى بعضهم و خاصة إلى من كان لهم الأثر الكبير على المسار التعليمي لابن الأبار الذي اغترف من معينهم و لم يفتأ يردد أسماءهم في ثنايا كتبه .

(1)- بتصرف/ المصدر السابق : جــ 1 ، ص 106 .

5- رحلاته :

عرف ابن الأبار القضاعي في حياته الرحلة و ألف السفر و التنقل ، و كان ذلك لطلب العلم أو لدواعي السياسة التي اشتغل بها ، فبعد أن أخذ بعض المـــعارف و العلوم في مدينته ، خرج يطوف في حواضر الأندلس و مراكزها الثقافية ، يدفعه إلى ذلك طموحه العلمي الذي تميز به منذ صغره .

لقد كانت رحلة ابن الأبار الأولى من أجل طلب العلم ، فبعد أخذه عن شيوخ بلده ــ بلنسية ــ شد الرحال و ولى وجهه شطر المراكز الثقافية المعروفة إذ ذاك بالأندلس ، ((و لم يقتصر في الأخذ عن شيوخ بلنسية و شرقي الأندلس ، بل نراه يقوم برحلة علمية عبر بعض المدن الأندلسية للدراسة و الأخـــذ و ذلك أثناء حياة والده))(1) .

لقد أفاد ابن الأبار من رحلته هذه الشيء الكثير ، حيث زار خلالها معظم المدن الأندلسية و مراكز الثقافة بها ، و حصّل من العلوم و المعارف رصيدا متميزا ما كان ليتأتى له لولا سفره هذا الذي استغرق عدة سنوات .

((عاد إلى بلنسية عندما بلغه نعي والده ، و خلفه في مكانته لدى أبي الربيع الكلاعي الذي أستأثر ابن الأبار بإعجابه و حبه حتى أصبح أقرب تلامذته و أحب طلابه))(2) .

ويظهر جليا أن عودة ابن الأبار من رحلته العلمية الطويلة ، قد حدثت و لما يتجاوز الرابعة و العشرين من عمره ، فقد ذكر هو نفسه عند ترجمته لأبيه قائلا : ((توفي ببلنسية ــ و أنا حينئذ بثغر بطليوس ــ عند الظهر من يوم الثلاثاء الخامس لشهر ربيع الأول سنة(619)هــ ، و دفن لصلاة العصر من يوم الأربـــــــــعاء بعده))(3) .

---

(1)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 9 .
(2)- المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 10 .
(3)- ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، جــ 2 ، ص 891 .

أقام ابن الأبار في بلنسية بعد موت أبيه ملازما لشيخ الأندلس أبي الربيع سليمان الكلاعي ــ صديق أبيه ــ الذي عمل على إلحاقه كاتبا في بلاط حاكم بلنسية أبي عبد الله بن أبي حفص الموحدي ، ثم لدى ابنه أبي زيد عبد الرحمان .

غير أن إقامته لم تستمر طويلا ، فقد عاد للسفر و التجوال من جديد ، لكن هذه المرة لم تكن رحلته لطلب العلم ، بل كانت رحلة اضطرارية لدواعي السياســة و مشاكل الحكم و الإدارة ، و كانت وجهته بلاد النصارى ، و ذكر محقق الديوان متحدثا عن هذه الرحلة السياسية : ((و في سنة (626هــ/ 1228م) التجأ مع سيده المخلوع هذا إلى بلاد النصارى الاسبان (الأرغونيين))(1) .

و قد أشار ابن الأبار في شعره إلى رحلته هذه إلى بلاد النصارى مع حاكم بلنسية المخلوع ، محاولا تبرير ما فعل و التخفيف من جسامة ذلك الخطأ الذي ارتكبه في حق نفسه و وطنه حيث يقول :

قالوا: الخروج لأرض الروم منقصة فقلت: كلا و لكن صادها باء
إذا خرجت وفاء ثم عدت تــــــقى أثنت بفعلي عداتي و الأحباء
و كان لي في قريش أسوة و كفى مع النجاشي ترضاها الألبــاء (2) .

و بالرغم من العناية التي حظي بها ابن الأبار إلى جانب الحاكم الموحدي المخلوع عند الأرغونيين ، إلا أنه لم يستطع إخفاء مرارة مغامرته السياسية التي قادته إلى أعداء بلده و أمته ، لكنه سرعان ما استدرك الموقف و رجع إلى الأندلس، بعد أن تأكدت له خيانة الحاكم الموحدي أبي زيد الذي ارتد عن الإسلام و اعتنق المسيحية .

((فلم يلبث إلا قليلا حتى عاد إلى دار الإسلام حيث وجـــــــدناه في وادي آش(Guadix) في شوال سنة (626هــ/ أغشت 1229م) . و إثر ذلك اتجه نحو صديقه القديم أبي الحسين الخزرجي ... حاكم شاطبة (Jativa) من طــرف ابن

---

(1) – ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 10 .
(2)- المصدر نفسه : ص 55 .

هود و مدحه بقصيدتين فيهما تفاصيل جديدة عن حياته و عما تعرض له من النهب و السلب و هو في طريق العودة إلى بلاده المسلمة))[1] .

لقد انتفع ابن الأبار من مغامرته السياسية هذه الكثير ، و أضاف إلى رصيده الحياتي الثري تجارب جديدة ، كان لها أثرها العميق على مستقبل حياته ، فأصبح أكثر رصانة و رزانة ، و أشد حنكة و أقوى مراسا في مواجهة التحديات و تقدير عاقبة الأمور عما كان عليه من قبل .

و بعد إقامة ابن الأبار في شاطبة مدة لم تُعرف بالتحديد ، عاد من جديد إلى مسقط رأسه بلنسية التي غادرها من قبل ، نادما على ما بدر منه معتذرا للحاكم الجديد أبي جميل زيان بن مردنيش الذي أطاح بالحاكم السابق أبي زيد بن عبد الرحمان الموحدي ، و ((استقبله أبو جميل زيان بن مردنيش استقبالا حسنا إذ لم يتنكر لصداقته و عشرته القديمة في بلاط الحاكم الموحدي ، حيث كانا يعملان جنبا إلى جنب في خدمته))[2] .

استقر ابن الأبار في بلنسية إلى جانب حاكمها الجديد كاتبا له ، و مساعدا على تصريف شؤون الحكم و الإدارة ، و كان ذلك إيذانا بنهاية تجواله و رحلاته خلال المرحلة الأندلسية في حياته .

لم يلبث ابن الأبار إلا قليلا في بلنسية ، التي سرعان ما حاصرتها القوات الصليبية الغازية و ضيقت عليها الخناق ، فقد عاد ابن الأبار إلى حياة الترحال من جديد و اختاره حاكم بلنسية ليرأس وفد البيعة إلى الإمارة الحفصية في الشمال الإفريقي ، و طلب العون و المساعدة من سلطانها أبي زكريا الحفصي .

و يذكر ابن خلدون متحدثا عن وفد بلنسية بقيادة ابن الأبار قائلا : ((و لما دلف الطاغية إلى بلنسية و نازلها بعث زيان بوفد بلنسية و بيعتهم إلى الأمير أبـــي

---

(1)- المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 10 .
(2)- المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 10- 11 .

زكريا ، و كان فيهم ابن الأبار هذا الحافظ ، فحضر مجلس السلطان و أنشد قصيدته على روي السين يستصرخه))[1] .

لقد كانت هذه الرحلة الرسمية خارج حدود الأندلس ، فاتحة عهد جديد في حياة ابن الأبار ، فعرف كيف يستغلها و يستثمرها لصالحه ، فقد استشرف بعلمــه و بعد نظره مصير الأندلس المحتوم و ضياعها من أيدي المسلمين .

((و عندما وصل لتونس ألقى ابن الأبار بين يدي أبي زكريا قصيدته السينية المشهورة التي كان لها أكبر الصدى في الأندية الأدبية بتونس ، و اعتبرت نموذجا احتذاه بعض الشعراء المعاصرين هناك دون القدرة على النظم في مستواها))[2] .

و تعد هذه القصيدة من عيون شعره و غرر نظمه ، و مما جاء فيها قوله :

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلِ اللهِ أَنْدَلُـــــــــسَا   إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسَــا

وَ هَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا الْتَمَسَتْ   فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا [3]

لقد كانت هذه القصيدة فاتحة مدائح ابن الأبار في البلاط الحفصي ، وقد ضمنها صرخة استغاثة لمدينته بلنسية ، ((فهي من أبدع قصائد النجدة و الاستغاثة في الشعر العربي... صور فيها هذا الشاعر مأساة الأندلس بوهج بكائي و إن شئت جنائزي تفوق في حدة نبرته على بكائية الرنـــــدي و غيره ، مصورا في كل ذلك ما آل إليه أمر الأندلس و موجها صرخة الاستغاثة للأمير الحفصي))[4] .

لقد حققت رحلة ابن الأبار إلى تونس أهدافها المنتظرة ، فعلى المستوى السياسي و العسكري ، كان رد الأمير أبي زكريا سريعا و فوريا ، ((فاستجاب للنداء الملح و بعث بمعونة ضخمة من السلاح و المواد الغذائية ، إلا أن الحصار كان شديد الإحكام ، بحيث لم يدع فرصة للسفن التونسية للاقتراب من شاطئ بلنسية

---

(1)- ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ 6 ، ص 653 .
(2)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 11 .
(3)- المصدر نفسه : ص 395 .
(4)- عبد الله حمادي : دراسات في الأدب المغربي القديم ، دار البعث للطباعة و النشر قسنطينة ، ط 1 ، 1406هـ - 1986م ، ص 82 .

و الاتصال بالبلنسيين المحاصرين ، مما اضطرها إلى أن تفرغ شحنتها في ميناء دانية))[1] .

و من الناحية الشخصية فقد تمكن ابن الأبار من ربط علاقات وطيدة مع بعض الشخصيات الفاعلة في البلاط الحفصي ، بل مع السلطان الحفصي نفسه ، و كانت هذه العلاقة بمثابة التمهيد لإقامته بالإمارة الحفصية و استقراره بها فيما بعد .

((عاد ابن الأبار إلى بلنسية ، و لعله كان صحبة النجدة الحفصية و وجد إخوانه المحاصرين قد نفد صبرهم و عزموا على تسليم المدينة ، و اختاره الأمير زيان ليكون نائبه في مفاوضات التسليم ، و ليوقع وثيقة الهزيمة و تسليم البلد للأرغونيين ، و ذلك في (17 صفر 636هـ / 28 سبتمبر 1238م)))[2] .

استمرت رحلات ابن الأبار ذهابا و جيئة بين حاضرة الدولة الحفصية و المدن الأندلسية المتساقطة ـ دانية ثم مرسية و قبلهما بلنسية ـ طلبا للنجدة و سفيرا لهذه المدن التي أحدق بها الأعداء و أحاطوها من كل جانب ، و بعد أن تأكد من عدم جدوى مساعيه في طلب العون و الاستغاثة للمدن الأندلسية المحاصرة، و أنها لا محالة صائرة إلى أيدي الأعداء ، قرر مغادرة الأندلس و الإقامة بصفة دائمة بالإمارة الحفصية .

((و كأن ابن الأبار قد أدرك بعد سقوط بلنسية أن الغزاة سيواصلون هجماتهم على المدن الإسلامية الباقية في الأندلس واحدة إثر أخرى ، فعزم على الهجرة بأسرته إلى تونس ، لاجئا إلى حمى السلطان الحفصي الذي لقي منه خلال سفارته السابقة لديه كل رعاية و تكريم ، و كذلك غادر ابن الأبار في أواخر صفر من عام (636هـ) أرض الأندلس إلى غير رجعة))[3] .

---

(1)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 11 .
(2)- المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 11 .
(3)- محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا القدماء و المحدثون ، ص 322 .

لقد كانت هذه الرحلة آخر عهد ابن الأبار بالأندلس ، التي بكاها في شعـــره و تحصر على ضياعها ، و بقي دائم الحنين إليها شديد الشوق إلى مرابعها كثير الوصف لمناظرها .

((و اتجه أولا إلى بجاية التي كانت المرسى الرئيسي الذي يكون صلة الوصل بين شرقي الأندلس و المغرب الأوسط و الأدنى ، و هناك استقبله أبو يحيى بن أبي زكرياء و ولي عهده ، و مدحه بقصيدة بكى فيها وطنه و وصف مأساة أمته و كارثته و ضياعه))(1) .

لقد وجد ابن الأبار في بجاية كرم الضيافة و حفاوة الاستقبال من طرف أهلها عامة و حاكمها ــ ولي العهد الحفصي ــ خاصة ، الأمر الذي جعله يقيم بها مدة ، فقد كانت منارة للعلم و مقصدا للعلماء و المثقفين .

((لم يقم كثيرا في بجاية التي وجد لدى أميرها كل إكرام و ترحيب إذ كانت تونس هدفه ، فوصل إليها و هو لا يزال مثخنا بجراح النكبة و مثقلا بهموم الغربة و ممزقا بإحساس الجلاء و النفي ، و صحبته زوجة مكلومة و بنات هدهــن الحزن و الأسى لا تنطق إلا بالدموع السوافح . لكن الأمير خفف من مأساته و عالج جراحاته بما أغدق عليه من نعم و أولاه من كرم))(2) .

حظي ابن الأبار في البلاط الحفصي بالتقدير و الإجلال ، و أحيط بعناية السلطان أبي زكريا الذي كان شديد الحرص على تقريب العلماء و الشعراء من بلاطه ؛ كيف لا و هو نفسه شاعر مفلق و عالم نحرير .

و قد تبوأ ابن الأبار في البلاط الحفصي المكانة التي يستحق ، بفضل مواهبه الجمة و مهاراته الإدارية التي اكتسبها خلال عمله لدى الحكام الأندلسيين من قبل .

---

(1)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 12 .
(2)- المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 12 .

استمر ابن الأبار في خدمة السلطان الحفصي أبي زكريا مدة ، غير أن ذلك لم يدم طويلا ، فسرعان ما تمكن بعض حساده و منافسيه من إيغار نفس السلطان عليه فأمر بعزله من منصبه ، فرحل من جديد إلى بجاية منفيا .

((و في آخر صفر سنة(646هـ) نجده في بجاية منفيا متألما ، يستعطف ولي العهد أن يشفع له عند الأمير فيؤلف كتابه « إعتاب الكتاب » ليخفف من غلواء الأمير و غضبه و يستدر حلمه و عطفه ... و في رمضان أو شوال سنة (646هـ) / دجمبر أو يناير سنة(1248م - 1249م) كانت بشائر العفو تملأ جوانحه و بيته فرحا و سرورا))[1] .

و رجع ابن الأبار من جديد إلى تونس ليستأنف عمله في البلاط الحفصي كاتبا ، و بقي هناك يزاول مهنته إلى أن توفي السلطان أبو زكريا الحفصي ، و خلفه ولده و ولي عهده المستنصر الذي أبقى ابن الأبار في منصبه بالبلاط .

غير أن الرحلة كانت قدر ابن الأبار الذي لا مهرب له منه ، فلم يلبث إلا قليلا في منصبه حتى تعرض للنفي و الإبعاد من جديد ، بسبب نفسيته الصعبة و تآمر حساده عليه ، فقد رحل منفيا إلى بجاية مرة أخرى ، و بقي بها فترة أطول من ذي قبل ، حيث تفرغ للتأليف و التدريس ، و ((لم نستطع تحديد تاريخ النفي ، و لكننا على يقين أن ابن الأبار كان في بجاية للمرة الثالثة في رمضان سنة (650هـ / نوفمبر 1252م) ، و قد أتاحت له إقامته الجديدة بهده المدينة أن يقوم بنشاط علمي أخذا و عطاء و تدوينا و تأليفا ، امتدت به هذه الإقامة بالتحقيق سبع سنوات من سنة (650 ـ 657هـ) ، و إن كنا نظن أنها أكثر بقليل))[2] .

لقد تخلص ابن الأبار في مدينة بجاية ، من أرجاس السياسة و متاعب الإدارة و أجواء التنافس و الصراع داخل البلاط ، و تفرغ بهذه المدينة للنشاط العلمي الخالص ، بتردده على دور العلم و الثقافة بها للتدريس ، و التف حوله جمع

---

(1)- المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 13 .
(2)- المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 13 .

غفير من طلبة العلم يأخذون عنه مختلف العلوم و الفنون ، كما أقبل على التأليف و التصنيف ، و كانت رحلته القصرية هذه إلى بجاية من أخصب فترات حياته العلمية ، و رب محنة في طياتها منحة .

و من الراجح أن يكون ابن الأبار قد حاول خلال فترة النفي هذه الاتصال من جديد بالبلاط ، في محاولة لاستعادة مكانته الضائعة و إعادة بناء الثقة بينه و بين الأمير الحفصي ، وذلك بالنظر إلى طموحه السياسي الكبير الذي ميزه مند الفترة الأندلسية في حياته ، و توجت اتصالاته بالنجاح فقد استدعاه المستنصر الحفصي إلى بلاطه مرة أخرى .

((ثم رضي عنه و استقدمه و رجعه إلى مكانه من المجلس))(1) .

و كان من عادة ابن الأبار الهجرة و الترحال فعاد إلى تونس ، غير أنه لم يجد من الحفصيين ما كان ألفه منهم في سابق عهده بهم من التكريم ، فقد سعى خصومه للإيقاع به من جديد ، لعلمه و ذكائه و مواهبه التي لا يستطيع منافسوه أن يجاروه فيها ، و لذلك لم يمهلوه هذه المرة طويلا ، و لم يروا سبيلا للتخلص منه غير القتل و التنكيل ليخلو لهم وجه الأمير .

لقد كانت رحلة عودة ابن الأبار من بجاية ، نهاية رحلاته و خاتمة مطافه و تجواله فقد أدمن الرحلة مند سن مبكرة .

و تعد الرحلة عنصرا تكوينيا لازما و حيويا في حياة الشخصيات العلمية مند القديم ، و لم يشذ ابن الأبار القضاعي عن هذه القاعدة ، بل كان التنقل و الترحال قدره الذي لم يفارقه مند شبابه الباكر ، و كانت رحلاته إما لطلب العلم أو لدواعي السياسة التي ابتلي بها فأورثته الهم و الغم و الحسرة و قادته إلى الهلاك .

---

(1)- ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ 6 ، ص 654 .

6- أخـــلاقه :

تميز ابن الأبار القضاعي بصفات و أخلاق ، كان لها أثرها الظاهر على مسيرة حياته بمختلف نواحيها سلبا و إيجابا ، و طبعت علاقاته بمعاصريه ، وبلورت أفكاره و قناعاته ، و شكلت جزء من شخصيته و أسلوب حياته .

فقد تميز مند نعومة أظفاره بالذكاء الحاد و الفطنة العالية ، و لا أدل على ذلـــك من حصوله على بعض اجازات العلماء و هو في مرحلة الطفولة كما سبقت الإشارة .

و بالإضافة إلى الذكاء و الفطنة ، فقد اتصف بالجد و المثابرة في تحصيل الأعمال و تحقيق الأهداف ، وقد أكد محقق الديوان هذه الصفة بقوله : ((عرف ابن الأبار بالجد و المثابرة و البحث و الاستقصاء))(1) .

كما تميز ابن الأبار خلال مسيرة تعلمه و دراسته بالبساطة و التواضـــــع ، و تحدث بعض من ترجموا له أنه كان يستفيد من الجميع حتى ممن هم أقل منه علما و منزلة : ((و لم يكن يستنكف عن الاستفادة ممن هم أقل منه علـــــــــما و مكانة))(2).

و تعد هذه الصفات مجتمعة ـــ الذكاء و الفطنة ، الجد و المثابرة ، البساطة و التواضع ـــ المقومات الأساسية و الشروط الضرورية الواجب توفرها في طالب العلم الجاد في طلبه الساعي إلى تحصيله .

و لعل المكانة العلمية الكبيرة التي بلغها ، و الأشواط الدراسية الموفقة التي قطعها ، و المؤلفات الكثيرة التي تركها ، قادرة على أن تشكل قرائن و أدلة كافية للاستئناس بها في إثبات هذه الصفات السابق ذكرها .

و قد ساهمت هذه الصفات التي تمتع بها ابن الأبار ، في تكوينه العلمي مساهمة كبرى ، و كان لها أثرها البعيد في حياته بمختلف جوانبها ، فقد تمكن من

---

(1)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 9 .
(2)- المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 10 .

تحقيق طموحاته العلمية و السياسية و الاجتماعية ، فأصبح من الشخصيات البارزة في عصره و من دوي الحل و العقد* ، وتقوم المناصب العلمية و السياسية التي شغلها بالأندلس و بلاد المغرب ، شاهدا على مقدار النجاح الذي تحقق له بفضل هذه الصفات .

و إلى جانب هذه الخلال الحميدة و الأخلاق الحسنة التي رفعت ابن الأبار درجات في سلم المجد و الفضيلة ، فقد كان يتصف إلى جانب ذلك بصفات و أخلاق مستقبحة ، نزلت به دركات و أزرت بمكانته ، بل لقد قادته إلى الهلاك .

و تحدث بعض من ترجم لابن الأبار عن الصفات السلبية في شخصيته ، و التي عرضته للمؤاخذة و التوبيخ و العزل من المناصب التي شغلها في الكثير من المناسبات ، ومن هذه الصفات : الكِبَرُ و الافتقار لروح التواضع ــ عكس ما عُرِفَ عنه خلال مرحلة تعليمه ــ و الأنفة و الغلو في العزة بالنفس التي ينفر منها الحكام ، و ((كانت تعتريه حدة ، يسميها بعضهم بأوا ، يبعثها شعور بالعـــــزة و التفوق ، أفسدت ما بينه و بين أبي زكريا فعزله من منصبه))[(1)] .

لقد جلب ابن الأبار على نفسه غضب السلطان الحفصي ، أبي زكريا الذي كان له الفضل في تقريبه منه و تعيينه كاتبا في بلاطه ، فقابل ذلك الإحسان بالإساءة ، و ما كان ذلك ليحدث لولا نفسيته المتقلبة و مزاجه الحاد الذي أفسد عليه حياته و علاقاته .

و لم يتعظ ابن الأبار من العقاب الذي لحقه ، و لم يحفظ الدرس الذي تلقاه ، فقد تكررت هفواته بسبب هذه الصفات السلبية التي لم يستطع أن يتخلص منها ، الأمر الذي يدفع بقوة إلى القول ، إن هذه الصفات مستحكمة في طبعه و ليست مكتسبة أو عارضة في حياته ، فقد أعاد الموقف نفسه مع الأمير الحفصي الجديد ،

---

*- هم أصحاب الرأي و المشورة و الفضل ، خاصة في جلائل الأمور وعظائم الشؤون ، و يتشكلون من العلماء و القادة و ذوي الجاه و السلطان ... أو هم (النخبة) بالمفهوم السياسي الحديث و المعاصر .

(1)- المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 12- 13 .

((فكان يزري على المستنصر في مباحثه و يستقصره في مداركه ، فخشن له صدره مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الأندلس و ولاتها عليه))[1] .

و كانت العقوبة هذه المرة شديدة ، فقد عزل من منصبه بالبلاط و نفي إلى بجاية التي قضى بها سنوات عديدة ، و بقي أثر جريرته يلاحقه حتى بعد أن عاد إلى تونس بدعوة من السلطان .

إن الاسترسال في الحديث عن أخلاق ابن الأبار السلبية منها و الايجابية ، ليس القصد منها الإحصاء و التتبع ، بل يكفي إثبات بعضا منها بالقدر الذي يجعلها قادرة على النهوض لتشكل دليلا كافيا على شخصيته و مدى تأثيرها في مسار حياته إيجابا و سلبا .

---

(1)- ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ 6 ، ص 653 .

7- مكانته بين أهل عصره:

حظي ابن الأبار القضاعي بمكانة مرموقة و منزلة عالية طيلة حياته بمحطتيها الأندلسية و المغربية ، كيف لا و هو الشاعر المفلق و العالم النحرير ؟

و رغم جو التنافس الحاد الذي كان سائدا بين العلماء و الأدباء ، حيث وصل في مناسبات كثيرة إلى درجة الخصومة و الصراع ، إلا أن ذلك لم يحط من مكانة ابن الأبار و لم يزحزحه عنها ، فقد ظل معاصروه يجلونه و يعرفون له قدره .

و يذكر المقري قائلا : ((و قال في حقه ابن سعيد في المغرب ما ملخصه : حامل راية الإحسان ، المشار إليه في هذا الأوان))(1) .

فهذا اعتراف ضمني من ابن سعيد ــ أحد معاصري ابن الأبار ــ فيه إقرار بالمكانة التي وصلها ، و أسبقيته في العلم و الأدب ، ذلك أن حامل الراية يكون عادة أمام القافلة يقودها نحو غايتها النبيلة و هدفها المنشود .

و ينقل المقري عن ابن سعيد شهادة أخرى تؤكد ما ذكره من قبل ، حيث يقول: ((قال ابن سعيد في القدح المعلى في حقه : كاتب مشهور و شاعر مذكور ، كتب عن ولاة بلنسية ، و ورد رسولا حين أخذ النصارى بمخنق تلك الجـــــهات ، و أنشد قصيدته السينية :

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلِ اللهِ أَنْدَلُسَا   إِنَّ السَّبِيلَ إِلىَ مَنْجَاتِهَا دَرَسَــا

و عارضه جمع من الشعراء ما بين مخطئ و محروم ، و أغري الناس بحفظها إغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم*))(2) .

---

(1)- المقري : نفح الطيب ، جــ 2 ، ص 591 .

*- هي قصيدة الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم التغلبي قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة ، و تعد هذه القصيدة من المعلقات السبع ، و قد شغف بحفظها و روايتها قومه ، فقال أحد شعراء خصومهم من بني بكر يهجوهم بانشغالهم بها عن المكارم : **أَلْهَى بَنِي تَغْلِبَ عَنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ   قَصِيدَةٌ قَالَهَا عَمْرُو بْنُ كَلْثُومِ**
يُفَاخِرُونَ بِهَا مُذْ كَانَ أَوَّلُــهُمْ   يَا لَلرجَالِ لِفَخْرٍ غَيْرَ مَسْؤُومِ . للمزيد ينظــر/ ابن قتيبة : الشعر و الشعراء ، تحقيق و شرح/ أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، 1426هــ/ 2006م ، جــ 1 ، ص 228-230

(2)- المقري : نفح الطيب ، جــ 4 ، ص 432 .

و على غرار ما قاله ابن سعيد المغربي في حق ابن الأبار ، فقد إعترف له بالفضل جمع غفير من أعلام عصره و أنزلوه المكانة اللائقة به .

كما اعترف له ابن عبد الملك المراكشي بالفضل و سعة العلم و حصافة العقل فقال : ((و كان آخر رجال الأندلس براعة و إتقانا ، و توسعا في المعارف و افتنانا ، محدثا مكثرا ، و ضابطا ، عدلا ، ثقة ، ناقدا ، يقظا ، ذاكرا للتواريخ على تباين أغراضها ، مستبحرا في علوم اللسان نحوا و لغة و أدبا ، كاتبا بليغا ، شاعرا مفلقا مُجيدا . عني بالتأليف و بحث فيه و أعين عليه بوفور مادته و حسن التهدي إلى سلوك جادته و صنف فيما كان ينتحله مصنفات برز في إجادتها ، و أعجز عن الوفاء بشكر إفادتها))(1) .

و على النقيض من ذلك ، فقد وُجِدَ من الأعلام و الشخصيات من ذهب إلى الناحية السلبية من مكانة ابن الأبار ، و وجه نقدا لاذعا له ، و أحصى نقائصه و عدد مثالبه .

فقد ذكر المقري قائلا : ((و كان أعداؤه يلقبونه بالفار ، و حصلت بينه و بين أبي الحسن علي بن شلبون المعافري مهاجاة ، فقال فيه :

لا تعجبوا لمضرة نالت جميـ ع الناس صادرة عن الأبـار
أو ليس فارا خلقة و خليقة و الفار مجبول على الإضرار

فأجابه ابن الأبار :

قل لابن شلبون مقال تنزه غيري يجاريك الهجاء فجار
إنا اقتسمنا خطتينا بيننا فحملتُ برة و احتملتَ فجار (2) .

لقد كان ابن شلبون شديد التحامل على ابن الأبار ، إذ وجه له هجاء مقذعا تأباه الأخلاق الفاضلة و تنفر منه الفطرة السليمة ، حيث تجاوز فيه الهجاء بالصفات النفسية ــ على عادة العرب في الهجاء ــ إلى التعبير بالصفات الحسية ، مما

(1)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 17 .
(2)- المقري : نفح الطيب ، جــ 2 ، ص 593 .

يكشف مقدار الحسد و الحقد الذي يكنه له ، و مبلغ المنزلة العلمية العالية التي حققها ابن الأبار ؛ فكل ذي نعمة محسود .

غير أن ابن الأبار كان رصينا في رده على ابن شلبون ، مترفعا عن مجاراته في هجائه ، فهو يعرف قدر نفسه و مكانته حق المعرفة ، و يدرك أن التعاليم الإسلامية قد نهت عن هذا المسلك من القول ، و قبحت الاتجاه إليه .

و قد قيل : ما إن تتكاثر مواهب الله على شخص ، حتى ترى كل منقوص يطوي جوانحه عن غضب مكتوم و يود زوال النعمة و انطفاء العظمة .

و تقوم الوظائف السامية التي تبوأها ابن الأبار في الأندلس و في الإمارة الحفصية ، دليلا آخر على مقدار المكانة التي حظي بها في حياته ، و من تلك الوظائف :((كتب عن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص ابن عبد المؤمن ببلنسية ، ثم عن ابنه السيد أبي زيد))[1] .

و بعد عودة ابن الأبار من مغامرته السياسية التي قادته إلى بلاد النصارى ، فقد التحق كاتبا في بلاط الأمير أبي جميل زيان بن مردنيش ، فقد ذكر محقق الديوان : ((فألحقه زيان بحكومته و عينه وزيره في تلك الظروف الحرجة الخطيرة و اختاره ليرأس وفد البيعة و طلب الغوث و النجدة من تونس الحفصية))[2] .

كما عمل ابن الأبار بالقضاء خلال فترة حياته الأندلسية ، حيث عين قاضيا في بعض المدن : ((و تولى قضاء دانية (632هـ / 1235م) لفترة قصيرة))[3] .

كما كان سفيرا عن بعض المدن الأندلسية إلى الإمارة الحفصية للبيعة و طلب الغوث و النجدة ...

(1)- ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ 6 ، ص 653 .
(2)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 11 .
(3)- داود عمر سلامة عبيدات : الموحدون في الأندلس ، ص 249 .

فكل هذه الوظائف التي شغلها في الأندلس ، و المهام التي كُلفَ بأدائها ، تعد تعبيرا صادقا على المكانة العالية التي احتلها عن جدارة و استحقاق بالأندلس .

و بعد سقوط بلنسية و بعض المدن القريبة منها ، خرج ابن الأبار قاصدا الإمارة الحفصية ، و قد وجد بها كل الرعاية و الترحيب ، فقد أنزله حاكمها أبو زكريا الحفصي المكانة اللائقة به ، و أفسح له أبواب بلاطه ثم عينه ــ لاحقاــ كاتبا لديه ، ((و عندما توفي أبو عبد الله البجائي المعروف بابن الجــــلاء سنــــــــــة (638هــ/ 1241م) صاحب العلامة في بلاط أبي زكرياء ، أسندت هذه المهمة إلى ابن الأبار الكاتب المنشئ البارع ، و استطاع أن يصل إلى مكانة مرموقة لدى الأمير الذي أصبح ابن الأبار ركنا من أركان دولة الشعر في حكمه ، و حلاه بفخر قضاعة في بعض الأبيات من نظمه))(1) .

و وجد ابن الأبار من الأمير المستنصر العناية نفسها التي و جدها من سلفه ، فقد ألحقه ببلاطه و رفع مكانته ، و يشير ابن خلدون إلى ذلك بقوله: ((و لما هلك الأمير أبو زكريا رفعه المستنصر إلى حضور مجلسه مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس و أهل تونس))(2) .

لقد تسلق ابن الأبار سلم المجد و السؤدد بالإمارة الحفصية في وقت قصير ، و أصبح من جلساء الأمير و بطانته و مستشاريه ، وذلك بفضل مواهبه الجمــــــــة و علمه الغزير .

غير أن هذه المكانة التي بلغها لم تستمر طويلا ، و ذلك لنفسيته المتقلبـــــــة و أخلاقه الصعبة ، فقد جلب على نفسه العقاب ، فبالرغم الحفاوة التي تلــــــــــقاها و التقدير ناله في البلاط الحفصي ، ((إلا أن أخلاقه لم تعنه على الوفاء بأســــباب

---

(1)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 12 .
(2)- ابن خلدون : كتاب العبر ، جــ 6 ، ص 654 .

الخدمة ، فقلصت عنه تلك النعمة ، و أخر عن تلك العناية ، و ارتحل إلى بجايـــة ، و هو الآن بها عاطل عن الرتب خال من حلى الأدب))[1] .

لقد عرفت مكانة ابن الأبار تراجعا واضحا عما كانت عليه من قبل ، بعد عودته الأخيرة من بجاية إلى بلاط المستنصر الحفصي ، و أضحى الأمير لا يكلمه و لا ينظر إليه إذا حضر مجلسه ، و قد عبر ابن الأبار عن اهتزاز مكانته في البلاط ، و اشتكى من التجاهل الذي يتلقاه من الخليفة نفسه ، و من ذلك قوله :

أمري عجيب في الأمــور بين التواري و الظهور
مستعمل عند المغيــــــب و مهمل عند الحضــور[2]

((و سبب هذا أن ملك تونس كان إذا أشكل عليه شيء أو ورد عليه لغـــــز أو معمى أم مترجم بعث به إليه فيحله ، و إذا حضر عنده لا يكلمه و لا يلتفـــــت إليه))[3] .

و مهما يكن من أمر ، فإن الشيء الثابت أن ابن الأبار قد تمتع بمكانة عالية ، و احترام كبير بين معاصريه سواء كان ذلك بالأندلس أو بلاد المغرب ، نتيجة مواهبه الكثيرة و علمه الغزير و كفاءته و خبرته في تصريف الأعمال الإدارية و السياسية التي كلف بها ، رغم الهفوات التي وقع فيها و سببت له بعض المتاعب خلال حياته .

---

(1)- المقري : نفح الطيب ، جـــ 4 ، ص 433 .
(2)- ابن الأبار : الديوان ، ص 445 .
(3)- المقري : نفح الطيب ، جـــ 2 ، ص 592 – 593 .

8- وفاتـــــه :

لم تختلف المصادر التي ترجمت لابن الأبار القضاعي حول تاريخ وفاته ، إذ اتفقت جلها أن وفاته كانت بتونس في يوم الثلاثاء 21 محرم سنة(658هــ/6/ جانفي(1260م) ، فقد ذكر الغبريني عن ذلك : ((توفي رحمه الله بتونس ضحوة يوم الثلاثاء الموفي عشرين لمحرم عام ثمانية و خمسين و ستمائة))[1] .

و سار في الإتجاه ذاته ابن قنفذ مع ذكر التاريخ نفسه بقوله : ((و في سنة ثمان و خمسين و ستمائة توفي شهيدا بتونس الفقيه المحصّل الكاتب المحدّث الكامل أبو عبد الله محمد بن الأبار البلنسي))[2] .

و على غرار ما جاء في هذين المصدرين حول تاريخ وفاة ابن الأبار ، سارت بقية المصادر الأخرى ، غير أن الملفت للانتباه هو أن الغبريني يكتفي بذكر تاريخ الوفاة فقط دون الإشارة إلى حادثة مقتل ابن الأبار و لا إلى المـــــــــلابسات و الأسباب التي دفعت إليها ، على خلاف بقية المصادر التي ذكرت أن ابن الأبار قد قتل من طرف المستنصر الحفصي و وصفته بالشهيد ، و ذكرت جملة من الأسباب و الدوافع التي أدت إلى مقتله .

و تحدث ابن خلدون عن وفاته ، و ساق العديد من الأسباب التي أدت إلى مقتله إذ قال : ((و عاد هو إلى مساءة السلطان بنزعاته إلى أن جرى في بعض الأيام ذكر مولد الواثق ، و ساءل عنه السلطان فاستبهم فعدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة و طالعها ، فاتهم بتوقع المكروه للدولة و التربص بها كما كان أعداؤه يشنعون عليه ، لما كان ينظر في النجوم فتقبض عليه ، و بعث السلطان إلى داره فرفعت إليه كتبه أجمع ، و ألقى أثناءها فيما زعموا رقعة بأبيات أولها :

طغَى بِتُونسَ خِلْفٌ   سَمُّوهُ ظُلْمًا خَلِيفَة

---

(1)- الغبريني : عنوان الدراية ، ص 313 .
(2)- ابن قنفذ : الوفيات : ص 324 .

فاستشاط لها السلطان و أمر بامتحانه ثم بقتله قعصا بالرماح وسط محرم من سنة ثمان و خمسين ، ثم أحرق شلوه و سيقت مجلدات كتبه و أوراق سماعه و دواوينه فأحرقت معه))[1] .

كما أحصى بعض من ترجموا له جملة من الأسباب أدت إلى مقتله منها :

((1- أنه ألف كتابا في التاريخ خاض فيه بما لا يرضي الأمير .

2- اتهامه بتوقع المكروه للدولة ، بسبب اطلاع الأمير على بطاقة تبين ساعة المولد و الطالع لولده ، و كان هذا الطالع شؤما كما يبدو .

3-توقع شق العصا و الخروج على الأمير .

4- ما نمي للأمير من أنه ينتقصه ، و قد تكون هذه التهمة معقولة ، و لكن المحقق أنه كان محسودا لأدبه و وفرة علمه و توقد ذكائه و شدة طموحه ، و قد ساعد أعداؤه و حساده على نجاح المؤامرة و الدس ؛ اعتزازه بنفسه و اعتداده بعلمه و حدة ما كانت تفارقه))[2] .

و يمكن التماس أسبابا أخرى تقف وراء مقتل الشاعر و التنكيل بجثته و إتلاف مجموع مؤلفاته من طرف البلاط الحفصي منها : السبب العرقي ، فالعناصر العربية النازحة من الأندلس قد استقرت ببلاد المغرب التي كانت تحكمها أسر بربرية ــ الحفصيون ، الزيانيون ، المرينيون ــ وكانت كل هذه الإمارات البربرية في مرحلة التأسيس ، الأمر الذي جعل حكامها الأوائل على درجة عالية من الحساسية السياسية تجاه العناصر النازحة ، و التي قد تمتد أطماعهم إلى مزاحمة هذه الدول على الحكم ، فقد تميزت مرحلة التأسيس بالصرامة و عدم التسامح و الضرب بيد من حديد لكل من يُتوقع منه الخروج و شق عصا الطاعة .

و كان شعور الأندلسيين النازحين بالتفوق العرقي و العلمي ، و أنهم أولى بالحكم من بقية العناصر التي لا ترتقي ــ حسبهم ــ لنيل شرف السيادة و القيادة

---

(1)- ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ 6 ، ص 654- 655 .

(2)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 14- 15 .

فهم مجرد موالي ، فقد دفع هذا الإحساس الحكام الحفصيين إلى الشك في ولاء الأندلسيين ، و رأوا فيهم خطرا يتهدد إمارتهم .

كما لا يمكن إغفال السبب المذهبي ، فقد تكون تهمة التشيع التي حاول البعض إلصاقها به ، وكانت حجتهم إليها كتابه الذي ألفه بالأندلس في رثاء و تمجيد آل البيت ممثلين في شخص الحسين بن علي (رضي الله عنهما) و المعنون بمعدن اللجين في مراثي الحسين ، سببا آخر أدى مع بقية الأسباب إلى مقتله ، إذ كانت بلاد المغرب سنية على مذهب مالك ، و غني عن البيان الصراع الحاد الذي كان سائدا بين السنة و الشيعة مند القديم في كامل البلاد الإسلامية .

و مهما يكن من شأن هذه التهم ــ صحيحة هي أم باطلة ــ فإن ذلك لا يبرر إقدام البلاط الحفصي على قتل العلماء و التنكيل بهم ، و يزداد الأمر غرابة إذا علمنا أن الحكام الحفصيين قد عُرفوا برعايتهم للعلم و إكرامهم للعلماء و العمل على تقريبهم من بلاطهم طيلة فترة حكمهم .

كل هذه المعطيات تدفع بقوة إلى الإقرار في أن ابن الأبار قد وقع ضحية مؤامرة حيكت حوله بإحكام ، و تحالفت ضده أطراف عملت في السر و العلانية على التخلص منه ؛ لأنه يشكل تهديدا لمصالحها بالبلاط الحفصي لما يتوفر عليه من علم و حصافة و ثقة ، و لم تدخر هذه الأطراف جهدا في سبيل تحقيق غايتها المنشودة ، فراحت تجمع ضده التهم و تستثمر الفرص و المناسبات للإيقاع بـــه ، و قد تحقق لها ما أرادت ، فكانت نهايته نهاية مأساوية .

و مهما يكن من أمر ، فقد نقل التاريخ : أن حاكما مستبدا قد قتل عالما نحريرا و نكّل بجثته تنكيلا شنيعا ، و أحرق كل مؤلفاته محاولا طمس كل أثر لهذا العالم و حرمان الأجيال اللاحقة من الاستفادة من علمه و الاستزادة من أدبه ، ولكن هيهات أن يحقق الاستبداد السياسي أهدافه و مراميه ، فقد تناقل تلامذة ابن الأبار كتبه و نسخوها قبل أن تطالها يد الطمس و الإتلاف ، و حفظوا بذلك للأجيال حقهم في الاستفادة من خلاصة تجارب هذا العالم الأديب و عصارة فكره و سحر بيانه .

ب - آثاره الأدبية و العلمية :

1 - تلامذته :

التف حول ابن الأبار القضاعي جمع غفير من الطلبة يأخذون عنه مختلف العلوم و الفنون ، و قصد حلقاته الكثير من أبناء الأندلس و بلاد المغرب ، و كانت حياته العلمية خلال إقامته بالإمارة الحفصية حافلة و ثرية ، فقد تصدر للتدريس ببعض الحواضر و مراكز الثقافة بهذه الإمارة ، و خاصة مدينة بجاية التي أقام بها فترة طويلة من حياته ، إذ كانت بجاية منارة ثقافية بلغ صداها المغرب و المشرق .

((و رحل إلى العدوة و استوطن بجاية ، و درّس بها و اقرأ و روى و اسمع و صنف و ألف ، و هو ممن لا ينكر فضله ، و لا يجهل نبله))[(1)] .

و قد اشتهر الكثير من تلامذته الذين كان لهم شرف الانتساب إليه ، و ذكر بعضهم في تضاعيف مؤلفاته ، كما أشارت العديد من كتب التراجم و التاريخ إلى أنجب طلبته و ترجمت لهم ، و من بين هؤلاء التلامذة نذكر :

- **أبو بكر بن سيد الناس** (محمد بن أحمد بن عبد الله اليعمري الإشبيلي) ، ولد في صدر محرم(597هـ) و توفي في 23 جمادى الآخرة سنة(659هـ)[(2)] .

- ((**أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم التجاني**(ت 660هـ) :

و هو من أخلص تلامذته المتحمسين له و المعجبين به ، و كانت أسرته تحتل بتونس الحفصية مكانة مرموقة في الإدارة و العلم ، و كان ذا حظوة في بلاط أبي زكريا . و عندما وفد ابن الأبار مستصرخا الأمير الحفصي ، و ألقى بين يديه قصيدته السينية ، انتقدها جماعة ممن حسدوه على المكانة الشخصية التي بلغها بها لدى الأمير ، فانبرى لهم أبو إسحاق و غيره منتصرا لابن الأبار ، فألف لذلك « مؤازرة الوافد و مبارزة الناقد في الانتصار لابن الأبار »))[(3)] .

---

(1)- الغبريني : عنوان الدراية ، ص 311 .
(2)- بتصرف / ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 16 .
(3)- المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 16- 17 .

- **أبو الحسن عيسى بن لب بن ديسم(615 - 686هـ)**: و كان من أنجب تلامذته ، كما شاركه في الأخذ عن بعض علماء بلنسية و الأندلس عموما أمثال : أبي الربيع سليمان بن سالم الكلاعي ، و كان متزوجا من إحدى بنات ابن الأبار[1] .

-**((أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد الكناني الشاطبي(614- 699هـ)**: و هو من علماء الأندلس الذين قاموا بنشاط علمي كبير في بجاية ، حيث انتفع بعلمه خلق كثير ، و قد لقيه العبدري صاحب الرحلة و قرأ عليه كتاب ابن الأبار: « درر السمط في أخبار السبط » و أجازه فيه))[2].

- **((أبو عبد الله محمد بن حيان الشاطبي الحافظ (635- 718هـ)**: و هو من الشخصيات الأندلسية التي هاجرت إلى تونس ، و يعد من أهم الذين اتصلوا بابن الأبار ، لقيه ابن رشيد بتونس و حدثنا عنه و عن علاقته العلمية به في صفحات عديدة من رحلته ، و ذلك في ربيع الأول سنة (684هـ)))[3] .

لقد كانت إقامة ابن الأبار الأخيرة بمدينة بجاية ، و التي امتدت على مدى سبع سنوات خصبة و ثرية من الناحية العلمية ؛ إذ مكنته من التخلص من أرجاس السياسة و مشاكل الحكم و الإدارة بالبلاط الحفصي ، الذي كان مسرحا للتنافس بين نزلائه و مرتاديه ، و بؤرة للمكائد و الدسائس و المؤامرات التي طالما اكتوى ابن الأبار بنارها ، فقد مكنته هذه المدينة بأجوائها الثقافية الخالصة من استئناف نشاطه العلمي تدريسا و تدوينا ، فتخرج على يديه ثلة من طلبة العلم و المعرفة ، و الذين كان لهم الفضل في الحفاظ على ما أبدعته قريحته في مختلف العلوم و الفنـــون ، و العمل على نشرها بأغلب ربوع بلاد الإسلام .

---

(1)- بتصرف/ المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 15- 16 .
(2)- المصدر نفسه ، (مقدمة التحقيق) ، ص 16 .
(3)- المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، الصفحة نفسها .

2- مؤلفاته :

اشتهر ابن الأبار القضاعي بغزارة التأليف و جودة التصنيف ، فقد ألف ما يزيد عن الخمسين كتابا في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية : التاريخ ، الفقه ، الحديث ، سير و تراجم الأعلام ، الأدب نثرا و نظما ، اللغة ...

و تميزت حياته العلمية بالتنوع و الثراء و الموسوعية ، فقد ترك تراثا علميا و أدبيا زاخرا لا تزال الأجيال تنهل منه و تغترف من معينه الذي لا ينضب ، ((فابن الأبار كان شيخ القرن السابع بعد أستاذه الكلاعي ، و قد أتاحت له ثقافته الواسعة و اطلاعه الشامل و طلبه الحثيث أن يخلف لنا إنتاجا ضخما رغم أعباء الإدارة و مشاكل السياسة و مآسي الاضطرابات و الهجرة و الجلاء ، و تربو مؤلفاته على الخمسين كتابا))[1] .

و أشار الغبريني إلى غزارة علم ابن الأبار و كثرة مؤلفاته و كتبه فقال : ((و لا يكاد كتاب من الكتب الموضوعة في الإسلام إلا و له فيه رواية ، إما بعموم أو بخصوص))[2] .

و قد تحدث بعض الدارسين طويلا عن الرصيد العلمي و الأدبي الكبير الذي أنتجته قريحة ابن الأبار الفذة و أبدعه خياله الخصب ، و عكس من خلاله بجلاء روح عصره و الأحداث التي عاشها ، فقد كان شاهدا على القرن بالأندلس و بلاد المغرب معايشا لأهم أحداثها و حوادثها بمختلف أدوارها و أطوارها .

و من هؤلاء الدارسين الذين ذكروا عناوين كتب ابن الأبار: عبد العزيز عبد المجيد من خلال كتابه (ابن الأبار حياته و كتبه الذي طبعته المطبعة الحسنية بالمغرب سنة(1954م) ، و عبد السلام الهراس عند تحقيقه لديوان شعره سنة (1969م) ، فقد أشار إلى جل كتبه المعروفة و التي تم تحقيقها أو التي أشارت إليها

(1)- المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 17 .
(2)- الغبريني : عنوان الدراية ، ص 311 .

بعض المصادر و المراجع ، و لم يتسن العثور عليها إلى تاريخ تحقيق ديــوان شعره ، و قد أوردها كما يأتي :

((1- المورد السلسل في حديث الرحمة المسلسل .

2- المأخذ الصالح في حديث معاوية بن صالح .

3- الأربعون حديثا عن الأربعين شيخا من أربعين مصنفا لأربعين عالما من أربعين طريقا إلى أربعين تابعا عن أربعين صاحبا بأربعين اسما من أربعين قبيلا في أربعين بابا .

4- الاستدراك على أبي محمد القرطبي بما أغفله من طرق روايات الموطأ .

5- الشفا في تمييز الثقات من الضعفا .

6- هداية المعتسف في المؤتلف و المختلف .

7- شرح البخاري (غير تام إذ قتل دون إنجازه) .

8- مختصر ابن أبي زمنين في الفقه .

9- قصد السبيل و ورد السلسبيل في المواعظ و الزهد .

10- مظاهرة المسعى الجميل و محاذرة المرعى الوبيل في معارضة ملقى السبيل .

11- درر السمط في أخبار السبط .

12- معدن اللجين في مراثي الحسين .

13- إحضار المرهج في مضمار المبهج .

14- فضالة العباب و نفاضة العياب (أرجوزة) .

15- إعانة الحقير في شرح زاد الفقير .

16- الإيماء إلى المنجبين من العلماء .

17- التكملة لكتاب الصلة .

18- الحلة السيراء في أشعار الأمراء .

19- كتاب التاريخ .

20- إعتاب الكتاب .

21- برنامج رواياته .

22- معجم شيوخه .

23- معجم أصحاب أبي عمر بن عبد البر .

24- معجم أصحاب أبي عمرو الداني المقرئ .

25- معجم أصحاب أبي علي الغساني .

26- معجم أصحاب أبي داود الهشامي .

27- معجم أصحاب أبي علي الصدفي .

28- معجم أصحاب أبي بكر بن العربي المعافري .

29- معجم شيوخ أبي الحسين أحمد بن محمد بن السراج .

30- الوشي القسي في اختصار الفتح القسي .

31- إفادة الوفادة .

32- أنيس الجليس و نديم الرئيس .

33- إعصار الهبوب في ذكر الوطن المحبوب .

34- قطع الرياض في بدع الأغراض(مختارات شعرية في مجلدين ضخمين).

35- الانتداب للتنبيه على زهر الآداب .

36- خضراء السندس في شعراء الأندلس (من أول فتحها إلى آخر عمره) .

37- تحفة القادم .

38- الكتاب المحمدي (جمع فيه شعراء الأندلس المسمين باسم محمد) .

39- إيماض البرق في شعراء الشرق (أي شرق الأندلس) .

40- مجموع رسائله .

41- ديوان شعره))[1].

لقد عرفت بعض هذه المؤلفات طريقها إلى الطبع بعد العثور على نسخها المخطوطة المنتشرة عبر مكتبات العالم ، وتم تحقيقها تحقيقا علميا من طرف ثلة من الباحثين و الأساتذة المحققين ، الأمر الذي مكن القراء الإطلاع عليـــــــــها و الاستفادة من أهم كنوز و دخائر الفكر الاسلامي و العربي العلمي و الأدبــــي ، و إخراجها من ذاكرة النسيان التي اكتنفتها لقرون عديدة .

و مؤلفات ابن الأبار التي تم تحقيقها و نشرها حتى تاريخ تحقيق و نشر ديوان شعره من طرف عبد السلام الهراس ، ذكرت كما يأتي :

- **التكملة لكتاب الصلة** : يعد كتاب تكملة الصلة من أجود و أهم ما ألف ابن الأبار القضاعي خلال حياته العلمية ، و هو كتاب في التراجم و الســير و التاريـــــخ ، و استغرق في تأليفه وقتا طويلا ، فقد ذكر ابن الأبار نفسه تاريخ بداية تأليفه له قائلا: ((و كان انبعاثي لهذا التقييد ؛ الملتمس فيه من الله حسن العون و التأييد ؛ أول شهر المحرم مفتتح سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة))[2] .

و يظهر من هذا التاريخ أن ابن الأبار قد بدأ تأليف كتاب التكملة لكتاب الصلة خلال المرحلة الأندلسية من حياته ، و استمر في تنقيحه و الإضافة إليه أثناء إقامته بالإمارة الحفصية .

كما يعد كتابه هذا ، حلقة هامة ضمن سلسلة من الكتب التي سبقته حول تاريخ الأندلس السياسي و الثقافي و العلمي ، و تحدث عبد الله علي علام عن هذا الكتاب فقال : ((و هذا الكتاب الجليل ، هو تكملة لكتاب الصلة الذي و ضعه ابن بشكوال(ت587هــ) ليكمل به كتاب تاريخ العلماء و الرواة بالأندلس لابن الفرضي،

---

(1)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 17- 19 .
(2)- ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، جــ 1، ص 2 - 3 .

و قد انتهى ابن بشكوال في كتابه ((الصلة)) عند سنة(534هـ) ، فابتدأ ابن الأبار في كتاب((التكملة)) من سنة(535هـ) ، و انتهى به عند سنة (636هـ)))[1] .

عرف كتاب التكملة لكتاب الصلة طريقه إلى التحقيق و النشر في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، و تداول على تحقيقه و نشره عدد من الباحثين العـــرب و الأجانب اعتمادا على بعض النسخ المخطوطة لهذا الكتاب ، و المنتشرة عبر مكتبات إقليمية و عالمية .

((نشر القسم الكبير منه كوديرا ، من حرف (ج) إلى نهاية الكتاب ، في مجلدين في مدريد خلال عامي (1888م ــ 1889م) ، و نشر القسم الأول الباقي منه ابن شنب و بل في الجزائر عام (1920م)[2] .

و بقي كتاب تكملة الصلة ينتظر من يجمعه بكامل أجزائه و يحققه تحقيقا علميا مرضيا حتي تتم الاستفادة منه ، فقام الأستاذ عزت العطار الحسيني بهذه المهمة و أخرج الكتاب في حلة جيدة و جديدة و نشره سنة (1956م) .

ــ **إعتاب الكتاب** : أشارت جل المصادر التي ترجمت لابن الأبار القضاعي إلى كتابه (إعتاب الكتاب) و إلى السبب الذي دعاه إلى تأليفه ، فقد تعرض لغضب السلطان أبي زكريا الحفصي ، فأبعده إلى بجاية التي أقام بها فترة حاول خلالها طلب الصفح و استعادة مكانته بالبلاط فألف هذا الكتاب ، و ذكر ابن خلدون ذلك : ((ثم إستعتب السلطان بتأليف رفعه إليه عد فيه من عوتب من الكتاب ، و أعتب ، و سماه إعتاب الكتاب ، و استشفع فيه بابنه المستنصر فغفر السلطان له و أقال عثرته و أعاده إلى للكتابة))[3] .

فكتاب إعتاب الكتاب ، رسالة استعطاف و اعتذار طويلة بعثها ابن الأبار إلى أبي زكريا الحفصي ، و ألفه بعد إبعاده عن البلاط ، و فيه سرد لقصـــص و تراجم

---

(1)- عبد الله علي علام : الدولة الموحدية بالمغرب ص 27- 28 .
(2)- محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا القدماء و المحدثون ، ص 324 .
(3)- ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ 6 ، ص 654 .

و نوادر الكتاب الذين سبق إليهم غضب السلاطين و الخلفاء ، ثم حلت بهم نعمة العفو و الرضا ، فأعتبوهم و غفروا لهم .

يضم هذا الكتاب خمسا و سبعين ترجمة لمشاهير الكتاب و المنشئين مشارقة و مغاربة وأندلسيين ، مرتبة ترتيبا زمنيا ، ابتداء من القرن الأول الهجري ــ عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان(رضي الله عنه) ــ و انتهاء بالقرن السابع الهجري(1) .

و النسخ الخطية لهذا الكتاب منتشرة عبر العديد من مكتبات العالم ، مثلها في ذلك مثل مخطوطات كتاب تكملة الصلة للكاتب نفسه .

كما أشار جرجي زيدان إلى وجود نسخة خطية من كتاب إعتاب الكتاب بالخزانة التيمورية بمصر(2) .

ــ **درر السمط في أخبار السبط** : هو كتاب تعرض فيه ابن الأبار إلى سيــــــــرة و أخبار الحسين بن علي (رضي الله عنهما) ، كما بكى فيه آل البيت و وصف ما حل بهم من أهوال و مآسي على يدي بني أمية في كربلاء .

و أشار بعض من ترجم له إلى هذا الكتاب فقال : ((و له جزء سماه « درر السمط في خبر السبط » ينال فيه من بني أمية و يصف عليا عليه السلام بالوصـــي و هذا تشيع ظاهر و لكنه إنشاء بديع))(3) .

كما تحدث المقري عن هذا الكتاب و نقل منه فصولا طويلة في كتابه نفح الطيب ، غير أنه اتهم ابن الأبار بالتشيع بالنظر إلى محتوى كتاب درر السمط الذي في تعاطفا صريحا مع آل بيت الرسول (صلى الله عليه و سلم) و ما حل بهم من أهوال على أيد بني أمية ، فقال : ((و هو كتاب غاية في بابه ، و لم أورد منه غير

---

(1)- بتصرف / محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا القدماء و المحدثون ، ص 325- 326 .
(2)- بتصرف / جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، جـــ 3 ، ص 78 .
(3)- الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـــ 3 ، ص 356 .

ما ذكرته ، لأن في الباقي ما تشم منه رائحة التشيع ، و الله سبحانه يسامحه بمنـــه و كرمه))[(1)] .

لقد تعرض ابن الأبار بسبب هذا الكتاب إلى النقد و المؤاخذة ، لموقفه من آل البيت و عواطفه نحوهم ، بل لقد وصل الأمر إلى حد اتهامه بالتشيع ، غير أن ما ذكره الصفدي و تابعه فيه المقري لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن ينهض ليشكل موقفا كافيا يمكن الاستئناس به لاتهام ابن الأبار بالتشيع ، فلم يوجد في بقية كتبه الكثيرة ما يعزز و يؤكد هذه التهمة ــ إن جاز لنا أن نعتبر التشيع تهمة ــ فالأقرب للعدل أن نعد عواطف ابن الأبار عواطف كل مسلم اتجاه إخوانه المسلمين الذين يتعرضون للظلم و التنكيل و التشريد من طرف بعض الأسر الحاكمة ، بصرف النظر عن كون هؤلاء من آل البيت أو من عامة المسلمين ، بل إن المسلمين على مختلف مذاهبهم مطالبون شرعا بحب آل بيت الرسول صلى الله عليه و سلم و إجلالهم و توقيرهم* .

و يظهر من عنوان هذا الكتاب و مضمونه أن ابن الأبار قد ألف كتابه هذا في أواخر حياته خلال إقامته في بجاية ، فقد تكاثرت عليه الأحزان و مزقت نفسه المتألمة النوائب و تعرض للعقاب و الإبعاد من طرف المستنصر الحفصي ، بإيعاز من حساده و منافسيه بالبلاط ، فكان الدافع لتأليف هذا الكتاب الذي بكى فيه آل البيت ، و تحسر لما نالهم من ظلم و حيف و قتل ، البحث عن العزاء لما أصابـــه و التخفيف من حدة الأهوال التي نالته ، عن طريق استرجاع مآسي آل بيت الرسول (صلى الله عليه و سلم) .

أما عن نسخ كتاب درر السمط في خبر السبط ، فقد نقل محمد يوسف مقلد كلام صالح الأشتر: ((أن نسخة خطية وحيدة وصلت إليه من هذا الكتاب ، تعــود

---

(1)- المقري : نفح الطيب ، جـــ 4 ، ص 506 .
*- لقوله تعالى : ((... قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى...)) . ينظر/ القرآن الكريم : سورة الشورى ، الآية : 23 ، برواية حفص عن عاصم .

إلى القرن الثاني عشر الهجري ، و كان السيد عامر غديرة قد حققها و ترجمها للفرنسية و أعدها للطبع ، و قدمها لنيل دبلوم الدراسات العلـــــيا في باريس))[1] .

و يذكر محقق ديوان ابن الأبار، أنه قام بتحقيق كتاب درر السمط بالاشتراك مع الأستاذ سعيد أعراب ، و سينشره بالدار التونسية للنشر[2] .

ــ **الحلة السيراء في شعر الأمراء** : هو كتاب في الأدب و التاريخ و تراجم الأعلام و المشاهير من رجال السياسة الذين عرفوا بقرض الشعر ، و قد وضعه ابن الأبار أثناء عمله في البلاط الحفصي تمجيدا لشاعرية السلطان أبي زكريا و ولي عهــده ، و تدليلا على أن قول الشعر من خصال كبار الخلفاء و السلاطيــن و الأمراء ، ترجم فيه لمن عُرف بقرض الشعر من رجالات المغرب و الأندلس .

و يعتني كتاب الحلة السيراء بأخبار المغرب من المائة الأولى للهجرة إلى المائة السابعة للهجرة ، و تبدأ المائة الأولى بموسى بن نصير ، و تبدأ الثانية بعبد الرحمان بن معاوية(عبد الرحمان الداخل) ، و هكذا وصولا إلى المائة السابعة[3] .

عرف كتاب الحلة السيراء طريقه إلى المطبعة و النشر ، بعد أن حقق تحقيقا علميا من طرف بعض المحققين المستشرقين أولا ثم من طرف الأساتذة المحققين العرب ، و ذلك ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، حيث عرف طريقه إلى المطبعة و أضيف بذلك إلى رصيد المكتبة العربية مصدرا أدبــــــــيا و تاريخيا من أهم نفائس كنوز و ذخائر التراث العربي و الإسلامي .

((و قد نشر بعض المستشرقين تراجم منه ، و أخيرا حققه و نشره الدكتور مؤنس بعنون ((الحلة السيراء)) فقط))[4] .

(1)- محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا القدماء و المحدثون ، ص 325 .
(2)- بتصرف / ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 20 .
(3)- بتصرف / جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية، جـــ 3 ، ص 77- 78 .
(4)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 20 .

ــ **تحفة القادم*** : هو كتاب في الأدب ألفه ابن الأبار خلال فترة حياته الأندلسية ، يضم تراجم لشعراء الأندلس و شواعرها ، و أراد به التدليل على توقد أدهان أهل الأندلس رجالا و نساء و جودة قريحتهم و ثراء خيالهم في قرض الشعر .

و هو((كتاب في تراجم الشعراء ، يضم تراجم مائة من الشعراء و أربع من الشاعرات ، من أهل الأندلس ، من رجال القرنين الخامس و السادس ، مع قطع مختارة من أشعارهم و قد وصل إلينا مختصرا لهذا الكتاب ، من عمل أبي إسحاق إبراهيم بن محمد البلفيقي (المقتضب من تحفـــــة القادم)))(1) .

و يضارع هذا الكتاب في أسلوبه و منهجه و عنوانه ، بعض الكتب التي ألفت قبله ، و منها كتاب زاد المسافر لصفوان بن إدريس المرسي ، كما يعد تكملة له ، ((فلم يكد ينقضي هذا العصر حتى قام أبو عبد الله بن الأبار بتتميم عمل صفوان بمجموع سماه تحفة القادم موريا بزاد المسافر))(2) .

كما يماثل في عدد تراجمه و أسلوب ترتيبها و اقتصارها على أدباء الأندلس دون سواهم ، كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان لابن رشيق المسيلي القيرواني ، وهذا ما يذكره ابن الأبار نفسه في خطبة كتابه فيقول : ((فهذا اقتضاب من بارع الأشعار ، بل يانع الأزهار ، قصرته على أهل الأندلس بلدي ، و حصرته إلى من سبق وفاته مولدي ... لأضاهي أنموذج أبي علي ابن رشيق في شعراء القيروان))(3)

---

* - التحفة : هي اسم الطعام الذي يقدم للزائر و المسافر (طعام المسافر) ، و تختلف أسماء الأطعمة باختلاف المناسبات التي تقدم فيها مثل : الوليمة في العرس ، و الخرس عند الولادة ، و العقيقة للمولود عند اليوم السابع من ولادته ، و الوكيرة عند بناء السكن ، و الوضيمة عند الوفاة ، و النقيعة للقادم من السفر ، و العديرة عند الختان ، و المأدبة للضيافة بلا سبب ، و الحداق عند ختم القرآن ، و القرى للضيف ، و النزل لمن يحل بك للضرورة ، و الملاك عند عقد الزواج ... للمزيد ينظر / محمد بن طولون : فص الخواتم فيما قيل في الولائم ، مطبعة دمشق ، ط 1 ، 1983م ، سوريا ، ص 2 و ما بعدها .

(1)- محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا القدماء و المحدثون ، ص 324- 325 .

(2)- أبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي : زاد المسافر و غرة محيا الأدب السافر ، (مقدمة التحقيــق) ، ص 6 .

(3)- ابن الأبار : المقتضب من تحفة القادم ، ص 2 .

أما عن مخطوطات كتاب تحفة القادم و تحقيقه و نشره ، فقد ذكر الكثير من الباحثين أن هذا الكتاب لم يتم العثور عليه كاملا ، بل وصل مختصرا بعد أن قام أبو إسحاق إبراهيم البلفيقي باقتضابه خلال القرن الثامن الهجري .

ـــ **معجم أصحاب أبي علي الصدفي** : هو كتاب ألفه ابن الأبار في تراجم العلماء الأندلسيين الذين كانت لهم صلة بالشيخ أبي علي الصدفي .

وقد عرف هذا الكتاب طريقه إلى النشر ، بعد أن تم تحقيقه خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، و قام المستشرق الاسباني فرانشيسكو كوديرا بنشره[1] .

- **مظاهرة المسعى الجميل و محاذرة المرعى الوبيل في معارضة ملقى السبيل** : هو كتاب لابن الأبار القضاعي أشارت إليه جل المصادر و المراجع التي تحدثت عن حياة ابن الأبار و آثاره التي خلفها ، و قد سلم من الإتلاف و الضياع الذي أصاب جل كتبه ، ((و قد نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ضمن مجموع تحت عنوان « رسائـــــل و نصوص »))[2] .

---

(1)- ابن الأبار : الديوان ، (مقدمة التحقيق) ، ص 20 .
(2)- المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، الصفحة نفسها .

3- ديــوانــه :

لم يشتهر ابن الأبار القضاعي بالفقه و التاريخ و الكتابة و الحديث و اللغة ... فحسب ، بل كان ــ إضافة إلى هذه العلوم و المعارف ــ أديبا بارعا و شاعــرا مُجيدا ، و قد أشارت جل المصادر القديمة إلى ذلك و أوردت له بعض القصائـــد و المقطعات في مختلف الأغراض التقليدية المعروفة ، و بالرغم من إسهاب هذه المصادر في الحديث عن مؤلفات ابن الأبار إلا أن معظمها لم يشر صراحة إلى أن له ديون شعر مجموع ، كما أن الدراسات الحديثة التي دارت حوله و أولت حياته العلمية أهمية كبيرة ، لم تتحدث عن وجود ديوان لابن الأبار، فقد ذكر عبد السلام الهراس قائلا : ((لم يشر أي باحث من المحدثين ممن اهتموا بابن الأبار و كتبوا عنه إلى أن له ديوان شعر))[1].

و بقي أمر وجود ديوان شعر لابن الأبار من عدمه معلقا ، إلى أن تم العثور على نسخة مخطوطة منه من طرف بعض الباحثين في الخزانة الملكية بالمغرب ، ((فعندما حظيت الخزانة الملكية بالتنظيم اكتشف القائمون عليها و في مقدمتهم الأخ الأستاذ المحقق محمد المنوني كنوزا نادرة من تراثنا المغربي الأندلسي و العربي ، و من أهم ما اكتشف« ديوان ابن الأبار» و المخطوط مسجل تحت رقم 4602))[2] .

ثم يصف عبد السلام الهراس مخطوط ديوان ابن الأبار و هي النسخة الوحيدة منه التي تم العثور عليها بقوله: ((و هو سفر متوسط الحجم يحتوي على 222 صفحة ... أصيب ببتر في الصفحات الأولى ... و هو مرتب على الحروف الهجائية حسب الترتيب المغربي و الأندلسي* ... و خط هذا الديوان أندلسي حسن ،

---

(1)- المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 21 .
(2)-المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 22 .
*- الترتيب المغربي و الأندلسي للحروف الهجائيـــة هو : أ ، ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، خ ، د ، ذ ، ر ، ز ، ط ، ظ ، كــ ، ل ، م ، ن ، ص ، ض ، ع ، غ ، ف ، ق ، س ، ش ، هــ ، و ، ي . ينظر/ المصــدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 22 .

به كثير من التصحيف و التحريف زيادة على الخروم و التآكل ، و الديوان خال من تاريخ النسخ و اسم الناسخ))[1] .

أما عن تحقيق ديوان ابن الأبار ، فقد قام الأستاذ الدكتور عبد الســلام الهراس ، أستاذ الأدب الأندلسي بكلية الآداب جامعة الملك سيدي محمد بن عبد الله بمدينة فاس المغربية ، بتحقيقه و إنجاز دراسة فيه ، من خلال أطروحته التي نال بها درجة الدكتوراه سنة (1966م) من كلية الآداب بمدريد [2] .

و في سنة (1986م) قام الباحث نفسه بتقديم الديون إلى النشر بالدار التونسية للنشر ، و في السنة نفسها أعيد نشره من طرف دار النشر السابقة ، بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر في طبعته الثانية ، و جاء في شكله و محتواه كما يأتي :

يقع ديوان ابن الأبار في طبعته الثانية سنة (1986م) على مساحة ورقية تقارب (500 صفحة) من القطع المتوسط ، و يضم مقدمة و متن و فهارس فنية .

ــ المقدمة : تبدأ من الصفحة 5 و تنتهي عند الصفحة 30 ، و تحتوي على مقدمة منهجية ، متبوعة بتعريف موجز لابن الأبار القضاعي صاحب الديــــوان ، و وصف للمخطوط و مراحل التحقيق و بعض جوانبه الفنية .

ــ متن الديوان : يبدأ من الصفحة (33)، و ينتهي عند الصفـــحة (469) ، و يتضمن : القصائد ، و المقطعات ، و النتف ، و الأبيات المفردة الموجودة في المخطوط الوحيد للديوان ، و الذي اعتمد عليه في التحقيق ، و تبدأ من الصفحة (33) و تنتهي عند الصفحة(433) ، كما يتضمن المتن ــ أيضا ــ ملحقين اثنين ، يحتوي الأول على (39) بين قصيدة و مقطعة و نتفة و بيت مفرد ، من الصفحة (437) إلى الصفحة (462) ، و جمع المحقق في هذا الملحق شعر ابن الأبار الذي أوردته مختلف المصادر المطبوعة و المخطوطة ، و يحتوي الملحق الثاني علـــى

(1)- المصدر السابق : (مقدمة التحقيق) ، ص 22 .
(2)- بتصرف/المصدر نفسه : (مقدمة التحقيق) ، ص 22- 25 .

قصيدتين فقط ، و يبدأ من الصفحة(465) و ينتهي عند الصفحة(469) ، و توجد القصيدتان في الورقتين المضافتين إلى مخطوطة الديوان ، و قد شكك المحقق في نسبتيهما إلى ابن الأبار ، الأمر الذي دفعه إلى إفرادهما بملحق خاص هو الملحق الثاني .

ـــ الفهارس الفنية : و تبدأ من الصفحة(473) و تنتهي عند الصفحة(496) ، و تنقسم إلى ثلاثة فهارس هي :

فهرس القصائد حسب القوافي (و حسب ورودها في الديوان) .

فهرس القصائد حسب الأغراض الشعرية ، وهي كما يلي : المديـــــــــــح و الاستنجاد و الاستعطاف ، الوصف ، الغزل ، الذكريات و الأشواق و الشؤون ، الهجاء ، الألغاز، الرثاء ، الحكم و الزهد و النبويات .

فهرس القصائد حسب البحور الخليلية .

4- مدائحه في البلاط الحفصي :

جاء المدح في ديوان ابن الأبار القضاعي ممتزجا بالاستنجاد و الاستعطاف ، وقد دعت إليهما الأحداث السياسية المأساوية التي عاشتها الأندلس خلال القرن السابع الهجري ، و اكتوى بنارها المسلمون في الأندلس و بلاد المغرب ، و ناله من لفحها و لظاها عنتا كبيرا .

لقد قصر ابن الأبار مدائحه على الحكام الحفصيين ، و خاصة السلطان أبي زكريا الذي أقام دعائم الدولة الحفصية و استقل عن دولة الموحدين ، و باستثناء قصائد المدح رقم (54 ، 113 ، 152 ، 168) ، و القصائد رقم (7 ، 8 ، 32) الموجودة بالملحق الأول ، فإن بقية قصائد الديوان في هذا الغرض كانت في مدح الأسرة الحفصية الحاكمة .

إن الغرض من تحديد شعر المديح بديوان ابن الأبار الذي قيل خلال فترة إقامة الشاعر بالبلاط الحفصي و الذي اقتصر على مدح الأسرة الحفصية الحاكمة ،

و فصله عما عداه من المدائح التي قيلت خلال إقامة الشاعر بالأندلس ، و تناولت مدح بعض حكامها ، فالغرض من ذلك هو محاولة حصر المدونة الشعرية التي سيتطرق لها البحث بالدراسة و التحليل و تحديد أبعادها بدقة ، و تتمثل في قصائد المديح عند ابن الأبار التي قيلت في البلاط الحفصي و كانت مقصورة على مدح الأسرة الحفصية الحاكمة دون سواهم .

الفصل الثاني

موضوعات قصيدة المديح عند ابن الأبار القضاعي في البلاط الحفصي

أ- توطئة نظرية

ب- الموضوعات

1- المدح بالمجد

2- المدح بالشجاعة

3- المدح بالكرم

4- المدح بالعدل

5- المدح بشرف النسب

6- المدح بالنجدة و الإغاثة

7- المدح بالحلم

8- المدح بالعلم

9- المدح بالدين و الورع

احتلت قصيدة المديح القسم الأكبر من ديوان ابن الأبار القضاعي ، حيث قصر شعره ــ إلا قليلاــ على مدح حكام الدولة الحفصية الذين قربوه منهم و أنزلوه من بلاطهم المنزلة العالية ، فلم يتوان في الإشادة بفضائلهم و التغني بمحامدهــــم و شكر نعمهم عليه و وصف وقائعهم و بطولاتهم ، و لم يخرج الشاعر في مدائحه للحفصيين عن الصفات و الموضوعات المفضلة في قصيدة المديح العربية ، و التي حددها النقد القديم و أوضح مسالكها ، مستندا في ذلك إلى الإرث الشعري العربي الكبير ، و تلك التقاليد الفنية الراسخة في هذا المجال ، مستلهما لها مغترفا من معينهـــا ، و من هذه المثل العليا التي حفلت بها قصيدة المديح العربية في معظم مراحلها التاريخية نذكر : المجد ، الكرم ، الشجاعة ، العدل ، النسب الشريف ، الحلم ، النجدة و الاغاثة ، العلم ، الديــن و الورع ... مع التركيز على الصفات النفسية للممدوح ، التي من شأنها أن تعلي من قدره و ترفع من مكانته في سماء المجد و الفضيلة .

موضوعات قصيدة المديح عند ابن الأبار القضاعي في البلاط الحفصي :

أ- توطئة نظرية :

ذكر أصحاب المعجمات العربية بألفاظ مختلفة و معانٍ مؤتلفة ، أن المدح هو الثناء الحسن و تعداد لخصال ومحامد الممدوح و تقريض لها و تنويه بفضائلـــــــه و محاسن صفاته ، ومن ذلك ما جاء في لسان العرب لابن منظور الإفريقي (ت711هــ/ 1311م) قوله : ((المدح : نقيض الهجاء و هو حسن الثناء ؛ يقال مدحته مِدحة واحدة و مدحه يمدحه مدحا و مِدحـــة... و الجمع مِدح ، و هو المديح و الجمع المدائح و الأماديح))[1] .

و لم يبتعد مرتضى الزبيدي (ت1205هــ/ 1790م) عن هذا المعنى ، فقد ذكر في معجمه : ((مدحه يمدحه مدحا و مِدحة... أحسن الثناء عليه ، و نقيضـــه

(1)- أبو الفضل جمال الدين بن منظور: لسان العرب المحيط ، تقديم/عبد الله العلايلي ، إعداد و تصنيف/ يوسف خياط و نديم مرعشلي ، دار لسان العرب ، بيروت ، 1970م ، مادة (مدح) جــ 3 ، ص 452 .

الهجاء ... و المدح بمعنى الوصف الجميل ، يقابله الذم ، و بمعنى عد المآثـــــر و يقابله الهجو ... ومدحته مدحا أثنيت عليه بما فيه من الصفات الجميلة خِلقية كانت أو اختيارية ، و لهذا كان المدح أعم من الحمد .

قال الخطيب التبريزي : المدح من قولهم انمدحت الأرض إذا اتسعت ، فكأن مدحته : وسعت شكره))(1) .

كما تعرضت كتب الأدب و معجمات المصطلحات الفنية و الأدبية في ثنايا صفحاتها ، لمفهوم المديح من الوجهة الاصطلاحية بالدراسة و التحليل ، و من تلك المؤلفات ما جاء في كتاب المديح : ((المدح فن الثناء و الإكبار و الاحترام ، قام بين فنون الأدب العربي مقام السجل لجونب من حياتنا التاريخية ، إذ رسم نواح عديدة من أعمال الملوك ، و سياسة الوزراء ، و شجاعة القواد ، و ثقافة العلماء ، فأوضح بذلك بعض الخفايا و كشف عن بعض الزوايا ، و أضاف إلى التاريخ ــ صادقا أو كاذبا ــ ما لم يذكره التاريخ ؛ فساعد على إبراز كثير من الصـــــفات و الألوان لم تكن تعلم لولاه . و زاد في شهرة أناس كثيرين أحاطهم بالرعايــــة ، و رفعهم إلى الذروة فجعلهم في مصاف الأعلام ، و أغفل زملاء لهم كانوا أحق بالذكر و أجدر بالشهرة ، و لكنها الحظوظ يوزعها الشعراء ، فينال الثناء بعضـــا و يحرم بعضا ... و لذلك كان المديح في حضارتنا كالبرقيات التاريخية تشير إلى الأحداث و لا تسهب في تعليلها ، شأن الشعر دائما))(2) .

و المدح من الأغراض التقليدية التي راجت في الشعر العربي ، بل إن قصيدة المديح لها مكانة متميزة بين أغراض الشعر العربي منذ العصر الجاهلــي ، و ذلك لكثرة دوافعها و وفرة دواعيها ، و لما تحدثه من أثر على الشاعر و الممدوح معا ، فهي عد لمآثر الممدوح و تغني بخصاله الرفيعة و فضائله الكريمة ، يرفعه

---

(1)- محمد مرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، دار مكتبة الحياة ، مصـــر ، ط 1 ، 1306هـ ، مادة (مدح) ، جــ 2 ، ص 220-221 .
(2)- سامي الدهان : المديح ، دار المعارف ، مصر ، ط 4 ، 1984 م ، ص 5 .

الشاعر إلى فرد أو جماعة ، اعترافا بالجميل ، أو طلبا للمكافأة ، أو رغبة في الصفح و اعتذارا من الزلة .

و يتحدث شوقي ضيف عن كثرة المديح في الشعر العربي القديم فيقـــول : ((يعد المديح أهم موضوع استغرق صفحات الشعر العربي على مر العصـــور ، و قد نشأ أول ما نشأ عند العرب حول التغني ببطولات فرسانهم و شـجعانهم فـي الحروب و مكارم سادتهم و خصالهم الحميدة في السلم و الحـرب ، و ظـل لكـل عصر أبطاله و سادته و أمراؤه و حكامه ، و تفنن الشعراء في وصف البطـولات الحربية و الخصال الكريمة و حكم الخلفاء و الحكام العادل الرشـيد علـى مـدى العصور الإسلامية المتعاقبة))[1] .

و لعل البيئة و طبيعة الحياة العربية قديما ، كان لها الدور الكبير في انتـشار غرض المديح في الشعر العربي أكثر من بقية أغراضه الأخرى .

((إن العوامل التي تدعو إلى المدح كثيرة ، منها النظام القبلي الذي يستدعي الإعلاء من شأن الزعماء و الأبطال ، و منها الإشادة بالمروءات ، و منها تمجيد الأحلاف التي كانت تتم بين القبائل ، و منها طمع الشاعر في الكسب و رغبة الممدوح في المدح ، و منها قيمة الشعر و مكانته الفنية و الإعلامية و الاجتماعية و الحربية))[2] .

و المدح غرض شعري يتوجه به الشاعر إلى الأفراد و الجماعات الأحياء ، فإذا توجه إلى الأموات صار رثاء ، و ذكر ابن رشيق (ت456هـ–1064م) أن المديح ركن من أركان الشعر الأربعة و هي : المدح و الهجاء و اللهو و الحكمة ،

---

(1)- شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات) ، ص 120 .
(2)- علي عالية : شعر الفلاسفة في الأندلس ـــ في القرنين الخامس و السادس الهجريين ـــ ، مخطوطة رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة باتنة ، 2004- 2005م ، ص 15 .

و يتفرع عن هذه الأركان فروعا كثيرة ، فمن فروع المديح تكون المراثي و الشكر و الافتخار...[1].

لقد تبوأ الشعر منزلة سامية من نفوس العرب و تهيَّبوه ، فقصروه على تمجيد القبيلة و التغني بمآثرها و وقائعها و أيامها المشهورة ، و مدح أبطالها و سادتها و ذوي الفضل منها ، و لا يخرج الشعر عن ذلك إلى مدح غيرها إلا يسيرا .

و لم يكن العرب يتكسبون بالشعر ، لأن ذلك من شأنه أن يبخس من قيمته و يزري بقدره في نفوسهم و يحط من مكانة قائله عندهم ، إلا أن هذه الحال لم تلبث إلا قليلا حتى تراجعت و أصابها الفتور ؛ فقد وُجدَ من الشعراء من تخلى عن هذا الالتزام و خالف هذا المبدأ ، فتكسب بمدائحه و سعى جهده للحصول على الهدايا و المكافآت من الممدوحين على اختلاف منازلهم و بعد مواطنهم ، فقد كان الشاعر منهم يتجشم عناء الرحلة و يقطع المسافات الطوال عابرا المفاوز الموحشة قاطعا الفجاج العميقة و الوديان المخيفة ، طالبا للمغانم آملا في تحصيل رغد العيش و ملذات الحياة .

((و كانت العرب لا تتكسب بالشعر ، و إنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها... حتى نشأ النابغة الذبياني ؛ فمدح الملوك ، و قبل الصلة على الشعر ، و خضع للنعمان بن المنذر ، و كان قادرا على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته ، و تكسب مالا جسيما ، حتى كان أكله و شربه في صحاف الذهب و الفضة و أوانيه من عطاء الملوك .

و تكسب زهير بن أبي سلمى بالشعر يسيرا مع هرم بن سنان . فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجرا يتجر به نحو البلدان ، و قصد حتى ملك العجم فأثابه و أجزل عطيته علما بقدر ما يقول عند العرب و اقتداء بهم فيه ، على أن شعره لم

---

(1)- بتصرف/ أبو الحسن بن رشيق : العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، طبعة/ الجزائر عاصمة الثقافة العربية ، 2007م ، جـ 1 ، ص 121 .

يحسن عنده حين فسر له ، بل استهجنه و استخف به ، لكن احتذى فعل الملوك ملوك العرب))[1] .

لقد بدأت ظاهرة التكسب بالمديح و استجداء الملوك و الأمراء بالشعر مبكرا مع الشعراء الفحول في العصر الجاهلي ، و كان النابغة سباقا إلى سنِّ هذا الأمر في تاريخ الشعر العربي ، فقد كان دائم التردد على بلاط المناذرة حينا و الغساسنة حينا آخر كثير التودد إليهم ، و قد حدا حدوه الشعراء من بعده .

((و هكذا سن النابغة للشعراء سنن المديح الرسمي حين يتطلعون إلى الملوك ، فقال في مليكه إنه بحر طامي الجود ، و إنه ليل يبسط رداءه على الوجود ، و إنه شمس بين الكواكب ، و إنه ربيع ينعش النفوس كما ينعش المطر الأرض الظمأى ، و إنه سيف بتار مهيب ، و لذلك قال النقاد إنه أول الاحتراف في المديح ، و رأى فيه بعضهم صحافيا لعصره يعير قلمه لكل من يجود عليه أو يحمي حماه ، أو يظله بجناحه ، فيرفع من قدره بمديحه و يصوره في احترام و حب و خوف و فخامـــة ، و يجعله فوق الناس و أعلى الملوك))[2] .

لقد أنكر القرآن الكريم على الشعراء هذه الفعلة ، و قبح هذا المسلك و نعى على الشعراء العاكفين عليه ، فقد اتخذه بعضهم منهجا في الحياة و وسيلة للتكســـب و العيش ومصدرا للثراء ، سواء كانت تلك الصفات التي يضفونها على الممدوح حقيقة أم إدعاء و تلفيقا ، و لسان حالهم يردد : الغاية تبرر الوسيلة* .

((أعجب الشاعر العربي بالخلق الحميد و الرأي السديد و الشجاعة الفائقـــة و الكرم الواسع ، كما أعجب بها غيره من شعراء الأمم القديمة ... لذلك أثنى على الرجال المتفوقين و الشجعان المشهورين و القواد العظماء و الرؤساء المسوديـــن ،

---

(1)- المصدر السابق : جـــ 1 ، ص 80 – 81 .
(2)- سامي الدهان: المديح ، ص 16- 17 .
* - قال الله تعالى : ((وَ الشُّعَرَاءُ يَتْبَعُهُمُ الغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ))
ينظر/ القرآن الكريم ، سورة الشعراء ، الآية : 224- 226 .

و امتدح المثل العليا التي رآها عندهم))[1] .

لقد كان الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، مضمارا مناسبا للقيم العليا التي يحرص الإنسان على التمسك بها و العمل على تمثلها في حياته ، باعتبارها فضائل تعلي من شأن الإنسان و تحفظ له كرامته و إنسانيته ، هذه القيم و الصفات الرفيعة التي ضمنها الشعراء قصائدهم منذ القديم .

و قد تحدث العقاد عن هذه القيم و الصفات و عن دور الشعر في الاحتفاظ بها و الحث على تمثلها في حياة الأفراد و الجماعات ، فقال : ((و إلى الشاعر يرجع العربي ليتعرف القيم الأخلاقية المفضلة ، و يستقصي المناقب التي تستحب من الإنسان في حياته الخاصة أو حياته الاجتماعية ، يرجع العربي إلى الشاعر و لا يرجع إلى الفيلسوف أو إلى الزعيم أو إلى الباحث في مذاهب الأخلاق ... ففي الشعر العربي تنويه بكل صفة من صفات المروءة و الفتوة ، و إزراء بكل عيب من العيوب التي تشين صاحبها بين قومه ، و بيان واف للأخلاق التي تحكم الحياة فعلا أو ينبغي أن تحكمها))[2] .

و قد يكون المديح تمجيدا لقيم إنسانية رفيعة تتجسد في سلوك الممدوح ، سواء كان قائدا أو أميرا أو شخصية دينية أو تاريخية فذة ، مثل الرسول محمد ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ الذي دأب الشعراء على مدحه منذ حسان بن ثابت إلى أحمد شوقي[3] .

فليس قصد الشاعر من المدح الأشخاص في حد ذاتهم ، بقدر قصده إلى إعلاء شأن بعض القيم السامية التي يتصفون بها ، فما الممدوح سوى نموذجا عاليا مجسدا بسلوكه تلك القيم الرفيعة التي يحرص الشاعر على نشرها و حسن تمثلـــها و التحلي بها من طرف كل أفراد القبيلة .

---

(1)- سامي الدهان: المديح ، ص 14 .
(2)- عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة ، مكتبة غريب ، القاهرة ، 1988م ، ص 98 .
(3)- بتصرف / نور الدين السد : الشعرية العربية - دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي ـــ ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995م ، ص 413 .

و قد عرفت هذه القيم التي تغنى بها الشاعر العربي في شعره ، تطـــــورا و تغييرا تبعا للتطورات السياسية و الاجتماعية و الدينية التي تسود عصــــــرا و تتراجع عصرا آخر ، فهي تخضع لروح العصر و معتقدات أهله ، و العامل الحاسم في تغيير القيم التي تبناها الشاعر العربي قديما و تغنى بها في شعره ، هو الدين الإسلامي الحنيف الذي آمن به و اعتقده بصدق و تفانٍ.

((فقد كان هذا الدين الجديد في حقيقته ثورة جارفة على ما كان يسود الحياة العربية من عقائد و نظم ، جاء ليقتلعها و ليحل غيرها محلها . و كان لا بد له في ذلك أن يهدر ما كان للعرب في جاهليتهم من قيم يحرصون عليها ، و مثل نفسيــة و اجتماعية يؤمنون بها ، و قد كانت الشاعرية العربية أقوى معبر عنها))(1) .

لقد تراجعت بعض القيم الجاهلية التي كان يطلقها الشاعر على الممدوح باعتبارها فضائل و مفاخر العربي في جاهليته من مثل : الفتوة و شرب الخمــــر و المقامرة و الغزو و الإغارة على القوافل و التهالك على ملذات الحياة ، فأصبحت هذه القيم و الصفات مذمومة في العهد الإسلامي ؛ لأن الدين يحرمها و يعد المتصف بها جاحدا لحدود الدين خارجا عن توجيهاته و ضوابطه(2) .

((و الرسول الكريم كان يوجه الشعراء إلى أن يتمثلوا في شعرهم المفاهيم الإسلامية و القيم الجديدة ، لأن الإسلام كان ثورة غيرت كثيرا من نظم الجاهلية و مفاهيمها ، و أقامت مثلا و قيما جديدة))(3) .

لقد استجاب الشعراء للقيم الرفيعة التي جاء بها الإسلام ، و تمثلوا في شعرهم قيمه العالية و تخلوا عن بعض القيم التي كانت سائدة من قبل ، فقد توقف الشعراء عن المدح بالصفات التي تتناقض مع مبادئ الإسلام و تخالف أوامره و نواهيه ، غير أن استجابتهم كانت متفاوتة من شاعر لآخر و من فترة لأخرى ، و المتفحص

---

(1)- محمد طه الحاجري : في تاريخ النقد و المذاهب الأدبية – العصر الجاهلي و القرن الأول الإسلامي- دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت ، 1982م ، ص 48 .
(2)- بتصرف/ نور الدين السد : الشعرية العربية ، ص 414 .
(3)- فايز ترحيني : الإسلام و الشعر ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ط 1 ، 1990م ، ص 90 .

لمتون الشعر العربي عامة و قصيدة المديح خاصة في المرحلة الإسلامية ، يدرك بجلاء التغير الذي طرأ على موضوعات المديح في القصيدة العربية .

و أشار الكثير من الدارسين لتراثنا الأدبي منذ القديم إلى أهم الموضوعات التي تناولتها قصيدة المديح ، فابن طباطبا العلوي (ت322هـ/ 934م) يعدد الفضائل و الصفات التي مدحت بها العرب في الشعر فيقول : ((و أما ما وجدته في أخلاقها و تمدحت به و مدحت به سواها ، و ذمت من كان على ضد حالها فيه فخلال مشهورة كثيرة منها : في الخَلق و الجمال ، و البسطة ، و منها في الخُلق ، و السخاء ، و الشجاعة ، و الحلم ، و الحزم ، و العزم ، و الوفاء ، و العفاف ، و البر، و العقل ، و الأمانة ، و القناعة ، و الغيرة ، و الصدق ، و الصبر و الورع، و الشكر، و المداراة، و العفو، و العدل و الإحسان، و صلة الرحم ، و كتم السر ، و المواتاة ، و أصالة الرأي ، و الأنفة ، و الدهاء ، و علو الهمة ، و التواضع ، و البيان ، و البشر، و الجلد ، و التجارب و النقض، و الإبرام))(1) .

غير أن قدامة بن جعفر (ت337هـ/ 948م) يرى أن المدح يجب أن يقتصر على الفضائل و الصفات النفسية دون الصفات الحسية ؛ لأن الناس ـ حسبه ـ ينبغي أن تتفاضل من حيث هم ناس لا من حيث ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ، و حصر هذه الفضائل في أربع هي : العقل و الشجاعة و العدل و العفة ، ثم فرع من هذه الفضائل الأربعة ، فضائل و صفات ناتجة من تركيب الفضائل السابقة الذكر مع بعضها البعض ، فمن فضيلة العقل تنتج : الذكاء و البيان و السياسة و العلم و الحلم و غير ذلك مما يجري في هذا المجرى ، و إذا ركب العقل مع الشجاعة نتج عن ذلك صفات ؛ مثل الصبر على الملمات و نوازل الخطوب ، و الوفاء ، و الإيعاد ، و غيرها مما هي على شاكلتها (2) .

---

(1)- ابن طباطبا العلوي : عيار الشعر ، تحقيق/عبد العزيز بن ناصر المانع ، دار العلوم للطباعة و النشر ، الرياض ، 1985م ، ص 17 .

(2)- بتصرف/ قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق/ كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 3 ، 1979م ، ص 98- 99 .

فالمدح يجب أن يركز على الفضائل المعنوية و النفسية التي يتصف بها الممدوح ، فهي وحدها كفيلة بأن تعلي قدره و تخلد ذكره و تجل أمره ، و أن يبتعد عن المدح بالصفات الجسمية التي يمكن للحيوان أن يشاركه فيها و يقاسمه إياها فإنسانيته تتحقق بمناقبه و شمائله النفسية أكثر من تَحَقُّقِهَا بجسمه و صفاته الحسية*.

((و من المناقب التي مدحوا بها : الكرم ، و الشجاعة ، و الوفاء بالعهد و المنعة ، و تأمين الخائف ، و نجدة المستغيث ، و التنكيل بالعدو ، و عدم الاعتداء على الأقارب ، و السعي في الصلح بين المتخاصمين ، و بذل الأموال لتحقيق السلام ، إلى غير ذلك من الفضائل التي من شأن النفس الإنسانية ، و لعل هذه الفضائل و المحامد تتناسب و المجتمع العربي في العصر الجاهلي باعتباره مجتمع فروسية ، تطورت فيه القيم الاجتماعية إلى تقاليد قبلية يحرص عليها المجتمع))(1) .

و ذكر صاحب العمدة متحدثا عن الفضائل و الصفات التي كانت محببة لدى الشعراء و الممدوحين معا فقال : ((و أكثر ما يعول على الفضائل النفسية التي ذكرها قدامة ، فإن أضيف إليها فضائل عرضية أو جسمية : كالجمال ، و الأبهة ، و بسطة الخلق ، و سعة الدنيا ، و كثرة العشيرة ، كان ذلك جيدا ، إلا أن قدامة قد آبى منه ، و أنكره جملة ، و ليس ذلك صوابا ، و إنما الواجب عليه أن يقول : إن المدح بالفضائل النفسية أشرف و أصح ، فأما إنكار ما سواها كرة واحدة فما أظن أحدا يساعده فيه ، و لا يوافقه عليه))(2) .

فابن رشيق القيرواني يرى أن المدح بالصفات النفسية أشرف و أجل ، غير أنه لا ينكر على الشعراء المدح بالصفات الحسية ، و إن كان لا يقدمها ، مخالفا في هذا ما تواضع عليه بعض نقاد عصره و من سبقوه .

---

*- قال أحد الشعراء : **أَيَا خَادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَشْقَى لِخِدْمَتِهِ ... أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ مِمَّا فِيهِ خُسْرَانُ؟**
أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ فَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا ... فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لاَ بِالجِسْمِ إِنْسَانُ

(1)- علي عالية : شعر الفلاسفة في الأندلس (في القرنين الخامس و السادس الهجريين) ، مخطوطة رسالة دكتوراه ، ص 14- 15 .

(2)- ابن رشيق : العمدة في صناعة الشعر و نقده ، جـ 2 ، ص 135 .

و هذا الموقف لا يُستغرَب من ابن رشيق ، الذي عرف بالوسطية و الاعتدال في أغلب القضايا النقدية التي أدلى بدلوه فيها ، و يمكن أن نلتمس من القرآن الكريم ما يعزز موقفه في صحة المدح بالصفات الحسية إلى جانب الصفات النفسية*.

لقد تبنى الشعراء هذه الموضوعات التي حددها النقاد ، و استجابوا لها ، لأثرها الحسن في نفس الممدوح و قدرتها في دغدغة عواطفه و بسط يده بالبدل و العطاء.

و لم تختلف قصيدة المديح في المغرب و الأندلس عن نظيرتها في المشرق ، لا في لغتها و معانيها و أساليبها و لا في موضوعاتها ، و هذا التشابه أمر طبيعي ؛ فالشعراء في المشرق و المغرب ينتسبون إلى لغة واحدة و ينهلون من إرث أدبي مشترك ، فتوحدت أذواقهم و تناغمت مشاعرهم ، و لم يختلفوا إلا في تلك الخصائص التي تمنحها البيئة و تلونها الأحداث .

و يشير عمر الدقاق إلى التشابه القائم بين الشعر المشرقي و الشعر المغربي و الأندلسي موضحا أسباب ذلك بقوله : ((آثر شعراء الأندلس أمدا طويلا أن يعيشوا في أجواء المحافظة ، جاهدين في الالتصاق بالموضوعات التقليدية . لقد اغتربوا راضين أو مكرهين ، مخلفين وراءهم وطنا و أهلا و صحبا . و لم يكن ذلك عليهم بهين ، كما لم يكن من اليسير عليهم أن ينسلخوا مما كانوا فيه من طباع و عادات و أخلاق ، و من مفاهيم و مبادئ و مثل ... و هكذا كان من الطبيعي أن يصدر الأندلسيون في موطنهم القصي عن أدب مشابه لأدب أرومتهم في المشرق ، أدب يتسم بطابع المحافظة و يعبق بسمات الأصالة))(1) .

و يعلل محمد مرتاض التشابه الحاصل بين المشرق و المغرب في الأدب قائـــلا : ((لا نريد أن نبتر الصلة التي تربطه بنظيره في المشرق العربي ، لأن الآصرة قائمة ، و الوشيجة ماثلة ، أضف إلى ذلك أن القريحة العربيـــــة ــ و إن

---

*- لقد وصف الله تعالى طالوت و أثنى عليه بصفات حسية و أخرى نفسية على لسان أحد أنبيائه إلى بني إسرائيل ، فقال عز و جل : ((وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالوتَ مَلِكًا قالوا أَنَّى يَكُونُ لهُ المُلْك عَلَيْــنَا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ قالَ إنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَ زَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَ الجِسْـــمِ وَ اللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَ اللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)) . سورة البقرة ، الآية 247 .

(1)- عمر الدقاق : ملامح الشعر الأندلسي ، دار الشرق العربي ، بيروت ، 1973م ، ص 43 .

تباعــدت سكنا ــ فإنها تتشابه إنتاجا بسبب ما يطبع البيئة و العقلية و الحضارة العربية التي تستمد ضياءها من هموم مشتركة ، و من عادات و تقاليد تكاد تتماثل ما بين الشرق و الغرب))[1] .

إن هذه الوشائج القوية و تلك الروابط المتصلة بين طرفي العالم الإسلامي المترامي الأطراف ــ مشرقه و مغربه ــ هي التي تبرر هذا التشابه الحاصل في الشعر العربي في معظم جوانبه الفنية و الموضوعية بهذين الإقليمين من العالم الإسلامي ، و هو أمر طبيعي يمكن تبريره بحتمية التشابه القائم بين الأصل و فرعه

((فقد حافظ المدح على الأسلوب القديم و كان الشعراء يعنون بالاستهــــلال و حسن التخلص ، و ربما جعلوا صدور مدائحهم وصفا للخمر أو للطبيعة أو للبلد الذي نشأ فيه الشاعر أو للمرأة التي أحبها ، و قلما شذ بعضهم عن هذا السبيل ، كما وصفوا الفلاة و الناقة و الجواد و وقفوا على الديار و الأطلال و لكنهم لم يطيلوا وصفهم هذا و يستفيضوا فيه . و لم يغرقوا في استعمال الغريب))[2] .

و ما يقال على الشعر الأندلسي ينسحب تلقائيا على الشعر المغربي ، فالأندلس و المغرب يشكلان إقليما واحدا لا يتجزأ ، و أن الأندلس قد خضعت للدول التي قامت في المغرب في معظم الفترات التاريخية للتواجد العربي و الإسلامي بها ، بالإضافة إلى حركة التنقل الكثيفة لأدباء و شعراء المغرب و الأندلس نحو كلا الإقليمين ، كما أن كتب التاريخ و الأدب كثيرا ما تعمم تسمية الأندلس لتشمل بلاد المغرب و العكس صحيح .

فقد تبنى الشعراء المغاربة و الأندلسيون في مدائحهم تلك القيم و الفضائل التي ما فتئ النقاد يرددونها مشرقا و مغربا ، و كانت هذه الصفات بمثابة المجال الأمثل التي دارت فيه قصيدة المديح ، و شكلت لحمتها و سداها .

---

(1)- محمد مرتاض : النقد الأدبي القديم في المغرب العربي – نشأته و تطوره – (دراسة و تطبيق) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2000م ، ص 31 .

(2)- جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ، دار المعارف ، مصر ، 1980 ، ص 114 .

((و لعلنا لا نجد شعراء الأندلس في تلك الحقبة يتجاوزون هذه الصفات السابقة إلى غيرها من الصفات الحسية ... و إدراكهم أن القيم التي ينبغي أن يعول عليها في المفاضلة بين ممدوحيهم إنما هي القيم المعنوية و النفسية و العقلية التي سرعان ما تتحول من خلال ربطها بشخص الممدوح إلى نماذج قيمية تبقى و تخلد ، و لا تزول أو تفنى بسقوط الأشخاص أو زوال ملكهم))[1] .

و لم يخرخ ابن الأبار القضاعي ــ بوصفه شاعرا أندلسيا ولادة و مغربيا وفادة و وفاة ــ في مدائحه بالبلاط الحفصي عن التقاليد العربية المتوارثة التي رسخها الشعر العربي خلال مساره الطويل ، و أعلى من شأنها النقد القديـــــــم ، و بخاصة تلك الموضوعات الأثيرة في نفس العربي سواء كان شاعرا أو متلقــيا ، و من هذه الموضوعات و الصفات : الشجاعة و الكرم و المجد و الحلم و النجــدة و الدين و ما أشبه ذلك .

---

(1)- أشرف محمود نجا: قصيدة المديح في الأندلس – قضاياها الموضوعية و الفنية عصر الطوائف – دار الوفاء ، مصر ، ط 1 ، 2003م ، ص 43 .

ب - الموضوعات :

1- المدح بالمجد :

من الصفات التي وسم بها ابن الأبار القضاعي في شعره ممدوحيه من الأسرة الحفصية الحاكمة ، انتسابهم إلى المجد و انتساب المجد إليهم ، فمجدهم قد سما على الكواكب النيرة ، و أفعالهم و أقوالهم إنما تهدف إلى تحقيق أمجاد جديدة تضاف إلى الأمجاد التليدة التي حققها آباؤهم من قبل ، فهم قد ورثوا المجد أبا عن جد و كابرا عن كابر فسادوا الناس و شادوا الممالك و سموا على الملوك و ارتفعوا على الكواكب ، و لا غرو في ذلك فما حققوه من عز و ما بلغوه من مدنية يشهد لهم بالمجد و السؤدد .

يقول ابن الأبار مادحا السلطان أبا زكريا الحفصي بمناسبة تقليد ابنه أبا يحيى إمارة بجاية سنة(638هـ) :

مَلِكٌ أنَافَ عَلَى المُلُوكِ مَحَامِدًا ... وَ مَحَاتِدًا وَ مَنَاسِبًا وَ مَنَاصِبَا

تَنْمِيهِ آبَاءٌ كِرَامٌ لِلعُـــــلىَ ... كَثَرُوا النُّجُومَ مَقَانِبًا* وَ مَنَاقِبَا

بَيْتُ الإِمَارَةِ بَيْتُهُ وَ بِحَسْبِــهِ ... حَسَبًا يُشَقُّ عَلَى الثَّوَاقِبِ ثَاقِبَا (1) .

يصف ابن الأبار القضاعي في هذه الأبيات ممدوحه ـ السلطان أبا زكريا الحفصي ـ بالرفعة و المجد الذي يفوق أمجاد غيره من الملوك و السلاطين ، فأفعاله التي يحمد عليها كثيرة ، و آثاره مشاهدة للجميع ، فلا ملك يدانيه رفعة في المنصب و لا يقاربه في النسب الشريف ، و أنى لا يتأتى له هذا المجد و تتحقق له هذه الرفعة و هو سليل أسرة قد ورثت المجد كابرا عن كابر ، فآباؤه فوق عدد

---

*- مقانبا: هي الكتيبة من الجيش ، و المقنب من الخيل : مابين ثلاثين إلى أربعين ، و قيل : زهاء ثلاثمائـة ، و في حديث عمر – رضي الله عنه – و اهتمامه بالخلافة ، فقد ذكر له سعد حين طعن ، فقال : ذاك إنما يكون في مقنب من مقانبكم ، و المقنب بالكسر : جماعة الخيل و الفرسان ، و قيل هي دون المائة ؛ يريد أنه صاحب حرب و جيوش . للمزيد ينظر / ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (قنب) ، جـ 1 ، ص 168 .

(1)- ابن الأبار : الديوان ، ص 69 .

النجوم و مناقبهم و صفاتهم لا تعرف الأفول ، بل إن نسب الممدوح ليسمو و يرتفع كالنجم فوق سائر نجوم السماء جميعا.

و قال من قصيدة أخرى على روي العين من بحر الكامل ، يمدح الخليفة المستنصر الحفصي و يهنئه بالشفاء من مرضه و يسترضيه و ذلك سنة(657هـ) :

مَلِكٌ تَقَدَّسَ فِي المُلُوكِ مَقامُـــهُ فَخَصَائِصٌ مَلَكِيَّةٌ وَ طَبَائِـــــعُ

أَضْحَى لَهُ شَرَفُ الكَمَالِ مُسَلَّمًا هَيْهَاتَ مَا فِي العَالَمِينَ مُنَـــازِعُ

فِي المُونِقِينَ: رُوَائِهِ وَ ثَنَائِـــهِ مَا تَشْتَهِيهِ نَوَاظِرٌ وَ مَسَامِـــعُ

فَرَعَ الكَوَاكِبَ فِي التَّرَقِّي بَيْتُـــهُ للهِ بَيْتٌ لِلْكَوَاكِبِ فَـــــارِعُ [1] .

يمدح ابن الأبار الخليفة الثاني للدولة الحفصية ، معددا مناقبه و شمائله ، فمقام ممدوحه أعلى من أن يبلغه غيره من ملوك الأرض ، فخصائص الملـــك و صفات السيادة مقصورة عليه ، فقد كمل الممدوح فليس باستطاعة الناس جميعا أن تنافسه في كماله و مجده ، ثم يدعو له بالشفاء و العافية من مرضه ، كما أن بيت الممدوح قد سما مجدا و عزة على الكواكب فهي دونه مكانة .

و قال أيضا يمدح أبا زكريا الحفصي و يحثه على نجدة الأندلس و تحريرها من الاحتلال الصليبي :

مَلِكٌ أَمَدَّ النَّيِرَاتِ بِنُـــورِهِ وَ أَفَادَهَا لأْلاَؤُهُ لأْلاءَهَـــــا

خَضَعَتْ جَبَابِرَةُ المُلُوكِ لِعِزِهِ وَ نَضَتْ بِكَفِّ صَغَارِهَا خُيَلاءَهَا[2]

يقول الشاعر إن الكواكب النيرة التي تضيئ عتمة الليل تستمد نورها من نور ممدوحه ، و إن إشراق وجهه و تلألأه سببا في تلألأ هذه الكواكب ، و ذلك تمجيدا و تعظيما و مبالغة في وصف مكانة ممدوحه السامية و فضله الذي فاق كل فضل ، على سبيل المبالغة و ادعاء ، فقد انقاد لعزه و سلطانه عظماء الملوك وكبراء السلاطين صاغرين .

---

(1)- المصدر السابق : ص 356- 357 .
(2)- المصدر نفسه : ص 38 .

و يقول كذالك من القصيدة نفسها :

وَسِعَ الزَّمَانَ فَضَاقَ عَنْهُ جَلاَلَةً   وَ الأَرْضَ طُرًا ضَنْكَهَا وَ فَضَاءَهَا

مَا أَزْمَعَ الإِيغَالُ فِي أَكْنَافِـــهَا   إِلاَّ تَصَيَّدَ عَزْمُهُ زُعَــمَاءَهَــــا

دَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَ شُمٌّ مُلُوكِــهَا   فَاحْتَلَّ مِنْ رُتَبِ العُلَى شَمَاءَهَـــا(1)

فابن الأبار يرى أن ممدوحه قد بلغ من الجلالة و المجد مبلغا عظيما ، فلم يستطع الزمان احتواء مجده و جلالته ، كما أن المكان ــ كذلك ــ أصبح لا يتسع لمجد هذا الممدوح ، فقد امتدت فتوحاته إلى كل الجهات ، فالأرض ببرها و فضائها قد دخلت في حماه ، و أن ملوك الأرض و زعمائها قد خضعوا لعزمه و إرادته ، فتبوأ الممدوح أعلى درجات المجد ، و تسنم أرفع قمم السؤدد .

و يمدح ابن الأبار الحفصيين بالمجد و السؤدد حيث يقول من قصيدة على روي الراء من بحر الرمل :

تَخِذَ النَّاسُ عُلاَهُمْ سُنَـــنًا   وَ تَلاَ الدَّهْرُ حُلاَهُمْ سُــــوَرَا

فَلَهُمْ مِنْ عِزَّةٍ أَنْ يَفْخَـرُوا   وَ عَلَى حُسَّدِهِمْ أَنْ تُقْصِــرَا

لاَ يَنَالُ الفَوْزَ إِلاَّ رَاشِـــدٌ   حَجَّ شَرْعًا بَيْتَهُمْ وَ اعْتَمَــرَا

بَيْتُ عَلْيَاءَ سَمَتْ أَطْرَافُـــهُ   وَ رَسَتْ بَيْنَ الثُّرَيَّا وَ الثَّرَى(2)

يقول الشاعر إن الناس قد اتخذوا المجد و الرفعة التي حققها الحفصيون مثالا يحتذا و سنة تتبع لكل من أراد نيل العلا و السؤدد ، كما أن الدهر قد أخد يردد محامد الحفصيين و محاسنهم منتشيا بذكرهم كما يتلو المقرئ سور القرآن الكريم ، فحق لهم أن يفخروا بهذه العزة التي تحققت لهم ، و على حسادهم و منافسيهم أن يتوقفوا عن مجاراتهم ، فلا مجال لإدراك هذا المجد ، فمن أراد أن يحقق الفـــوز و النجاح فما عليه إلا زيارة مملكة بني حفص و الانضواء تحت لوائها ، فقد علا نجم هذه المملكة و سما حتى بلغ الثريا .

(1)- المصدر السابق : ص 38 .
(2)- المصدر نفسه : ص 186 .

و يقول أيضا من القصيدة نفسها :

أَطْلَعَتْ مِنْهُ اللَّيَالِي ، بُورِكَتْ، فِي سَمَاءِ المَجْدِ بَدْرًا نَيِّـــرًا
أَحْرَزَ السُّؤْدَدَ عَنْ آبَائِــــهِ وَ اقْتَفَاهُمْ أَكْبَرًا فَأَكْـــــبَــرًا[1]

يصف الشاعر في هذه المقطوعة ولي العهد أبا يحيى ــ حاكم بجاية ــ أن مجده و فضله بالنسبة للرعية كمجد و فضل القمر في منتصف الشهر ، و قد حقق هذه الرفعة و أحرز ذلك المجد من آبائه الأفاضل ، فسار على منهاجهم ، و تمسك بمحامدهم و فضائلهم التي ورثوها كابرا عن كابر ، فهو خير خلف لخير سلف .

لقد تمكن ابن الأبار من خلال مدح الحكام الحفصيين بالمجد و السؤدد ، من نشر محاسن هذه الدولة الفتية و المشاركة الفعالة في الدعاية لها و الترويج لحكمها الراشد بين عامة الناس و خاصتهم من جهة ، و ربط علاقات الود و الصداقـــــة و الترقي في المناصب السامية داخل البلاط من جهة أخرى ، متخذا في ذلك العزف على الأوتار الحساسة في نفوس حكام بني حفص وسيلته من أجل تحقيق آمالـــــه و طموحاته السياسية المعلنة منها و الخفية ــ على غرار ما فعله المتنبي في بلاط سيف الدولة الحمداني أو بلاط كافور الإخشيدي ــ مستثمرا في ذلك موهبته المبدعة و علمه الغزير .

و سعى الحكام الحفصيون بدورهم إلى تقريب الكتاب و الشعراء من بلاطهم ، و إحاطتهم بالرعاية و أسباب النعمة ، و استعمالهم كوسيلة إشهار للتعريف بمبادئ دولتهم و الدفاع عن حقهم في الخلافة أمام مناوئيهم و خصومهم من الموحديـــــن و بقية الممالك المستقلة ، و قد كان ابن الأبار أحد هؤلاء الشعراء الذين أنيطت بهم هذه المهمة ، فكان مدحه بالمجد و السؤدد للحفصيين من العوامل التي ساهمت في ترسيخ دعائم هذه الدولة الفتية و توسيع قاعدتها و تخليد مآثرها .

---

(1)- المصدر السابق : ص 187 .

2- المدح بالشجاعة :

أدار ابن الأبار الكثير من مدائحه بالبلاط الحفصي حول موضوع الشجاعة التي يتحلى بها الممدوح ، فقد تحدث عن الإقدام و الجرأة في خوض غمار الحرب و التصدي للأعداء الخارجيين و مجابهة المناوئين الداخليين ، فالممدوح لا يخشى المخاطر و لا يتوانى عن موجهة الأهوال ، كما يتميز بالصبر و حسن التدبير ، فقد حنكته التجارب و مقارعة الخطوب .

و لقد كان لخصوصية المرحلة التي عاشها ابن الأبار في البلاط الحفصي ، أثرا واضحا في تركيزه من خلال مدائحه على هذه الصفة التي طبعت ممدوحيه الحفصيين ، فالإمارة الحفصية في طور النشأة و مرحلة التأسيس التي تتطلب قدرا كبيرا من الشجاعة و الصبر و حسن التدبير التي يفترض أن تتوفر في أشخاص حكام هذه الدولة الناشئة ، من أجل إرساء قواعدها و رفع دعائمها و مجابهة المتربصين بها في الداخل و الخارج .

يقول ابن الأبار مادحا السلطان الحفصي من قصيدة رائية على بحر الرمل :

وَ إِذَا مَا شَرِيَ الشَّرُّ فَلَــــمْ   يَقْتَصِرْ حَتَّى يَجُزَّ القَصَــرَا

حَسَمَ الأَوْجَالَ*شَهْمًا بَطَـــلاً   وَ فَرَى الأَحْوَالَ عَضْباً ذَكَرَا[1].

يصف الشاعر ممدوحه بالحزم و الشجاعة ، فإذا انتشر الشر و عم البلاء من الأعداء ، تصدى له أبو يحيى ـــ حاكم بجاية ـــ ليستأصل شأفة الظلم و يقطع دابر الفتنة بشجاعة نادرة و عزم لا يلين ، فمن صفاته : الحسم و الشهامة و البطولة في مواجهة الشدائد و مقارعة الأهوال .

و يقول كذلك من القصيدة نفسها :

وَ أَمَدُّ النَّاسِ فِي البَأسِ مَــدًى   وَ الرَّدَى عَنْ نَابِهِ قَدْ كَشَّرَا

نَعَّمَ السَّمْعَ بِمَا شَيَّـــــــــــدَهُ   مِنْ مَعَالٍ وَ أَقَرَّ البَصَـــــرَا

---

*- الوجل: الفزع و الخوف. للمزيد ينظر/ابن منظور: لسان العرب المحيط، مادة (وجل) ، جـــ 3، ص 88 .

(1)- ابن الأبار : الديوان ، ص 187- 188 .

لَيْسَ يَرْجُو مَنْ عَصَى مُعْتَصَمًا   مِنْ عَوَالِيهِ وَ لاَ مُعْتَصَـــــرَا
هَذِهِ الأَحْيَاءُ قَدْ دَوَّخَـــــــــهَا   فَسَلِ البِيضَ بِهَا وَ السُّمَــرَا
زَارَهَا لَيْثًا مَهِيـــــــــبًا زَأْرُهُ   لاَ يُهَابُ اللَّيْثُ حَتَّى يَــــزْأَرَا
مُهْدِرًا مِنْ دَمِهَا مَا حَقَنَـــــتْ   وَ دَمُ المُرَّاقِ يَمْضِي هَــــدَرَا
غَادَرَ الغَدْرَ وَ مَنْ دَانَ بِــــهِ   لِلعَوَالِي وَ العَوَافِي جَـــــزَرَا
وَ ثَنَى لِلذُّلِّ وَ الإِذْعَانِ مَــنْ   عَنَّ فِي سُلْطَانِهِ وَ اسْتَكْـــبَرَا
أَوْحَدٌ تَخْدُمُهُ أَيَّامُــــــــــــهُ   وَ تُوَالِيهِ نَهَى أَوْ أَمَــــــــرَا[(1)]

لقد جمع ابن الأبار في هذه المقطوعة طائفة كبيرة من صفات الشجاعـــــــة و البأس و الإقدام في ممدوحه ، فبأسه و بلاءه في ميدان المعركة يفوق بأس الناس جميعا ، و خاصة إذا جسم الكرب و عظم الخطب و أضحى الموت يتخطف الأبطال من كل حدب و صوب ، كما أن للممدوح آثاره العظيمة في السلم ، فقد حقق الأمن و الرفاهية لرعيته فأنباء مكتسباته قد شنفت الأسماع ، و صور منجزاته قد خلبت الأبصار ، كما تصدى للعصاة و المعتدين فلا سبيل لهم في النجاة من قصاصه العادل ، و لا مفر لهم من عواليه و رماحه ، و قد دوخ خصومه و مناوئيه في مختلف الجهات ، فشجاعة الممدوح و هيبته كشجاعة الأسد و هيبته إذا رفع صوته بالزئير ، فقد أهدر دم الخارجين عن طاعته و ذلك جزاء كل خائن ، و تركهم جثثا هامدة نهشا للسباع و جوارح الطير ، كما أن عدالته قد أنزلت العقاب بكل سلطان ظالم و متجبر ، فأصبح ذليلا بعد عزة مستسلما بعد عناد .

و يمدح ابن الأبار المرتضى الحفصي بالشجاعة و الإقدام من قصيدة على روي الغين من بحر الطويل ، و ذلك بمناسبة بيعة مدينة المرية الأندلسية له سنة (643هـــ) :

تَخِيمُ الأُسُودُ الغُلْبُ عَنْهُ مَهَابَةً   فَمَا الثَّعْلَبُ الرَّوَّاغُ مِنْهَا بِأَرْوَغَـــا

---
(1)- المصدر السابق : ص 188 .

وَ تُبْدِي لَهُ العَلْيَاءُ هَزَّةَ مِعْطَفٍ بِمَا هَزَّ فِي الدَّمْرِ القَنَاةَ وَ شَغْشَغَا
يُلاَقِيهِ لَبَّسًا مِنَ السَّرْدِ أَزْرَقاً فَيثْنِيهِ مِنْ قَانِي الدِّمَاءِ مُصَبَّغَا(1).

إن شجاعة الممدوح و مهابته تجعل أشرس الأسود تتراجع أمامه ذليلة صاغرة مثلها في ذلك مثل الثعالب ، و لشجاعته و إقدامه فإن العلياء و الرفعة تهتز فرحا به مثلما يهز و يحرك رمحه في الأبطال الذين ينازلهم في ساحة المعركة ، كما أن أشد المقاتلين المدججين بالسلاح و المتحصنين بالدروع الزرقاء إذا اعترضوه في ساحة المعركة ، لا يغادرهم إلا و هم صرعى مضرجين في دمائهم الحمراء القانية .

و يقول ابن الأبار مادحا السلطان أبا زكريا بالشجاعة من قصيدة على روي الهاء من بحر الكامل :

أَعْيَا عَلَى الأَعْدَاءِ نَيْلُ نَجَاتِـهَا أَنَّى وَ سَيْفُكَ سَافِكٌ مُهَجَاتِـهَا
لاَ رَيْبَ فِي النَّصْرِ العَزِيزِ لِدَعْوَةٍ آرَوُّهَا فِي اليُمْنِ مِنْ رَايَاتِهَا
حُمِّلَتْ أَنْبَاء الفُتُوح فَهَاتِـهَا لِتَخُطَّهَا الأَيَّامُ فِي صَفَحَاتِهَـا(2)

يقول ابن الأبار إن الأعداء قد يئسوا من النجاة من القصاص العادل ، طالما أن السلطان أبا زكريا لهم بالمرصاد لرد كيدهم و سفك دمائهم ، فلا شك في أن النصر سيكون حليف دعوته الميمونة ، و قد بدأت الأنباء بالفتوح و الانتصارات تصل من مختلف الجهات ليسجلها التاريخ في صفحاته الخالدة .

و يقول أيضا من قصيدة على روي الهاء من بحر الوافر ، مادحا السلطان أبا زكريا الحفصي بالشجاعة :

لَيْثُ الحِفَاظِ تَعَلَّمَتْ إِقْدَامُهُ أَشْبَالُ أَبْنَاءَ لَهُ أَشْبَاهُ(3)

يصف الشاعر ممدوحه بأنه أسد في الشجاعة و الإقدام ، و قد ورث الأبناء عنه هذه الصفة ، فلا مجالا للتردد و لا مكانا للجبن في خوض غمار الحروب

(1)- ابن الأبار : الديوان ، ص 369 .
(2)- المصدر نفسه : ص 407 .
(3)- المصدر نفسه : ص 409 .

و مواجهة المخاطر و الصعاب ، مشيرا إلى المثل العربي السائر : هذا الشبل من ذاك الأسد .

لقد أحدث مدح ابن الأبار الحفصيين بالشجاعة و الإقدام ، صدى كبيرا في نفوسهم ، فقربوه من بلاطهم فأصبح رئيس ديوان الترسل عندهم ، فالشجاعة من الصفات التي حرص الحكام الحفصيون على أن ينعتوا بها خاصة أن الدولة الحفصية لا تزال في طور التأسيس و إرساء القواعد ، فالمرحلة تتطلب قدرا كبيرا من الشجاعة لمواجهة الأخطار المحدقة بالمملكة الفتية على جميع الأصعدة و كل المستويات ، فكان المدح بالشجاعة من طرف ابن الأبار بمثابة الهرمون الحيوي المنشط للجسم ، فازداد الحماس و تطلعت الهمم إلى انجاز الكثير من الأهـــــــداف و الطموحات في التوسع ، و تحقيق الانتصارات في المعارك و الحروب التي خاضوها ضد أعدائهم و خصومهم .

3- المدح بالكرم :

شكل الكرم موضوعا مفضلا في قصيدة المديح العربية خلال مسارها الطويل ، فقد استغرق هذا الموضوع الكثير من صفحات الدواوين الشعرية ــ و لا غرابة في ذلك ــ فقد تغنى العربي منذ جاهليته بهذه الصفة التي ميزته عن غيره من الأمم .

و الكرم خلاف البخل و نقيض التقتير ، هذا الأخير الذي طبع بعض الشعوب ، حتى لنجد الجاحظ (ت255هــ/ 869م) يؤلف كتابه البخلاء ، مدحا للكرم بعده خلة عربية و ذما للبخل بعده خلة فارسية ، فهم يرون البخل ضربا من الاقتصاد و جنسا من حسن التسيير، غير أن الكرم قد يخرج عن حد الاعتدال إلى التبذير و الإسراف، فالفضيلة كثيرا ما تكون وسطا بين رذيلتين ، فالكرم ــ مثلاــ يتوسط البخل من جهة و التبذير من جهة أخرى ، فهذه المفهومات تحتاج للمس خفيف و مهارة عالية لتوضع موضعها الصحيح ، و قد نوه القرآن الكريم بالاعتدال في الإنفاق و البذل* .

يقول ابن الأبار مادحا الحفصيين بالكرم و الجود من قصيدة على روي الراء من بحر الرمل :

وَ انْتَجِعْهُمْ مُوسِرًا أَوْ مُعْسِرًا   تَرِدُ الجُودَ زُلاَلاً خَضِــــرَا

كَيْفَ يَخْشَى عَائِلٌ تَهْلُــــكَةً   وَ أَبُو يَحْيَى مُعِيلٌ لِلْـــوَرَى

مَلِكٌ يَدْعُو نَدَاهُ الجَفَــــلَى   **حِينَ لاَ تَدْعُو المُلُوكُ النَقَرَى**(1).

يقول ابن الأبار إن بني حفص قد بلغو الغاية في الجود و الكرم ، و قد أصبحوا قبلة للناس ومقصدا لكل ذي حاجة ، فهم لا يردون قاصدهم خائبا ، سواء

---

*- قال الله تعالى : ((وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلولَةً إلىَ عُنُقِكَ وَ لا تَبْسطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقعد مَلومًا مَحْصُورًا)) . ينظر / سورة الإسراء ، الآية 29 .

- دعاهم الجفلى أي بجماعتهم ، و قال الأصمعي الأجفلى ، هو أن تدعو الناس إلى طعامك عامة ، قال طرفة : **نَحْنُ فِي المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى   لا تَرَى الآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرْ

و قال الأخفش : دعي فلان في النقرى لا في الجفلى و الأجفلى أي دعي في الخاصة لا في العامة ، و قال الفراء : جاء القوم أجفلة و أزفلة أي جماعة و هي الجماعة من كل شيئ . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (جفل) ، جــ 1 ، ص 473 .

(1)- ابن الأبار : الديوان ، ص 187 .

كان فقيرا أم غنيا ، فجودهم و كرمهم أصبح مضربا للأمثال ، فكيف ــ و الحال هذه ــ يخشى الفقير الجوع و يخاف الهلاك ، فالممدوح ــ ولي العهد ــ قد تكفل بإعالة الناس جميعا ، فكرمه قد تجاوز كرم غيره من الأجواد و المحسنين ، فعندما يوجه هؤلاء دعوتهم لخاصة الناس ، فالممدوح دعوته تشمل عامة الناس و خاصتهم

و يقول من القصيدة نفسها :

بَاذِلٌ وَ الغَيْثُ فِيهَا بَاخِــلٌ سَنَةٌ شَهْبَاءَ تُزْجِــي العِبَــــرَا
تُطْفِئُ الأَجْوَادُ فِيهَا نَارَهَا وَ هْوَ فِي الهَضْبِ يَشُبُّ العَنْبَرَا[1].

إن كرم الممدوح و جوده لا يعرف التوقف ، فقد تحبس السماء ماءها و تبخل بالغيث على الأرض فتضحي جدباء قفراء لا ماء فيها و لا نبات ، كما أن الأجــواد و الكرماء يضطرون في سنوات القحط و الجفاف إلى إطفاء نارهم ، حتى لا يهتدي إليهم الساري طلبا للرفد و المعونة ، ففي مثل هذه الظروف الصعبة يشعل الممدوح ناره بالأماكن المرتفعة ليستدل بها عابوا السبيل طلبا للمساعدة و التماسا للقرى .

و يمدح ابن الأبار السلطان المرتضى الحفصي بالكرم بمناسبة ، بيعة المرية له سنة (643هــ) من قصيدة على روي الغين من بحر الطويل :

يُبِيحُ انْهِلاَلاً جُودَهُ وَ تَهَلُّـــــــلاً* وَ يَحْظُرُ أَنْ يَأْسَى المَسِيفُ وَ يَنْشَغَا
وَ مَا يُحْسِــنُ القَرْغَانِ صُنْعَ صَنَائِعٍ تُرَبُّ وَ إِنْ صَــــبًّا مَلِيئًا وَ أَفْــرَغَا
كَفِيلٌ نَدَاهُ المُسْتَهِلُّ وَ بَأْسُــــــــهُ بِأَنْ يَشْعُرَ السِّكِّيتُ فِيهِ وَ يَنْبُــــغَا**[2].

---

(1)- المصدر السابق : ص 187 .
*- في هذا الشطر إحالة ضمنية على بيت زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان ، حيث يقـــــــول : **تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مَتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الذِي أَنْتَ سَائِلُهْ**. للمزيد ينظر/ زهير بن أبي سلمى : الديوان ، شــرح و تحقيق أحمد طلعت ، دار القاموس الحديث و دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، ص 132 . أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي : بهجة المجالس و أنس المجالس و شحذ الذاهــــن و الهاجس ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، 1402هــ/1982م ، القسم 1 ، المجلد 2 ، ص 507 .
**- السكيت : قليل الكلام ، و هو أخر الخيل في حلبة السباق أي الذي يأتي عاشرا . للمزيـــد ينظـــــر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (سكت) ، جــ 1 ، ص 170 .
(2)- ابن الأبار : الديوان ، ص 368- 369 .

يقول الشاعر إن الممدوح يسمح بأن يجري جوده و كرمه و ينسكب ، و هو متهلل الوجه مسرور النفس بما يفعل ، كأنه هو الذي يأخذ و ليس هو الذي يهب ، كما أنه يحرص كل الحرص على أن لا يحزن و يغتم من أصابته مصيبة في ماله نغصت عليه حياته و أوشكت أن تقطع أنفاسه ، فكرم الممدوح كفيل بتعويض خسارته و مداواة جراحه ، و قد تجاوز كرمه و جوده كل الحدود المعروفة في ذلك، فلا يستطيع غيره من الأجواد و الكرماء مجاراة صنيعه و إحسانـــه ، و إن أجهدوا أنفسهم في منافسته و مباراته .

و يقول كذلك من قصيدة على روي العين من بحر الكامل ، مادحا السلطان أبا زكريا الحفصي بالكرم :

ضَايَقْتُ فِي العُذْرِ العُفَاةَ وَ قُلْتُ قَــدْ يَمَّمْتُمُ بَحْرَ النَّدَى فَاسْتَوْسِعُوا

إِنْ تَقْصِدُوا لاَ تُحْجَبُوا أَوْ تَقْرَبُـــــوا لاَ تُبْعَدُوا أَوْ تَسْأَلُوا لاَ تُمْنَعُوا[(1)].

إن الشاعر قد زاحم العفاة و المحتاجين الذين توجهوا قاصدين الممدوح ، ليقضي حوائجهم و يخفف من وطأة الفقر عليهم ، بقوله لهم إنكم تقصدون كريما لا يرد سائلا ، فاطلبوا حاجتكم و وسعوا عن أنفسكم فهذه فرصتكم قد حانت ، لأنكم تقفون أمام السلطان أبي زكريا ، فهو مضرب المثل في السخاء فكأنه البحر في الجود و الكرم ، فلن تحجبوا إذا قصدتموه ، و لن تبعدوا إذا تقربتم منه ، و لن تحرموا و تمنعوا إذا سألتموه .

و قال يمدح أبا زكريا بالجود من قصيدة على روي الصاد من بحر الطويل :

إِلَى جُودِهِ تَثْنِي الأَمَانِي وُجُوهَهَا وَ مَنْ يَتَعَدَّ القَبْضَ أَقْصَى إِلَى القَبْصِ[*]

فَلاَ يَرْجُ ظَمْآنٌ سِوَاهُ لِرَيِّـــــــهِ مُحَالٌ وُجُودُ الظِّلِّ فِي عَدَمِ الشَّخْــصِ[(2)].

---

(1)- المصدر السابق : ص 354 .

*- القبص : التناول بالأصابع بأطرافها ، و هو دون القبض ، و قيل القبص الخفة و النشاط ، و قيل العدو الشديد . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (قبص) ، جــ3 ، ص7 .

(2)- ابن الأبار : الديوان ، ص 337 .

يقول الشاعر إن ممدوحه قد أصبح قبلة لكل ذي حاجة ، بل إن الأماني و الغايات نفسها قد يممت وجوهها إليه طلبا لنواله ، و استجداء لجوده و كرمه ، فجود الممدوح أمر بديهي ؛ ذلك أن الذي يتجاوز القلة و التقتير و يتخلص من الشح ، لابد أنه يرغب في الوصول إلى كثرة الإنفاق و غزارة الجود و الكرم ، كما أن الممدوح قد أصبح بكرمه ملاذ كل محتاج و رجاء كل فقير ، فلا كريم غيره من ملوك عصره و لا جواد سواه من سلاطين زمانه .

لقد استطاع ابن الأبار أن يرسم صورة مشرقة للحكام الحفصيين من خلال وصفهم بالكرم و الجود ، مستخدما في ذلك كل طاقات اللغة و إيحاءاتها التعبيرية ، و ما توفره الأدوات البلاغية من تشبيه و استعارة و مجاز ، لتجسيم و تشخيص ما هو معنوي و بعثه في صورة محسوسة ، فالحفصيون تحولوا إلى نماذج حية للكرم و الجود ، بل لقد فاقوا في ذلك الناس جميعا ، فلا كريم يدانيهم و لا جواد يقاربهم ، فهم مقصد كل محتاج و ملاذ كل فقير أو عابر سبيل ، فالكرم عند بني حفص شيمة فطرية متأصلة فيهم ، و ليس تصنعا أو بحثا عن السمعة و الذكر الحسن .

4- المدح بالعــدل :

من الصفات و الفضائل التي حرص الحكام على أن يمدحوا بها فضيلة العدل بعدها من أسس الحكم الراشد ، فهذه الصفة من شأنها أن ترفع من مكانة الممــدوح و تعلي من منزلته و تضفي عليه الهيبة و التقدير ، و تزداد أهميتها أكثر لاسيما إذا كان الممدوح حاكما له مسؤوليات يمارسها في تسيير شؤون رعيتـــه ، و كيف لا يحرص حكام الإمارة الحفصية على أن يمدحوا بالعدل ، و قد بدلوا قصارى جهدهم لربط نسبهم بالفاروق عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ و الذي يمثل نموذجا عاليا للعدل في وجدان كل مسلم ، من هنا فقد شكل المدح بالعدل نقطة مركـــزية و علامة مضيئة في قصيدة المديح عند ابن الأبار في البلاط الحفصي .

قال ابن الأبار يمدح أبا زكريا الحفصي عشية إسناد ولاية العهد لابنه محمد ، في أعقاب وفاة أخيه زكريا حاكم بجاية سنة (646هــ) ، من قصيدة دالية على بحر الطويل :

وَ شَادَ بِحَيْثُ النَّيِّرَاتُ بِنَاءَهَا عَلَىَ عَمَدٍ لِلْعَدْلِ قامَتْ عَلَىَ عَمَدِ[1] .

لقد شيد الممدوح دولته و أقام خلافته حتى بلغت نجوم السماء سناء و رفعة ، على أسس صلبة و أعمدة راسخة هي : أعمدة العدل و أسس القسط ، فقد كانت العدالة مقصده في دولته و غايته في حكمه و خلافته ، فالشاعر بمدحه هذا يحيل على القول المأثور : العدل أساس الملك .

و يمدح ابن الأبار أبا زكريا بالعدل ، و يهنئه بإقبال الملك و الدنيا عليـــه ، و ذلك بمناسبة فتحه تلمسان و انضوائها تحت لوائه سنة(640هــ) ، فيقول من قصيدة على روي الواو من بحر الطويل :

هَنِيئًا إمَامَ العَدْلِ إقْبَالُ دَوْلَةٍ تَهُزُّ لَهَا الأَيَّامُ أعْطَافَهَا زَهْوَا[2] .

---

(1)- المصدر السابق : ص 164 .

(2)- المصدر نفسه : ص 423 .

يهنئ ابن الأبار السلطان أبا زكريا بحكمه الراشد ، و التقدم الحاصل في المملكة التي أقبلت به أيامها السعيدة و أدبرت الأيام الخوالي ، و ذلك بمناسبة العام الجديد ، كما يمدحه بأنه إمام عادل و حاكم مقسط لا جور في حكمه و لا استبداد ، الأمر الذي جعل مملكته تزدهر و تتقلب في النعيم و رغد العيش ، و ما كان هذا التقدم ليحدث لولا العدل الذي تميز به السلطان ، لأن العدل أساس الملك .

و قال يمدح أبا زكريا سنة(640هـ) من قصيدة على روي القاف من بحر الطويل :

إلىَ العَدْلِ وَ الإِحْسَانِ يَهْدِي وَ يَهْتَدِي فَتَأْتَمُّ بِالفَارُوقِ مِنْهُ وَ لاَ فَرْقَا(1) .

إن السلطان أبا زكريا قد تبنى العدل مبدأ و سلوكا في حياته ، فهو يحث غيره على التزام العدل و تحري القسط في ما يقدم عليه من أعمال ، كما أنه ــ كذلك ــ يجعل العدل قبلته و هاديا له في الحياة ، بل لقد بلغ الغاية في عدله بين الناس و إحسانه لرعيته و صار قدوة لهم يتبعونه ، مثله في ذلك مثل عمر بن الخطاب ، فلا فرق بينهما في العدل و لا اختلاف في الإحسان ، و لا غرابة في ذلك طالما أن الممدوح ينتسب إلى عمر الفاروق فهو فرع من أصل .

و قال أيضا يمدح أبا زكريا من قصيدة سينية من بحر البسيط :

قامَتْ عَلَىَ العَدْلِ وَ الإِحْسَانِ دَعْوَتُهُ وَ أَنْشَرَتْ مِنْ وُجُودِ الجُود مَا رُمِسَا*(2) .

ينوه الشاعر بفضيلتي العدل و الإحسان في ممدوحه ، و قد قامت دعوته الميمونة على هذين الركنين ، فهما أساس الملك و معقد بقاء الحكم و السلطان ، و قد أحيت دولة الممدوح بالجود كل الفضائل و الخلال العالية التي أوشكت أن تزول و بعثتها نابضة بالحياة من جديد .

---

(1)- المصدر السابق : ص 385 .
*- الرمس : الصوت الخفي ، و رمس الشيء طمس أثره ، و كل شيء هيل عليه التراب . للمزيد ينظر / ابن منظور : لسان العرب المحيط : مادة (رمس) ، جـ 1 ، ص 1223 .
(2)- ابن الأبار : الديوان ، ص 398 .

و قال يمدح أبا زكريا بمناسبة إسناده ولاية العهد لابنه محمد المستنصر أواخر سنة (646هـ) من قصيدة نونية على بحر الطويل :

كَأَنِّيَ بِالزَّوْرَاءِ تَخْطُبُ أَمْنَهُ   وَ قَدْ بَثَّ فِي مَرَّاكُشَ العَدْلَ وَ الأَمْنَا(1) .

إن عدل الممدوح في رعيته و سهره على تحقيق الأمن لهم ، قد جعله محط الأنظار و معقد الآمال في كل الأقطار الإسلامية مشرقا و مغربا ، فهذه بغداد ـ حاضرة العباسيين ـ تتطلع في شوق إلى الممدوح ، ليجيرها من كيد الأعداء و يحقق لها الأمن و الطمأنينة ، على غرار ما حققه لمراكش التي بايعته و دخلت في حماه طائعة ، فنالت العدل و الأمن و السكينة ، و يشي هذا البيت بالكثير من الإيحاءات الواضحة الدلالة على الحال المزرية التي آلت إليها الدولة العباسية ؛ نتيجة الضعف الذي سرى في أوصالها ، فقد بدأ أعداؤها يتحينون لها الفرص و يتربصون بها الدوائر ، فتطلعت آمال المسلمين نحو قائد إسلامي يمكنه أن يرد كيد الكائدين و يقف في وجه الغزاة المعتدين ، لكن هيهات هيهات فقد تسارعت الأحداث و تعاقبت الوقائع ، و أطبق المغول على بغداد من كل حدب و أحاطوا بها من كل جانب ، و جرعوها ألوانا من كؤوس الذل و الهوان ، فسقطت في أيديهم و سقطت معها الدولة العباسية سنة (656هـ/ 1258م) بعد حكمها للعالم الإسلامي لمدة خمسة قرون و ربع القرن تقريبا ، و سنة بعد ذلك بايع أهل الحجاز المستنصر الحفصي بالخلافة كما مر معنا في موضع سابق من هذا البحث .

إن العدل من الصفات السامية و القيم الرفيعة التي حرص جل الحكام و السلاطين على مر العصور و اختلاف الأقاليم أن يوصفوا بها و أن يأخذوا منها بسهم ، فالعدل من الصفات و الفضائل النفسية الأربعة التي حددها أفلاطون و تبناها النقد القديم و حث على وجوب المدح بها ، لقدرتها على الارتفاع بالممدوح و تمجيده و تخليد ذكره ، و من هنا فقد ركز ابن الأبار مدائحه للحكام الحفصيين على هذه القيمة ، و أكثر من وصفهم بها إما مباشرة أو من خلال ربط نسبهم بالفاروق عمر

(1)- المصدر السابق : ص 297 .

بن الخطاب النموذج الأمثل لعدل الحاكم المسلم على مر القرون واختــلاف الأعصر ، فقد أحدث مدح الشاعر للحفصيين بالعدل أثرا عميقا في نفوسهـــــــم ، و ساهم في تحسين صورتهم لدى الرعية و الرفع من شعبيتهم ، فقربوه و أغدقوا الأموال و الجوائز عليه ، و أصبح من دوي العقد و الحل في البلاط الحفــصي ، فالعدل أساس الملك و عماد الحكم الراشد و مطية تحقيق الأمن و السلم و الاستقرار الاجتماعي و السياسي معا .

5- المدح بشرف النسب :

دأب الشعراء منذ العصر الجاهلي على المدح بالأصل و النسب الصريح ، و التغني بشرف الأرومة و أصالة المنبت ، فقد كان العربي أكثر شعوب الأرض حرصا على نقاوة الأصل و تمسكا بالنسب و دفاعا عن العرض ، حتى لا يختلط نسبه و لا تمتد الألسنة إليه بالهمز و اللمز ، و أدى هذا الاهتمام بالأنساب عند العرب إلى ظهور طبقة النسابين منذ وقت مبكر إلى جانب طبقة الشعراء ، بل لقد تحول الشعر نفسه إلى سجل للأنساب و دليلا على الأصول ، حتى لنلفي عمر بن الخطاب يقول : (رووا أولادكم الشعر فإنه أحفظ للأنساب و أدل على مكارم الأخلاق) .

من هذا المنطلق فقد أدار ابن الأبار ــ على غرار الشعراء العرب ــ مدائحه بالبلاط الحفصي ، على موضوع الأصل و النسب الصريح لممدوحيه من الأسرة الحفصية الحاكمة ، و عمل من خلال قصائده على ربط الحفصيين بنسب عمر بن الخطاب ، و من ثمَّ الانتماء إلى قريش التي نزلت فيها آخر الرسالات السماوية .

قال ابن الأبار يمدح أمير بجاية زكريا أبا يحيى ولي عهد أبي زكريا الحفصي ، وذلك سنة(636هـ) عند التجائه إلى الحفصيين ، من قصيدة رائية من بحر الرمل :

زَكَرِيَّاءَ بْنَ يَحْيَى المُرْتَضَى　　　اِبْنَ عَبْدَ الوَاحِدِ بْنَ عُمَرَا
نَسَبٌ أَبْهُرُ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى　　　لَيْسَ مَاءُ المُزْنِ مِنْهُ أَطْهَرَا
وَ أَبٌ يَخْلُفُهُ ابْنٌ فِي العُلَى　　　كَالجَنَى يَعْقُبُ بَعْدُ الزَّهَرَا
إِنَّمَا آلُ أَبِي حَفْصٍ هُدَى　　　يَكْشِفُ الغَيَّ وَ يَجْلُو السَّرَرَا[(1)] .

يذكر الشاعر سلسلة نسب الأمير الحفصي ــ حاكم بجاية ــ فهو زكريا بن يحيى بن عبد الواحد بن عمر ، فنسب الأمير شريفا طاهرا صريحا ظاهرا ، بل هو

(1)- المصدر السابق : ص 186 .

أوضح و أجلى من الشمس وقت الضحى ، و أنقى من ماء السحاب الذي لم يلامس الأرض و لم يختلط بشوائبها و دنسها ، كما أن الأمير قد أخذ عن أبيه أسباب الرفعة و عوامل المجد و العلى ، فهو ولي عهد السلطان أبي زكريا فالأمير كأنه الجـــــنى و العسل المصفى و السلطان هو الزهر الذي يستخرج منه الرحيق ، ثم يعمم الشاعر مدحه ليشمل كل آل بني حفص الهداة ، الذين هم بمنزلة البدر في هداية الساري في ظلمات الليل و دياجيره .

و قال ابن الأبار يمدح السلطان أبا زكريا و ابنه أبا يحيى ، بمناسبة تقليد هذا الأخير ولاية العهد سنة(638هـ) ، من قصيدة دالية من بحر الطويل :

عَلَىَ زَكَرِيَّاءَ بْنِ يَحْيَى اِلْتَقَى الرِّضَـــى كَمَا اِلْتَقَتِ الأَنْدَاءُ صُبْحًا عَلَى الـــوَرْدِ

عَلَىَ المُرْتَضَى بْنِ المُرْتَضَى فِي أَرُومَةٍ* نَمَتْ صُعْدًا بِالنَّجْلِ وَ الأَبِ وَ الجَـــــدِّ

عَلَىَ المُكْتَفِي وَ المُقْتَفِي نَهْجَ قَصْــدِهِ وَ مُشْبِهِهِ فِي البَأْسِ وَ الجُودِ وَ الجِدِّ(1)

و قال ــ أيضاــ يمدح الحفصيين بالنسب ، على روي الدال من بحر الكامل:

نَسَبٌ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نُورًا وَ مِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُودَا(2)

و يقول مادحا ولي العهد أبا يحيى بالنسب الشريف عند زيارته تونس ــ حاضرة الدولة الحفصية ــ من قصيدة على روي الياء من بحر الوافر :

إِلىَ الفَارُوقِ تُنْمِيهِ السَّجَايَا سَمِيُّ أَبِيهِ يَا لَكَ مِنْ سَمِيِّ

وَمَا طِيبُ الأَرُومَةِ مِنْهُ بِدْعًا زَكَاةُ الفَرْعِ لِلأَصْلِ الزَكِيِّ(3) .

إن أخلاق الممدوح أبي يحيى و سجاياه ، ما هي إلا امتدادا طبيعيا لسجايـــا و أخلاق آبائه و أجداده و منهم الفاروق عمر بن الخطاب ، حيث ينتسب الحفصيون إليه و ينحدرون منه ــ حسب زعم بعض النسابين ــ فشرف الأصل و طيــــــب

---

*- الأرومة : هي المنبت و الأصل ، أو هي أصل كل شيء : قال زهير بن أبي سلمى يمدح قوما بالأصل الشريف : **لَهُمْ فِي الذاهِبِينَ أَرُومَ صِدْقٍ وَ كَانَ لِكُلِّ ذِي نَسَبٍ أَرُومُ** . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (أرم) ، جـ 1 ، ص 50 .

(1)- ابن الأبار: الديوان ، ص 441 .

(2)- المصدر نفسه : ص 441 .

(3)- المصدر نفسه : ص 426 .

الأرومة في الممدوح أمرا ثابتا لا مراء فيه ، فرفعة الأبناء و طيب عنصرهم مردها إلى زكاة أصلهم و نبل منبتهم .

و يمدح السلطان أبا زكريا بالنسب الشريف ، من قصيدة دالية على بحر الطويل قائلا :

إِلىَ الأَصْلِ مِنْ عَدْنَان يُعْزَى عَدِيُهُ وَ لاَ غَرْوَ أَنْ تُعْزَى الصَّوَارِمُ لِلْهِنْدِ[1] .

يشيد ابن الأبار بالأصل الشريف للسلطان أبي زكريا ، فهو ينتسب للعرب العدنانية الذين تشرفوا بتلقيهم آخر رسالات السماء من خلال الرسول محمد صلى الله عليه و سلم ، فقد ذكر النسابون أن آل حفص من سلالة عمر بن الخطاب القرشي ، وبهذا النسب الشريف يكتسب الحفصيون الشرعية الدينية في الحكم إلى جانب الشرعية السياسية التي حققوها بحد السيف ، فنسبهم شريف و أصلهم ثابت ، و لا شك في هذا الأمر طالما أن السيوف القاطعة منسوبة إلى الهند .

لقد سعى الحكام الحفصيون إلى ربط نسبهم بعمر بن الخطاب منذ استقلالهم عن الدولة الموحدية، و ازداد هذا الأمر إلحاحا في خلافة المستنصر الحفصي الذي بايعه أهل الحجاز بالخلافة في أعقاب سقوط الدولة العباسية سنة (656هـ/1258م) ، فازداد طموحه و رغب في نيل الزعامة السياسية و الدينية للعالم الإسلامي و تسمى بأمير المؤمنين ــ كما سبقت الإشارة ــ فكان الشعراء الوسيلة الأمثل في التعريف بالنسب الشريف للحفصيين ، حتى يكتسبوا الشرعية الدينية و يحققوا تعاطف المسلمين قاطبة و التفافهم حولهم بعد تحقيقهم للشرعية السياسية من قبل ، و لم يتأخر ابن الأبار ــ كعادته ــ في الإشادة بالحفصيين و الحديث عن أصالتهم و عراقة نسبهم ، فتعددت صيغ مدحه لهم بذلك ، فمرة يذكر سلسلة نسب الحفصيين و مرة ثانية يصفهم بأنهم أحفاد عمر بن الخطاب و ثالثة يرجعهم إلى العدنانيين الذين ينتسب إليهم الرسول ــ صلى الله عليه و سلم .

---

(1)- المصدر السابق : ص 163 .

و قد تحدث المؤرخون القدماء منهم و المحدثون عن ظاهرة انتحال الأنساب ، و قد انتشرت في بلاد المغرب بشكل كبير خاصة من طرف الأسر الحاكمة في الدول التي تأسست بهذا الإقليم من العالم الإسلامي ؛ بحثا عن الشرعية الدينيـــــــة و استدرارا لعواطف الرعية و كسبا لثقتها ، و بريستيجا سياسيا يضفي على الدولة فخرا و أبهة وحتراما في الداخل و الخارج .

6- المدح بالنجدة و الإغاثة :

النجدة و الاغاثة من مكارم الأخلاق و محاسن الصفات التي تعلقت بها همم الرجال و دعت إليها مروءة الأبطال ، و قد اتصف العربي منذ القديم بالنجـــــدة و الاغاثة ، و جاء الإسلام ليتمم مكارم الأخلاق فنوه بإغاثة الملهوف و حث على نجدة المستغيث ، فأضحت هذه القيمة قادرة لوحدها أن ترتفع بالمتصف بها إلى أعلى درجات الشرف و المجد في حياته و أن تخلد ذكره بعد موته ، فقد خلدت صرخة تلك المرأة المسلمة ــ وا معتصماه ــ ذكر الخليفة العباسي المعتصم على مر العصور ، و راح الشعراء يصفون ممدوحيهم بالنجدة و الإغاثة ، لعلمهم بموقع هذه الصفة الحسن في نفس الممدوح ، و قدرتها على استدرار كرمه و عطفه ، كما كان للأحداث السياسية التي عرفتها الأندلس خلال القرن السابع الهجري ، و ما نجم عنها من سقوط الكثير من المدن الأندلسية في أيدي الغزاة الصليبيين ، الأثر العميق على الشعراء الذين سارعوا إلى طلب النجدة و الاستغاثة للمدن الأندلسية من الإمارات الإسلامية ببلاد المغرب و على رأسها الإمارة الحفصية ، و قد كان ابن الأبار من أبرز شعراء الأندلس في طلب النجدة و الاستغاثة بالحكام الحفصيين ، فوصفهم بالنجدة و الإغاثة في قصائده التي مدحهم بها خلال إقامته في كنفهم .

و قال ابن الأبار مادحا المستنصر الحفصي بالإغاثة و تأمين الخائف و نجدة المستغيث ، على روي الثاء من بحر الوافر :

أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ لَنَا غَـــيَاثٌ فَعِنْدَ المَحْلِ تُسْتَسْقَى الغُيُوثُ

فَلاَ جُوعٌ وَ يُمْنَاهُ الغَــوَادِي وَ لاَ خَوْفٌ وَ قَتلاَهُ اللُّــيُوثُ[*(1)] .

إن الأمير قد أضحى قبلة كل مستغيث و وجهة كل سائل ، فهو عنوان كل خير و مصدر كل بر ، و هذه حقيقة مؤكدة فعندما يقع الجــــــفاف و تجــــــدب

---

*- في هذا البيت إحالة صريحة على قوله تعالى : ((الذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ))، فالشاعر يتناص مع القرآن الكريم لثقافته الدينية التي يمتلكها فهو فقيه قبل أن يكون شاعرا . ينظر/ سورة قريـــش ، الآية 4 .

(1)- ابن الأبار : الديوان ، ص 439 .

الأرض و يزداد البلاء و الكرب ، يسارع الناس متضرعين لطلب المطر و الغيث ، فلا تتعرض الرعية للجوع و الفقر في ظل حكم الأمير الذي تضاهي يداه في الكرم و الإغاثة السحب المشحونة بالمطر ، فالجوع و الخوف في وجود السلطان بعيد الحصول ، كما أَمَّنَ الأميرُ الناسَ من الخوف و الأهوال ، لنجدته و شجاعتـــــــــه و موجهته للأخطار .

و يقول أيضا مادحا أبا زكريا من قصيدة على روي السين من بحر البسيط ، واصفا السلطان بالنجدة و الإغاثة :

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلِ اللهِ أَنْدَلُــــــــــــسَا   إِنَّ السَّبِيلَ إِلىَ مَنْجَاتِهَا دَرَسَــا

وَ هَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا الْتَمَسَتْ   فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا

وَ حَاشِ مِمَّا تُعَانِيهِ حُشَاشَتَــــــــــــهَا   فَطَالَمَا ذَاقَتِ البَلْوَى صَبَاحَ مَسَا*(1)

يستغيث الشاعر ممدوحه و يدعوه لنجدة الأندلس المحاصرة ، فلا سبيل إلى نجاتها من الاحتلال الصليبي إلا أن يسير إليها السلطان الحفصي بجيشه المظفـــــر و خيله التي لا تعرف التخاذل و الهزيمة ، و أنى لها أن تعرف ذلك و هي خيل الله المؤيدة بنصره و المؤزرة بعونه و توفيقه ، فالممدوح هو البطل النموذج و الفارس الذي في مستوى طموحات المسلمين بالأندلس ، لتحقيق النصر و إنقاذهم من مخالب الأعداء و الغزاة الذين أحدقوا بهم من كل جانب و جرعوهم ألوانا من العـــــذاب ، و قد حاول الشاعر هز نخوة السلطان و دغدغة عواطفه الدينية الجياشة بإضفائه عليه صفات البطولة و الشجاعة و النجدة و الإغاثة ، معتمدا في ذلك على صيغة الأمر الذي غرضه الدعاء حينا و الالتماس حينا آخر .

---

*- مسا : أصلها مساء ، فالكلمة ممدودة لكن الشاعر جعلها مقصورة للضرورة الشعرية ، أما من الناحية الصرفية ، فإن قصر الممدود جائز، فقد ذكر ابن جني (ت 392هـ) قائلا: متى أشكلت عليك لفظة ، فلم تدر مقصورة أم ممدودة فاقصرها ، فإن قصر الممدود جائز ، و مد المقصور خطأ ... فالقصر هو الأصل و المد هو الفرع . للمزيد ينظر/ أبو الفتح عثمان بن جني : ما يحتاج إليه الكاتب من مهموز و مقصور و ممدود ، تحقيق عبد الباقي الخزرجي ، دار الشهاب للطباعة و النشر ، باتنة – الجزائر ، 1986م ، ص 91-92 .

(1)- ابن الأبار : الديوان ، ص 395 .

((لقد سادت قصيدة ابن الأبار روح الاستنهاض و الاستنكار ، و أغلب الظن أن الشاعر قد تمكن بفضل براعته و بلاغته ، أن يحقق الغاية الجليلة التي أوفده أميره إلى أفريقيا من أجلها ، و أن يبلغ من مشاعر أبي زكريا الحفصي ما أراد بلوغه ... و إن ما يطلب منه إنما هو الجهاد المقدس في سبيل دحر الكفر و محق الشرك ؛ لإعلاء كلمة الله و رفع لواء الإسلام))(1) .

و يقول كذلك من القصيدة نفسها :

يَا أيُّهَا المَلِكُ المَنْصُورُ أَنْتَ لَـــــهَا عَلْيَاءُ تُوسِعُ أَعْدَاءُ الهُدَى تَعَــسَا

وَ قَدْ تَوَاتَرَتِ الأَنْبَاءُ أَنَّكَ مَــــــنْ يُحْيِي بِقَتْلِ مُلُوك الصُفْرِ أَنْدَلُــسَا

طَهِّرْ بِلادَكَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ نَجَــــــسٌ وَ لاَ طَهَارَةَ مَا لَمْ تَغْسِلِ النَّجَـــسَا

وَ أَوْطِئِ الفَيْلَقَ الجَرَّارَ أَرْضَهُــــمُ حَتَّى يُطَأطِئَ رَأْسًا كُلُّ مَـــنْ رَأْسَا

وَ انْصُرْ عَبِيدًا بِأَقْصَى شَرْقِهَا شَرِقَتْ عُيُونُهُم أَدْمُعًا تُهْمِي زَكًا وَ خَسَــا(2).

يوجه ابن الأبار نداءه لأبي زكريا الحفصي ، يحثه على التصدي لأعداء الدين و ردهم على أعقابهم خاسرين يجرون أذيال التعاسة صاغرين ، فنجدة الأندلــــس و فك أسرها مقصورة على الممدوح دون سواه ، و آمال انقادها من أيدي الغزاة الأوروبيين معقودة عليه ، و قد ترددت الأخبار و التوقعات بأن أبا زكريا الحفصي هو المنقد المنتظر لتخليص الأندلس و فك أسرها ، و هي إشارة ضمنية إلى فكرة المهدوية التي تبناها الموحدون لتحقيق أهدافهم السياسية ، و استمر الاعتراف بها في المرحلة الأولى من عمر الدولة الحفصية .

و يواصل ابن الأبار الاستنجاد للأندلس بالسلطان أبي زكريا ، فيدعوه لطرد الغزاة منها فقد بايعه أهلها و دخلوا في حماه ، واصفا الغزاة بالنجاسة التي أصابت بلده ، و تبرز ثقافة ابن الأبار الدينية من خلال توظيف بعض العبارات الفقهية في شعره ، و لا يكتفي الشاعر بالدعوة لتحرير بلده فحسب ، بل يدعو ممــــدوحه إلى

---

(1)- عمر الدقاق : ملامح الشعر الأندلسي ، ص 305 .
(2)- ابن الأبار : الديوان ، ص 399 .

إرسال جيشه الضخم لملاحقة الغزاة الصليبيين في عقر دارهم ، و العمل على إذلالهم و إهانتهم ، ونصرة المسلمين الذين بايعوا السلطان بشرق الأندلس وعانوا هول الاحتلال و تجرعوا مرارة العدوان .

7- المدح بالحِلم :

من القيم و الصفات و الخصال التي تعلي من قدر الإنسان و ترفع مكانته بين الناس ، صفة الحِلم أو العفو عند المقدرة ، و قد تحلى بها العرب مند جاهليتهم الأولى و اتخذوها سلما للمجد في حياتهم و مطية للذكر الحسن بعد موتهـــــــم ، و ضربوا في ذلك أروع الأمثلة ، و قد حرص الحكام و الأمراء على أن يوصفوا بها ، و دأب الشعراء على توظيف الحلم في مدائحهم كعنصر محوري هام قادر على تحقيق هدف الشاعر من المديح من جهة و الاستجابة لرغبة الممدوح و دغدغة عواطفه من جهة أخرى ، و يزداد الأمر إلحاحا على المدح بالحلم إذا كان الممدوح حاكما أو أميرا أو قائدا ، و قد ركز ابن الأبار على غرار غيره من الشعراء على وصف الحكام الحفصيين بالحلم ، من خلال مدائحه لهم خلال اقامته في كنفهم بتونس و بجاية .

و يمدح ابن الأبار السلطان أبا زكريا الحفصي بالحلم ، من قصيدة على روي العين من بحر الكامل فيقول :

مِنْ زَاهِرَاتِ حُلاَهُ حِلْمٌ بَارِزٌ أَعْيَا مُعَاوِيَةً* وَ عِلْمٌ بَارِعُ(1).

إن أهم ما يتصف به الممدوح و أسنا ما يتحلى به من سجايا و خلال رفيعة ، صفة الحلم التي فاق فيها كل ملوك الأرض و أشهر من وصف بهذه السجية ، فمعاوية الذي يضرب به المثل في الحلم يقف عاجزا عن بلوغ حلم السلطان الحفصي ـــ أبي زكريا ـــ كما أن الممدوح قد جمع إلى جانب الحلم ، شتى أنواع العلوم و المعارف .

---

(1)- المصدر السابق : ص 357 .

*- هو معاوية بن أبي سفيان أحد الصحابة ، و مؤسس الدولة الأموية سنة 41هـــ ، بعد أن تنازل له الحسن بن علي رضي الله عنهم على الخلافة الإسلامية ، و يروى أنه كان أكثر الناس حلما ، و أوسعهم عفوا ، و أشدهم إغضاء عمن نابذه ، و أحسنهم احتمالا لمن عازه و عانده ، و كان يتمثل بقول الشاعر :

إِنّي أَرَى الحِلْمَ مَحْمُودًا مَغَبَّتَهُ وَ الجَهْلَ أَفْنَى مِنَ الأَقْوَامِ أَقْوَامَا . للمزيد ينظر/ أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : الفاضل ، تحقيق/ عبد العزيـــز الميمـــنى ، دار الكتـــب المصريـــة ، القاهـــرة ، ط 2 ، 1995م ، ص 86- 88 .

و يقول كذلك من قصيدة على روي الهاء من بحر الوافر ، مادحا السلطان أبا زكريا بالحلم :

وَ حَيَا السَّمَاح إذَا السَّحَائِبُ لَمْ تَجُدْ   يَحْيَى كَفَى اسْتِسْقَاءَهَا كَفَّـــاهُ

فَضْلُ المُلُوكِ سَجَاحَةً وَ سَمَاحَــةً   دُنْى فَوَاضِلُهَا الغِنَى وَ الجَـــاهُ

أَهْلاً بِعَصْرٍ زَانَهُ سُلْطَانُــــــــهُ   لاَ حُسْنُهُ خَافٍ وَ لاَ حُسْــــــنَاهُ

وَ بِعِيدِ فِطْرٍ لِلْفُتــُوحِ مُعَقِّــــبٍ   كَاليَوْمِ أعْقَبَ صُبْحَهُ بِضُــــحَاهُ[1].

يصف ابن الأبار السلطان أبا زكريا الحفصي ، بأن حلمه و عفوه عن المخطئين شامل شمول المطر ، فحلمه و عفوه على رعيته بمنزلة السحاب بالنسبة للأرض ، بل أكثر من ذلك ، فإذا منعت السحب ماءها عن الأرض و بخلت به فإن كفي الممدوح لا تتوقف عن الصفح و السماح ، كما أنه أكثر الملوك لينا و سهولة مع رعيته ، و أنه سمح الخلق طيب المعشر ، وقد ازدان العصر بالممدوح و بطلعته الحسنة و بأعماله الخيرة و إحسانه الشامل ، و قد وافق ذلك قدوم عيد الفطر الذي يعد مناسبة عظيمة للتسامح و العفو و الحلم ، حيث عفا فيه السلطان على الشاعر الذي امتلأت نفسه سرورا و غبطة ، فانطلق لسانه بالشكر و الثناء ، و وصف ما يتحلى به الممدوح من صفات الحلم و الرفق و السماحة ، كما يجعل الشاعر من هذه المناسبة ــ عيد الفطر ــ مدعاة للتفاؤل بالفتوح التي ستتحقق في مختلف الجهات .

و يمدح أبا زكريا و الحفصيين جميعا بالحلم ــ كذلك ــ من قصيدة على روي الضاد من بحر الطويل :

وَ مَا اسْتَنْهَضَتْ عَلْيَاكَ لِلصَّفْحِ وَ الرِّضَى   وَ إنْ عَظُمَ الإِجْرَامُ، إلاَّ وَفَتْ نَهْضَا

كَذَا المَلأُ الحَفْصِيُّ إنْ قَدَرُوا عَفَــوْا   فَلاَ دُعْرَ يَسْتَقْصِي وَ لاَ عُذْرَ يُسْتَقْضَى[2]

إن حلم السلطان أبي زكريا كبير و عفوه لا تحده الحدود ، فسجية العــــفو و الصفح لديه متحفزة دائما للاستجابة لمن استثارها بطلب الصفح و سعى لنيل العفو

---

(1)- ابن الأبار : الديوان ، ص 409- 410 .

(2)- المصدر نفسه : ص 347 .

و الرضا ، فالممدوح لا يرد المعتذر و إن عظم الذنب و كبرت الجريرة ، فصدره يتسع ليشمل الجميع ، فالحلم من شيم الحفصيين ، و العفو من خصالهم ، فلا خوف يلاحق المخطئ و لا اعتذار يطالب المسيء بقضائه .

من الفضائل التي مدح بها ابن الأبار الحكام الحفصيين ، الحلم و العفـــو و التسامح ، فالحلم هو أن تعفو عمن ظلمك و أخطأ في حقك و أنت قادر على عقوبته ، فالحلم ألصق ما يكون بأشخاص القادة و الحكام و السلاطين ؛ لقدرتهم على العقاب ، من هذا المنطلق فقد ركز ابن الأبار مدائحه للحفصيين على هذه الصفة الخلقية العالية ، فممدوحيه قد أصبحوا مضرب المثل في الصفح و التسامح ، بل لقد تفوقوا ــ حسبه ــ على النماذج العالية في الحلم التي عرفها تاريخ العــرب و المسلمين ، كما كان لحياة ابن الأبار في البلاط الحفصي و ما تعرض له من غضب الحفصيين عليه في الكثير من المناسبات ، دافعا كبيرا في تركيزه على هذه الصفة ؛ استدرارا لعطفهم و طلبا لعفوهم ، بعد الهفوات و الزلات التي بدرت منه ، و تسببت في إبعاده من البلاط الحفصي و نفيه إلى بجاية مرات عديدة ، فكانت وسيلته إلى استعادة ثقة الحفصيين به و رضاهم عنه ، هي وصفه لهم بالحلـــم و التسامح ، و التنويه بهم من خلال ذلك في الكثير من المناسبات ، و في العديد من المواقف و المقامات التي أتيحت له فيها فرصة مدح الحفصيين .

8- المدح بالعــلم :

لقد عمل الحفصيون على ازدهار الحركة العلمية و الثقافية في مملكتهم الفتية التي تحولت إلى قبلة للعلماء يؤمونها من كل حدب و فج عميق ، و اشتهرت في عهدهم العديد من المراكز الثقافية التي عرفت نشاطا متزايدا منها: تونس و القيروان و بجاية ... كما فتح الحكام الحفصيون أبوب الهجرة واسعا أمام العلماء و الأدباء الأندلسيين الذين توافدوا بأعداد غفيرة على المملكة الحفصية ، و هذا الأمر ليس بالغريب على بني حفص الذين شغفوا بطلب العلم و تحصيل المعارف ، فقد كان من حكام هذه الدولة العلماء و الشعراء و الفقهاء كالسلطان أبي زكريا و بنيه ، فأصبحت المملكة الحفصية توصف بدولة العلم و العلماء ، و قد مدح الكثير من الشعراء الخلفاء الحفصيين بالعلم و الأدب و أطنبوا في ذلك كثيرا ، و منهم ابن الأبار القضاعي .

قال ابن الأبار يمدح أبا زكريا في أوائل التجائه إلى تونس ، من قصيدة على روي اللام من بحر البسيط :

تَفَجَّرَ العِلْمُ مِنْ عَلْيَا شَمَائِلِهِ   كَمَا يَسُحُّ بِوَسْطِ الرَّوْضِ سَلْسَالُ[1] .

إن الممدوح قد بلغ من العلم مبلغا كبيرا ، فقد أصبح العلم من صفاته التي تميزه ، و لقد جمع من العلوم و المعارف رصيدا ضخما ، فهو يتفجر منه و ينسكب كانسكاب الماء و جريانه بين الحدائق الغناء و الرياض المورقة ، فعلم الممدوح في افادة الرعية و نفعها كفائدة الماء للنبات .

و قال كذلك يمدح السلطان أبا زكريا بمناسبة إسناده ولاية العهد لابنه محمد المستنصر سنة (646هـ) من قصيدة على روي النون من بحر الطويل :

لَـــهُ العِلْمِ سِيمًا وَ السُّمُو عَلاَمَةَ   فَيُوتِيكَ مُقْتَرًّا وَ يُفْتِيكَ مُفْتَـــنَّا
وَ مَا هُوَ إلاَّ الطَّوْدُ فَضْلَ رَجَاحَةٍ   وَ إِنْ هَزَّهُ إِنْشَادُ مَادِحِهِ غُصْنَا[2]

---

(1)- المصدر السابق : ص 247 .
(2)- المصدر نفسه : ص 298 .

إن أبا زكريا جمع من العلوم و المعارف حتى أضحى العلم سمة لا تفارقـــــه و ارتقى في سلمه درجات ، و قد تحلى بصفات العلماء و نباهة الفقهاء ، كما شبه الشاعر ممدوحه في رجاحة عقله في العلم و رسوخ قدمه فيه بالجبل الضخم الذي لا يعرف التغير و يصيبه الاضطراب ، و مع صرامته العلمية و ثقل فكره فهو رقيق النفس مرهف الحس سريع الاستجابة للمكارم و المحامد عند المدح ، فيهتز لها طربا كأنه غصنا حركه النسيم .

و قال يمدح أبا زكريا من قصيدة على روي الميم من بحر الطويل :

يُفِيدُ فُنُونَ العِلْمِ وَ الحِلْمِ وَ النَّدَى وَ أَحْظَى المَوَالِي عِنْدَهُ مَنْ تَعَلَّمَا[1]

إن الممدوح قد بلغ من العلم و المعرفة في شتى فنونها و فروعها مبلغا كبيرا ، فأسهم في تطور الحركة العلمية و الأدبية و ازدهارها ، إلى جانب حلمه و كرمه ، و إن أكثر مواليه و رعاياه قربا منه هم العلماء و الأدباء و المثقفين .

و قال يمدح ولي العهد أبا يحيى حاكم بجاية عند زيارته تونس ، من قصيدة على روي الياء من بحر الوافر :

وَ لاَ يَدَعُ اقْتِنَاءَ العِلْمِ وَقْتًا فَهَا هُوَ مِنْهُ فِي شِبَعٍ وَ رَيٍّ[2]

يصف ابن الأبار الأمير الحفصي بحرصه الشديد على العلم ، فقد أصبح طلب العلوم و تحصيل المعارف الشغل الشاغل للممدوح ، فاستغرق فيه كل وقته ، فبلغ غايته منه و غذى فكره به و ارتوى من معينه ، و لا غرو في ذلك فقد عرفت الدولة الحفصية بحرصها الشديد على تقريب العلماء و إحاطتهم بالرعاية و العناية ، و من ذلك فتحها لأبوابها أمام الجموع الغفيرة من العلماء و الأدباء الأندلسيين النازحين عن وطنهم و تسهيل أقامتهم في كنفها .

---

(1)- المصدر السابق : ص 272 .

(2)- المصدر نفسه : ص 429 .

لقد بذل حكام الدولة الحفصية غاية جهودهم لتشجيع العلماء و الأدبـــــــــاء و تقريبهم منهم ، و إقامة المنشآت العلمية التي أمها الطلاب من كل مكان ، مما أحدث نهضة و ازدهارا في الحياة الثقافية بالامارة الفتية ، فقد كان أبو زكريا الحفصي معدودا من العلماء و الشعراء المجيدين لفنونه و أغراضه ، و سار على نهجه ابنه المستنصر ، فاستغل ابن الأبار شغف الأسرة الحفصية بالعلم ، و أقبل يمدحهم به و يشيد بأفضالهم على الحياة العلمية و الأدبية و بمكانتهم و رسوخ قدمهم في مختلف العلوم و شتى المعارف ، حتى أضحت الإمارة الحفصية منارة تعرف بدولة العلم و العلماء أكثر من كونها دولة عسكرية أو سياسية على خلاف بقية الدول .

9- المدح بالدين و الورع :

من الموضوعات التي دارت حولها قصيدة المديح العربية منذ مجيء الإسلام ، المدح بالدين و الورع و إبراز الممدوح في صورة الحريص على إقامة شعائر الإسلام و معاقبة كل من تسول له نفسه تجاوز حدود الدين و الإخلال بقواعده الثابتة و مبادئه السامية ، و يزداد هذا الموضوع في قصيدة المديح العربية إلحاحا إذا ما كان الممدوح حاكما و مسؤولا على إقامة شريعة الله في رعيته و حياطة المجتمع و تحصينه ، و من هذا المنطلق فقد سعى ابن الأبار إلى الإعلاء من شأن الحكام الحفصيين ، و التأكيد على البعد الديني في شخصيتهم و وصف انتصاراتهم التي تعد نصرا للإسلام و نشرا لتعاليمه و مثله الرفيعة .

يقول ابن الأبار يمدح أبا زكريا الحفصي بالتدين ، من قصيدة على روي الهاء من بحر البسيط ، و ذلك بمناسبة بيعة حاكم سجلماسة له سنة(640هـ) :

بُشْرَى سِجِلْمَاسَةُ أعْطَتْ مَقَادَتَهَا يَدَيْ إمَامٍ مُعَاطِيهَا أيَادِيــــهِ

وَ فِي الدِّيَانَةِ أسْبَابُ القِيَامِ بِــهَا فَأقْبَلَتْ عِنْدَهَا الدُّنْيَا تُوَافِيــهِ

عَلَيْهِ للهِ فِي حُكْمِ الإمَامَـــةِ أنْ يَرْعَى مَحَارِمَهَا وَ اللهُ رَاعِيهِ

أفَاضَ رَحْمَتَهُ فَانْفَضَّ مَعْشَــرُهَا إلَيْهِ مِنْ حَوْلِ فَظِّ القَلْبِ قَاسِيهِ*(1) .

لقد حلت البشرى بسجلماسة التي بايعت السلطان و دخلت في حماه راضية مطمئنة ، بأن تسلم أمرها إمام عرف بالتدين و تقوى الله ، الأمر الذي خوله الحكم و القيادة ، فستقام له الملك و تحققت سيادته على البلاد التي جاءته طائعة ، فبرعايته للدين و استجابته لأوامره و نواهيه ، استجاب الله له و حفظه و تولاه فيمن تولى ، فقد أنزل الله رحمته على السلطان ، فسارع الناس إليه و التفوا حوله و تخلوا عن الحاكم السابق لقسوة قلبه و جوره و استبداده برأيه .

---

*- في هذا البيت إحالة صريحة على قوله تعالى : ((فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ القَلْبِ لَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)) . سورة آل عمران : الآية 159 .

(1)- ابن الأبار : الديوان ، ص 411- 412 .

و يقو ل ــ أيضا ــ يمدح أبا زكريا بمناسبة فتحه تلمسان و افتكاكها من يدي يغمراسن ــ مؤسس الدولة الزيانية ــ سنة (640هـ) ، من قصيدة على روي الهمزة من بحر البسيط :

غَضِبْتَ للهِ تَسْتَرْعِي فَرَائِضَـــــهُ فَجِئْتَ تَرْمِي بِسَهْمٍ لَيْسَ يخْطِئُهُ

وَ قُمْتَ لِلدِّينِ إِقْصَاحًا لِنُصْرَتِـــهِ فَاسْحَنْفَرَتْ عِنْدَهَا الدُّنْيَا تُهَنِّئُـــهُ

قَدْ كَانَ مُنْتَهَكًا جِسْمُ الهُدَى مَرَضًا وَ أَنْتَ رُوحٌ لَهُ مَازِلْتَ تُبْرِئُـــهُ

للهِ جَيْشُكَ وَ الأُسْطُولُ قَدْ ضَمِـــنَا لِلْمُقْتَدِي بِالهُدَى سَيْرًا يُهَدِئُـــهُ

تَسَاوَقَا فِي سَبِيلِ اللهِ وَ اسْتَبَـــقاَ فَأَسْتَوْسَقَ النَصْرُ أَوْفَاهُ وَ أَبْطَؤُهُ[1] .

يرى الشاعر أن إقدام السلطان أبي زكريا على فتح تلمسان دافعه دينـــــي ، و كانت غضبته لله و للإسلام الذي انتهكت حرمته و تهاون حكام تلمسان في القيام بفرائضه و شعائره ، و قد قام الممدوح بواجبه في نصرة الدين و معاقبة التجاوزين لأوامره و نواهيه ، فكان ذلك سببا في التفاف الناس حوله و مبايعتهم له ، فالسلطان قد أعاد للإسلام مجده في هذه الربوع و رفع رايته من جديد ، و قد تحقق له النصر بفضل جيشه بشقيه البري و البحري ، و قد جعل جيشه وقفا للجهاد في سبيل الله ، فحاز الممدوح الفوز العاجل في المعركة و الفوز الآجل بنيل ثواب الآخرة .

و قال ــ كذلك ــ يمدح أبا زكريا الحفصي ، من قصيدة صادية على بحر الطويل :

هُوَ القَائِمُ المَنْصُورُ بِالدِّينِ وَ الدُّنَى وَ صَافِيهِمَا فِي قَوْمِهِ الصَّفْوَةِ الخُلْصِ[2].

إن أبا زكريا قد تبوأ الزعامة الدينية باعتباره خليفة للمسلمين ، و الزعامة الدنيوية باعتباره ملكا بايعه الناس لتولي قيادة مملكته المترامية الأطراف ، فقد جمع في حكمه الشرعية الدينية و الشرعية الدنيوية ، كما أنه قد رزق البطانة الصالحـــة

(1)- المصدر السابق : ص 41 – 42 .
(2)- المصدر نفسه : ص 335 .

فكل مقربيه و المحيطين به هم من الصفوة الأخيار الذين صفت قلوبهم و تطهرت نفوسهم بنور الإيمان و تشربوا العقيدة تشربا كاملا .

و قال يمدح أبا زكريا من قصيدة على روي الصاد من بحر الطويل :

حَرِيصًا عَلَىَ الدِّينِ الحَنِيفِ وَ نَصْرِهِ   وَ لَيْسَ عَلَىَ الدُّنْيَا بِمُسْتَبْطِنٍ حِرْصَا[1] .

يصف الشاعر ممدوحه بالتدين و الحرص على العقيدة الإسلامية السمحة ، كي لا تشوبها شائبة و لا تمتد لها يد الغدر و العبث ، كما يحرص أبو زكريا على نصرة الدين الحنيف و التصدي لكل من تسول له نفسه تدنيسه أو تجاوز حدوده ، باعتباره حاكما مسؤولا عن حماية المجتمع الإسلامي و رعاية المبادئ الإسلامية ، فالوازع الديني عند الخليفة قوي و عاطفته الإسلامية جياشة ، أما الدنيا بمباهجها و ملذاتها فلا تحتل من قلبه مكانا ، و حرصه عليها ضعيفا إذا ما قيس ذلك بحرصه على الدين الحنيف ، فهو من يملك الدنيا و ليست هي من تملكه ، لقد قطع الممدوح صلته بالدنيا إلا بالمقدار الذي تنتظم به أمور الحكم و تستقيم عليه شؤون الرعية ، و بالمقابل فقد ربط قلبه بأسباب السماء و تمسكت يداه بحبل الله المتين .

لقد كان لعاطفة التدين التي ميزت حكام الدولة الحفصية باعتبارهم الورثة الشرعيين للموحدين ، هؤلاء الذين قامت دعوتهم على أسس دينية صريحة ، الأثر الكبير في تركيز ابن الأبار مدائحه للحفصيين على صفة التدين و الورع ، فهم ـ في نظره ـ حماة الدين و العقيدة الإسلامية في هذا الإقليم من غرب الدولة الإسلامية ، الرافعون للوائه الناشرون لتعاليمه و قيمه ، الحريصون على سلامته ، و قد كان السلطان أبو زكريا من كبار العلماء العاملين و الفقهاء المجتهدين ، و تبعه ابنه المستنصر ، فكان مدح ابن الأبار لهم بالتدين و الورع لعلمه أن استجابتهم للدفاع عن حياض المسلمين ستكون تلقائية و غير مشروطة ، من هنا فقد حرص على وصفهم بالتدين ، و أطنب في نعتهم بالورع في جل المناسبات التي سنحت له فيها فرصة مدحهم .

(1)- المصدر السابق : ص 342 .

لقد قصر ابن الأبار جل مدائحه في المرحلة الحفصية من حياته على العائلة الحفصية الحاكمة ــ في الغالب الأعم ــ و لم يقع في ديوانه مديحا للسادة و القــادة و الوجهاء من غير الحفصيين إلا في النزر القليل .

لقد حاول الشاعر ربط حبال الود بينه و بين الحفصيين من خلال مدائحه التي وجهها إليهم و بالقدر الذي أسعفته به شاعريته ، فقد حالفه التوفيق حينا و خالفه في أحايين كثيرة ، و كان خلال إقامته لدى الحفصيين يتأرجح بين موقفين : تقريبه من البلاط مرة و إبعاده عنه مرة أخرى ، و كان عرضة للتوبيخ و اللوم في الكثير من المناسبات ، بل لقد لاحقه غضب الحفصيين بالنفي و العقاب الذي و صل به آخر المطاف إلى القتل .

و يمكن إيعاز هذا الأمر إلى العديد من الأسباب الذاتية و الموضوعية منها : شخصية الشاعر الصعبة و أنفته و اعتزازه المفرط بنفسه ، و إزرائه بكل ما ليس أندلسيا ، بالإضافة إلى خصومه و حساده و منافسيه داخل البلاط ، كما لا ننسى ما للفترة التي أقام بها بالمملكة الحفصية ، من خصوصية لا يمكن إغفالها و هي مرحلة التأسيس و إرساء القواعد التي تتسم ــ عادة ــ بالصرامة و قلة التسامح مع المخطئين .

أما عن موضوعات مدائح ابن الأبار في البلاط الحفصي ، فلم تبتعد عن التقاليد الموروثة في القصيدة العربية ، لا في مبانيها و لا في معانيها و أساليبـــها و ألفاظها ، فقد كان وفيا للتقاليد الشعرية العربية التي ينهل من معينها الذي لا ينضب و يأوي إلى ركنها الحصين ، و لم يشد عنها إلا في تلك الخصائص التي تمنحها البيئة و يفرضها روح العصر أو تخضع للفروق الفردية القائمة بين الأشخاص ــ حسب تعبير علماء النفس ــ و قد تمكن ابن الأبار من استلهام هذا الموروث الشعري العربي و التجاوب معه ، حيث أعاد إنتاجه من جديد مع شيء من التحوير ، لتحقيق الانسجام و التكيف مع معطيات المكان و مقتضيات الزمان ، الأمر الذي جعله يتناص في الكثير من المناسبات مع ما أبدعته قرائح أسلافه مـــن

الشعراء في المشرق و المغرب ، شأنه في ذلك شأن شعراء عصره الذين اكتفوا ــ في الغالب ــ بتكرار ما قاله أسلافهم في هذا المضمار،

كما ألقت ثقافة ابن الأبار الدينية ــ بعده فقيها ــ ظلالها على مدائحه لفظا و معنا ، فقلما تخلو قصيدة أو مقطوعة من إحالة صريحة أو ضمنية إلى بعض آيات القرآن الكريم و الحديث الشريف أو العبارات الشرعية المتداولة على ألسنة الفقهاء .

و قد تحدث سامي الدهان عن ظاهرة التكرار التي آلت إليها قصيدة المديح العربية فقال :((و ضاقت سبل الاختراع فأعادوا الصور و التراكيب ، و تضاءلت ينابيع المديح و خف معينه ، فلن يرتوي الشعراء من بحر خضم كما كانوا ، و لذلك ألحوا على القديم و بدلوا في مبانيه و صوره ، و أعادوا و كرروا حتى سقط المديح البليغ ، كما سقط العالم السياسي للإسلام في ظلمات داجية))[1] .

و لم يحلق الشاعر عاليا في عالم الإبداع الشعري إلا بمقدار ما أمدته به شاعريته ، و كان الطابع العام لمدائحه هو تسجيل الأحداث و سرد الوقائع و رواية الأخبار في غالب الأحيان ، فجاءت قصائده أشبه بوثيقة تاريخية إضافية للأحداث و الوقائع التي عرفها القرن السابع الهجري ، و تاريخ الدولة الحفصية في مرحلة النشأة و التأسيس ، و هذا الأمر متوقع من شخصية معروفة بالتاريخ و الفقه أكثر من معرفتها بالشعر ؛ فهو مؤرخ شاعر و ليس شاعرا مؤرخا ، و مع ذلك فإننا لا نعدم الكثير من مواطن الجودة و معانقة الخيال الشعري في تلاحم قلما يحصل للشعراء الموهوبين دوي الشاعرية الفذة و الموهبة المبدعة .

و استند الشاعر إلى قاموس لغوي عربي فصيح ، و ابتعد عن الغرابة في اللفظ و المعاضلة في المعنى ، مع الجنوح للصنعة اللفظية و المحسنات البديعية من أجل خلق جوا موسيقيا مشحونا بالأفكار و المعاني التي يريد أن يوحي بــها ، و مستجيبا ــ بذلك ــ للمناسبة التي قال فيها قصيدته .

---

(1)- سامي الدهان : المديح ، ص 12- 13 .

و كان ابن الأبار ــ بمسلكه هذا ــ مسايرا لطابع عصره الذي عرف أهله توظيفا كبيرا لهذه الأساليب التعبيرية ، و هي سمة ميزت الأدب في مرحلة الضعف و الانحطاط التي آذنت بقدومها في الفترة التي عاش فيها الشاعر أو قبلها بقليل .

لقد غدا الشعر خلال هذا العصر صناعة لفظية بعد أن كان قريحة فطرية ؛ لأن شعراء هذا العصر قد أفرطوا في تنميق شعرهم بألوان البديع و أثقلوه بأصناف المحسنات ، و ازداد كلفهم بالألفاظ و قلت عنايتهم بالمعاني ، و تحول مقياس الجودة عندهم إلى الشكل على حساب المضمون ، و لعل للأوضاع السياسية التي ميزت عصر ابن الأبار و إقامته في البلاط الحفصي ، دورا حاسما في جنوحه نحو هذه الأساليب البديعية و الميل إلى الزخرفة اللفظية ؛ لما يتطلبه المقام من حذر و التواء و تورية في مخاطبة هؤلاء الحكام ، خوف غضبهم و خشية بطشهم و رغبة التقرب منهم و نيل الحظوة عندهم .

((و لا شك أن هذه الزخرفة قد وجدت هوى في نفس الشاعر الذي كان يميل تبعا لطبيعة عصره إلى تنميق أسلوبه على هذا النحو))(1) .

و قد ركز ابن الأبار مدائحه لحكام الإمارة الحفصية في هذه الموضوعــــات و محاسن الصفات ، و رأى فيها القدرة على التنويه بسيرة ممدوحيه و الارتفاع بهم إلى أعلى درجات المجد و الفضيلة ، و تحسين صورتهم لدى عامة الـــــــــناس و خاصتهم .

(1)- عمر الدقاق : ملامح الشعر الأندلسي ، ص 305 .

الفصل الثالث

البناء و الصورة في قصيدة المديح عند ابن الأبار في البلاط الحفصي

أ- البناء الشعري

1- توطئة نظرية

2- القصيدة المركبة

ـ مقدمة القصيدة

ـ التخلص والخروج

ـ خاتمة القصيدة

3 ـ القصيدة البسيطة

ب- الصورة الشعرية

1- توطئة نظرية

2- أنواع الصورة

ـ الصورة المباشرة

ـ الصورة البيانية

ـ الصورة العقلية

تكشف القراءة المتأنية لقصيدة المديح عند ابن الأبار في الــبلاط الحفــصي ، الكثير من المظاهر الفنية من حيث الشكل المعتمد في بنائها ، أو عنصري الخيــال و الصورة الشعرية فيها ، فقد استجاب للشكل الفني للقصيدة العربية القديمة ، غيــر أن هذه الاستجابة لم تكن تامة ، و جاءت مدائحه على نمطــين : قــصائد مركبــة متعددة الموضوعات ، و قصائد بسيطة مستقلة الموضوع ، كما أسقط بعض أنــواع المقدمات و بعض أجزائها التي لا تتلاءم مع روح العصر و طابع البيئــة...

و لم يخرج في صوره و معانيه عن هذا الإطار الفني المتــوارث ، إذ حــاكى أسلافه من الشعراء العرب القدماء ، و تنوعت صوره بين صور مباشرة و بيانيــة و عقلية ، و تميزت بالحسية ، و نزع فيها إلى العقــل و المنطــق و المباشــرة ؛ لسيطرة المقاييس العلمية عليه و امتزج فيها الفكر بالفن .

أ ــ البناء الشعري:

1 - توطئة نظرية :

قسم حازم القرطاجني (ت684هــ/1285م) أنماط الشعر العربي وأشكاله إلى قسمين : قصائد ومقطعات ، وميز القصيدة المركبة من القصيدة البسيطة المستقلة الموضوع فقال : ((والقصائد منها بسيطة الأغراض ومنها مركبة ، والبسيطة مثل القصائد التي تكون مدحا صرفا ، أو رثاء صرفا ، والمركبة هي التي يشتمل الكلام فيها عــلى غرضين ، مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح ، وهذا أشد موافقة للنفوس الصحيحة الأذواق ، لما ذكرناه من ولع النفوس بالافتتان في أنحاء الكلام وأنواع القصائد))(1).

و قد اعتنى الدارسون لتراثنا الأدبي ــ قبل حازم ــ و منذ وقت مبكر بشكــل و بناء القصيدة العربيــة المركبة و أولوها اهتمامهم و رصدوا أهم ظواهرهــــا و معظم أجزائها و عناصرها المكونة لها ، و يأتي ابن قتيبة (ت276هــ/889م) في

(1)- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، ص 303 .

طليعة هؤلاء النقاد و الدارسين ، فقد حظيت قصيدة المديح العربية عنده بالرعاية و العناية و الدرس ، بغرض استجلاء صورتها و إرشاد الشعراء إلى السبيل الأمثل في بناء قصائدهم المدحية و تحقيق مقاصدهم المادية و غاياتهم الفنية فقال : ((و سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار و الدمن و الآثار ، فبكى و شكا ، و خاطب الربع ، و استوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها ، إذ كان نازلة العمد في الحلول و الظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم عن ماء إلى ماء ، و انتجاعهم الكلأ ، و تتبعهم مساقط الغيث حيث كان .

ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد و ألم الفراق ، و فرط الصبابة و الشوق ، ليميل نحوه القلوب ، و يصرف إليه الوجوه ، و ليستدعي به إصغاء الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، و إلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب ، ضاربا فيه بسهم ، حلال أو حرام .

فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه ، و الاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، و شكا النصب و السهر ، و سرى الليل و حر الهجير ، و إنضاء الراحلة و البعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ، و ذمامة التأميل ، و قرر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة ، و هزه للسماح ، و فضله على الأشباه ، و صغر في قدره الجزيل ، فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، و عدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر ، و لم يطل فيمل السامعين ، و لم يقطع و بالنفوس ظماء إلى المزيد))(1).

لقد كان ابن قتيبة من النقاد الأوائل الذين اعتنوا بتحديد الشكل الأمثل و الهيكل العام الذي يجب أن يتوفر في القصيدة العربية بوجه عام و قصيدة المديح بوجه

---

(1)- ابن قتيبة : الشعر و الشعراء ، جـ 1 ، ص 75- 76 .

خاص ، من خلال هذه الفقرة السالفة الذكر التي ضمنها كتابه الشعر و الشعــراء ، و احتوت على أهم العناصر الواجب توفرها في القصيدة العربية المركبة ، و تبدأ بالوقوف على الأطلال ، و هو التقليد الشائع الذي رسخته التجارب الشعرية منذ العصر الجاهلي ، ثم ينتقل الشاعر إلى النسيــب و حديث الغزل ، مستعرضا أشواقه و ذكرياته و عوطفه التي يكنها لأحبته المغادرين لهذه الديــار و المرتحلين عنها ــ على عادة العربي الذي يعيش على الحــل و الترحال طلبا للماء و الكلأ ــ ثم ينتقل الشاعر للحديث عن رحلته إلى الممدوح ، و المتاعب و الأخطار التي تجشمها للوصول إليه ، مستعرضا لمشاهد الصحراء و مناظرها و ما تقع عليه عيناه من حيوانها و نباتها و تلالها و تلاعها ، واصفا خلال ذلك راحلته التي أجهدها المسير و أتعبها السفر وصولا إلى الممدوح ، و تعد هذه الوقفة الطللية الموصولة بالنسيب ووصف الرحلة و الراحلة ، عنصرا بنائيا هاما و مفصلا أساسيا في القصيدة العربية ، وظيفته التمهيد للغرض الأساسي الذي أراده الشاعـــــــــر ، و تحضيرا نفسيا للمتلقي حتى يقبل على متابعة الاستماع إلى القصيدة بأذن صاغية و نفس منشرحة ، بعدها يتخلص الشاعر في قصيدته إلى غرضه الأساسي منها كالمديح أو الهجاء أو الرثاء... ثم يختتم قصيدته بما يناسب دوق الممدوح ، و ما يبعثه على المكافأة و إجزال الهدية .

و لا ينسى ابن قتيبة ــ عند حديثه عن هيكل القصيدة العربية ــ تعليل كل عنصر من عناصرها و تبرير إقدام الشاعر عليه و أثر ذلك على الشاعر و المتلقي معا ، مع مراعاة بعض الضوابط الضرورية كالتوازن بين هذه العناصر ، فلا يكون عنصرا طاغيا على عنصر ، و حسن التخلص من موضوع إلى آخر حتى لا يشعر السامع بانتقاله إلى موضوع آخر من موضوعات قصيدته إلا بعد أن يقع فيه .

و يذكر عز الدين إسماعيل معلقا على ما قاله ابن قتيبة : ((و نحن نذهب منذ البداية إلى أن تفسير ابن قتيبة ليس صحيحا ، أو هو ــ على الأقل ــ ليس كافــيا ، و سوف يتضح هذا في أوانه ، و لكن يكفي أن نتذكر هنا حقيقة على جانب كبير من

الأهمية ، و هي أن الالتزام بهذا التقليد في مستهل القصيدة كيما يؤدي وظيفته التي نص ابن قتيبة عليها ، قد جعل هذه المقدمة مع مضي الزمن شيئا ممجوجا ، ذلك أن حقيقتها الأولى كانت قد توارت كلية خلف التفسير الذي تقدم به ابن قتيبة ، و من ثم كان من الطبيعي أن نجد شاعرا صادق الحس مثل أبي نواس ، يشعر بتفاهة الغرض المطلوب منه الذي حدده ابن قتيبة ، فإذا به يهاجم هذا التقليد و ضرورة التزامه ، مركزا حملته على الجزء الأول من هذا التقليد و هو الوقوف علـــى الأطلال))[1] .

و في الحالات كلها ، فإن ابن قتيبة قد فتح أبوابا على دراسة الشعر من حيث هو بناء و تركيب ، و تبقى جدلية قبول هذا الطرح من الكاتب محل إثارة و تشويق عند القراء و الدارسين معا .

و يشيد ابن رشيق بحسن افتتاح القصيدة و براعة استهلالها و حسن التخلص من جزء إلى جزء و الغاية المتوخاة من كل ذلك فيقول : ((لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح ، و مطية النجاح ، و لطافة الخروج إلى المديح ، سبب ارتياح الممدوح ... و بعد فإن الشعر قفل أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره لأنه أول ما يقرع السمع ، و به يستدل على ما عنده من أول وهلة))[2] .

و يضيف قائلا : ((و للشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب ، و استدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل و الميل إلى اللهو و النساء ، و إن ذلك استدراج إلى ما بعده))[3] .

و أعاب ابن رشيق على الشعراء تخليهم على المقدمة في قصائدهم ، و دخولهم للغرض الذي أنشئت لأجله القصيدة دون تمهيد و لا توطئة ، فقال : ((و من الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطا من النسيب ، بل يهجم على ما يريده مكافحـــة ، و يتناوله مصافحة ، و ذلك عندهم هو : الوثب ، و البتر ، و القطع ، و الكســـع ،

---

(1)- عز الدين اسماعيل : روح العصر ، دار الرائد العربي ، لبنان ، 1978م ، ص 15- 16 .
(2)- ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، جـــ 1 ، ص 217- 218
(3)- المصدر نفسه : جـــ 1 ، ص 225 .

و الاقتضاب ... و القصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء كالخطبة البتـــــــــراء و القطعاء))[1] .

لقد بالغ النقاد في توجيهاتهم و أحكامهم التي أصدروها فيما يخص طرق بناء القصائد و المعايير و العناصر الواجب توفرها ، و حثهم الشعراء على التقيد بها ، فأوشكت القصيدة أن تتحول على أيديهم إلى قالب جاهز، و شكل جامد لا حياة فيه ، و الحد من حرية الشاعر و إلغاء ذاتيته و تعليب مشاعره و دوقه الفني .

غير أن من النقاد من ألح على أهمية ترك الحرية للشاعر في بناء قصيدتـــه ، و اختيار عناصر مقدمته أو التخلي عنها كليا تبعا لما تمليه عليه بيئته و ميولات عصره ، و ما تفرضه عليه المواقف المستجدة في زمانه ، مع مراعاة مقتضى الأحوال و المواقف ، و من هؤلاء ضياء الدين بن الأثير(ت638هــ/ 1240م) حين قال : ((إذا نظم قصيدا أن ينظر ، فإن كان مديحا صرفا ، لا يختص بحادثة من الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها أو لا يفتتحها بغزل بل يرتجل المديح ارتجالا من أولها ... و أما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادث ، كفتح مقفل أو هزيمة جيش أو غير ذلك ، فإنه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل ، و إن فعل ذلك دل على ضعف قريحة الشاعر و قصوره عن الغاية أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه))[2] .

و ذهب حازم القرطاجني المذهب نفسه ، مشيرا إلى الخصائص الفنية التي يجب توفرها في المطالع و المقدمات ، لتؤدي دورها في إنجاح التجربة الشعرية ، و من أهم الخصائص المشار إليها ، التأنق في إخراج المقدمة على أحسن صورة ؛ لأنها تترك انطباعا في النفس عميقا ، و أثرا بالغ الأهمية ، و لهذا الأثر صدى فيما يليه ، و عليه يترتب رد الفعل المترقب من المتلقي ، فإذا كان المطلع ــ أو المقدمة ــ حسنا شد انتباه المتلقي إلى القصيـــدة ، و تفاعل معها ، و بهذا تحدث الاستجابة

---

(1)- المصدر المصدر السابق : جــ 1 ص 231 .

(2)- ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر ، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1995م ، جــ 1 القسم 3 ، ص 96 .

المتوخاة ، و التي هي هدف المبدع ، فيقول عن المقدمة إنها : ((الطليعة الدالة على ما بعدها المتنزلة من القصيدة منزلة الوجه و الغرة ، تزيد النفس بحسنها ابتهاجا و نشاطا لتلقي ما بعدها ، إن كان بنسبة من ذلك ، و ربما غطت بحسنها على كثير من التخون الواقع بعدها إذا لم يتناصر الحسن فيما وليها))(1) .

و حرص النقاد منذ زمن مبكر أن يحثوا الشعراء إلى ضرورة حسن التخلص من مقدمة القصيدة إلى الغرض الرئيس منها ، و ألا يشعروا السامع بفجوة و انقطاع معنوي عند انتقالهم ، فقد نقل صاحب العمدة قول الحاتمي : ((من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه ، أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم ، متصـــلا به ، غير منفصل منه ، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر و باينه في صحة التركيب ، غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه و تعفي معالم جماله ، و وجدت حذاق الشعـــــــــراء و أرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال احتراسا يحميهم من شوائب النقصان ، و يقف بهم على محجة الإحسان))(2) .

فالتخلص و الانتقال من جزء إلى جزء آخر داخل القصيدة ، من أهم العناصر التي يعتني بها الشعراء عناية خاصة ، و التخلص الحسن دليل على نباهة الشاعــر و بنائه المحكم لقصيدته .

و ((حسن التخلص هو أن يستطرد* الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا و قد وقع في الثاني ، لشدة الممازجة و الالتئام

---

(1)- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، ص 309 .

(2)- ابن رشيق : العمدة ، جـ 2 ، ص 117 .

*- فرق النقاد بين التخلص و الخروج و الاستطراد ، فقد ذكروا أن التخلص هو أن ينتقل الشاعر من معنى إلى معنى آخر ثم يعود إلى المعنى الأول أو يأخذ في معنى جديد بتدرج و لطف ، فإن تمادى في المعنى الذي انتقل إليه سمي خروجا ، و الاستطراد فهو الانتقال من معنى إلى آخر دون تدرج و لا تمادي في ما انتقل إليه ، ثم يقطع الشاعر ما هو فيه و يعود إلى المعنى الأول ، و أصل الاستطراد ، أن يريك الفارس أو يوهمك أنه فر ليكر و يعاود الهجوم ، و كذلك الشاعر ، و من هنا كان الخروج أشمل من التخلص و الاستطراد . للمزيد ينظر/ حازم القرطاجني : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، ص 319 - 322 . ابن رشيق القيرواني : العمدة ، جـ 1 ، ص 236 و ما بعدها .

و الانسجام بينهما حتى كأنما أفرغا في قالب واحد ، و لا يشترط أن يتعين المتخلص منه ، بل يجري ذلك في أي معنى كان ، فإن الشاعر قد يتخلص من نسيب أو غزل أو فخر أو وصف روض... أو معنى من المعاني يؤدي إلى مدح أو هجو... و لكن الأحسن أن يتخلص الشاعر من الغزل إلى المدح))[(1)] .

ولم يقل اهتمام النقاد القدماء بخاتمة القصيدة المركبة عن ببقية أجزائها ، فقد طالبوا الشعراء بضرورة تجويدها و حسن اختيار ألفاظها و معانيها ، و مراعاة أحوال الممدوح و رغباته عندها ، و تجنب وقوع لفظ كريه في السمع أو معنى منفر للنفس ، أو ختم القصيدة بالدعاء إلا للملوك و الأمراء الذين يرغبون في ذلك .

و تحدث ابن رشيق عن خاتمة القصيدة و الدورها ، فقال : ((و خاتمة الكلام أبقى في السمع ، و ألصق بالنفس ؛ لقرب العهد بها ؛ فإن حسنت حسن ، و إن قبحت قبح ، و الأعمال بخواتيمها كما قال رسول الله ـــ صلى الله عليه و سلم))[(2)] .

و ألح حازم القرطاجني على الشعراء أن يحسنوا اختتام قصائدهم فـــــقال : ((و إنما وجب الاعتناء بهذا الموضع لأنه منقطع الكلام و خاتمته ، فالإساءة فيه معفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس . و لا شيء أقبح من كدر بعد صفو و ترميد بعد إنضاج))[(3)] .

غير أن التقيد بهذه المعايير و القواعد التي أقرها النقاد القدماء الالتزام بها ، لم يكن تقيدا تاما و لا إلتزاما صارما ، بل كان نسبيا و متفاوتا بين شعراء العصر نفسه و البيئة عينها ، فضلا عن أن يُلتزَم بها على مـــر الأعصـــر و اختلاف البيـــئات و تباعد الأقاليم ، فلكل عصر طابعه المميز و ذوقه الخاص و معاييره المتبعـــــــة و مثله المعتنقة و قيمه السائدة ، فقد ظهرت في بداية العصر العباسي طائفة مـــــن

---

(1)- تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله الحموي: خزانة الأدب و غاية الأرب ، تحقيق/ عصام شعيـــتو ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط 1 ، 1987م ، ص 329 .
(2)- ابن رشيق : العمدة في صناعة الشعر و نقده ، جـــ 1 ، ص 217 .
(3)- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ، ص 285 .

الشعراء المجددين*بالمشرق ، خالفت القدماء في هذه الأعراف و تنصلت من بعض تلك التقاليد و النظم و دعا أتباعها إلى التجديد في مباني الشعر و معانيه(1).

و إذا كانت الحال هذه بالمشرق فيما يخص بناء القصيدة ، فإن الحال بالمغــرب و الأندلس لم تختلف إلا قليلا ، فقد سار الشعراء المغاربة و الأندلسيون على أنماط الشعر المشرقي و أساليبه في البناء الفني ، و تعايشت عندهم مذاهب القــــــدماء و طرق المحدثين ، متجاوبين معها حينا و محورين لها حينا آخر حسب ما تمليه عليهم البيئة و تفرضه الأحداث و تقتضيه الأذواق و الرغبات .

و قد استجاب ابن الأبار في مدائحه بالبلاط الحفصي ، حينا لنهج القصيدة العربية و شكلها الفني الذي حدده النقد القديم ، و خالفه أحيانا كثيرة ، مستلهما للتراث العربي الشعري و النقدي ، ناسجا على منواله فيما يخص البناء الفني لقصائده ، مزاوجا بين طريقة القدماء و طريقة المحدثين مرة ، متجاوزا لهما مرة أخرى ؛ فجاءت بعض قصائده في مدح الحفصيين ، على شاكلة القصيدة العربية العصماء المتنوعة الموضوعات ، تشتمل على جل أجزاءها ، حيث يفتتحها بمقدمة يمهد بها لمدائحه للحفصيين ، ثم يتخلص بمهارة عالية إلى غرضه الأساسي في القصيدة ، ثم ينهيها بخاتمة يتقن نظمها و يحسن صياغتها و يجود معناها.

أما أغلب مدائحه في البلاط الحفصي ، فقد افتتحها بالمديح متخليا عن التمهيد ، مسقطا للمقدمة الشعرية التي تعد عنصرا حيويا في قصيدة المديح العربية القديمة .

---

*- و من رواد حركة التجديد في الشعر العربي في العصر العباسي: بشار بن برد ، مسلم بن الوليد ، العتابي ، أبو نواس ... كما يعد أبو تمام زعيم الشعراء المجددين ، و رأس مدرسة البديع ، فقد ذكر يوسف خليف قائلا : ((فأبو تمام هو زعيم المذهب التجديدي في القرن الثالث ، و هو المذهب الذي يضعه النقاد في مقابلة المذهب التقليدي الذي سار عليه معاصره و تلميذه البحتري ... فأبو تمام يمثل مذهبه الخروج على عمود الشعــــــــر و التحرر من تلك التقاليد الفنية الموروثة التي تلقاها الشعراء عن الشعر القديم)) . ينظر/ يوسف خليف : في الشعر العباسي (نحو منهج جديد) ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، ص 87 .

(1)- للمزيد ينظر/عبد الفتاح لاشين : الخصومات البلاغية و النقدية في صنعة أبي تمام ، دار المعارف ، القاهرة ، 1982م ، ص 40 و ما بعدها .

2- القصيدة المركبة :

و تشتمل القصيدة المركبة على الأجزاء الآتية : المقدمـــة و ما تتضمنه من عناصر : كبراعة الاستهلال ، و وصف الرحلة و الراحلة و مشاهد الطريق و ما تجشمه الشاعر من متاعب و أخطار وصولا إلى الممدوح ، و حسن التخلص إلى المديح ، و الخاتمة ، و قد بنى ابن الأبار القضاعي البلنسي الكثير من مدائحه للحفصيين في شكل قصائد مركبة تجاوز عددها العشرين قصيدة ، و كانت مقدماتها غزلية في الغالب الأعم و طللية في القليل النادر .

- مقدمة القصيدة :

اعتنى ابن الأبار ــ على غرار شعراء عصره ــ عناية فائقة بمقدمات قصائده المدحية في البلاط الحفصي ، فتأنق في صياغة مطالعها و تنميق لغتها و تجويد معانيها ، متبعا سنن قصيدة المديح العربية العصماء في هذا الباب ، مازجا بين طريقتي القدماء و المحدثين ، عاملا على أن يوفر الانسجام بين مقدمته و الغرض الأساسي في القصيدة ، غير أن الشاعر أسقط عنصر وصف الرحلة و الراحلة من مقدمات قصائده ــ و هو التقليد الراسخ في القصيدة العربية القديمة ــ وذلك لعدم الحاجة إليه و انتفاء سبب توظيفه و تغير البيئة التي أوجدته .

و توزعت مقدمات قصائده بين وصف الأطلال حينا و الغزل أحيانا كثيرة ، بل إن جل مقدمات قصائد المديح لابن الأبار بالبلاط الحفصي ، كانت مقدمات غزلية أو غزلية ممزوجة بالوصف و الفروسية و بموضوعات أخرى ، فقــد جــرت عــادة الأندلسيين على أن يفتتحوا مدائحهم بالغزل غالبا أو وصف الأطلال بدرجة أقــل .

((كما افتتح الأندلسيون مدائحهم بالمقدمـــة الطللية ، و لكنهم طرحوا كثيرا من مقومات هذه المقدمة و تقاليدها الموروثة ، و لم يغرقوا في البداوة كما غرقوا فـــي مقدماتهم الغزلية ، فضلا عن أنهم لم يطيلوا الوقوف على الديار ، بـــل وصـــفوها وصفا عاما بالتبدل و التغير ، واكتفوا بتحديد مواقعا باصطناع المرور على الأماكن

و الوديان العربية القديمة مشاكلة لعروبة الممدوح ، كما لم يعرضوا لآثار تبدل هذه الديار بعد مغادرتها ؛ لأنهم عنوا بوصف ما تثيره تلك الرسوم في نفوسهم من ذكريات ماض سعيد تمتزج فيها اللذة بالألم و المتعة بالحزن))(1) .

وكان ابن الأبار ــ بوصفه شاعرا أندلسيا ــ وفيا لهذا المنحى الذي تبناه الأندلسيون في افتتاح مدائحهم بالغزل أو وصف الأطلال ، فقد بدأ جل قصائده المركبة في مدح الحفصيين بمقدمات غزلية في المقام الأول .

و الغزل كلمة يطلقونها على الشعر الذي يصف المرأة أو الذي يتحدث إليها ، أو يتخيل قولا فيها ، أو قصة تتعلق بها أو يصف ما تثيره في نفس الشاعر من حرقة و نعيم ، ومن مرادفات الغزل : التشبيب ، والنسيب*.

و من مقدمات ابن الأبار الغزلية ، قوله يمدح السلطان أبا زكريا من قصيدة على روي الصاد من بحر الطويل :

أَتَجْحَدُ قَتْلِي رَبَّةُ الشَّنْفِ وَ الخِرْصِ	**وَ ذَاكَ نَجِيعِي فِي مُخَضَّبِهَا الرَّخْصِ**
تَوَرَّسَ مَا تَعْطُو بِهِ مِنْ عَبِيطِهِ	**كَمَا طَلَعَ الوَسْنَانُ فِي صِبْغَةِ الحُصِّ**
وَ تَسْفِكُهُ وَ هوَ المُحَرَّمُ سَفْكُهُ	**حَلاَلاً كَأَنَّ الظُّلْمَ لَيْسَ لَهُ مُحْصِ**
أ مَا عَلِمَتْ أَنَّ القِصَاصَ أَمَامَهَا	**فَكَيْفَ أَرَاقَتْهُ عَلَى النَّحْرِ وَ القَصِّ**
فَيَا لَدَمٍ قَدْ أَهْدَرَتْهُ ثُدَيُّهَا	**وَ أَلْحَاظُهَا بِالهَبْرِ عَمْدًا وَ بِالقَعْصِ**
وَ لَسْنَ صِفَاحًا أَوْ رِمَاحًا وَ إِنَّمَا	**غَنِينَ عَنِ الحَدِّ المُذَلَّقِ وَ الخِرْصِ**
عَلَى غَيْرِ ثَارٍ آثَرَتْ فَوْتَ مُهْجَتِي	**قَنِيصًا وَ مَازَالَتْ تَرَاْعُ مِنَ القَنْصِ**
عَرِينٌ وَ لَيْثٌ لاَ كِنَاسٌ وَ ظَبْيَةٌ	**لإِتْلاَفِهَا العُشَّاقُ بِالفَرْسِ وَ الفَرْصِ**

---

(1)- أشرف محمود نجا : قصيدة المديح في الأندلس ، ص 134 .

*- يفرق عز الدين إسماعيل بين الغزل و النسيب ، فيقول إن النسيب غير الغزل ، فالغزل حديث عن شعور البهجة و الاستمتاع ، في حين أن النسيب يجمع بين النقيضين : البهجة و الحزن ، أو المتعة و الألم ، أو لنقل في شيء من التجريد أنه يجمع بين أسباب الحياة و الموت . و هذا يذكرنا بمبدأ التزاوج بين اللذة و الألم الذي تحدث عنه فرويد كثيرا. و قد جمع الشعراء مند العصر الجاهلي بين هذين الشعورين المتناقضين في إطار واحد هو ما نسميه النسيب ، أي الحب المهدد بخطر ، الحب المهدد دائما برحيل المحبوبة ، و كذلك الحياة المهددة بالخراب ، متمثلة في الوقوف على الأطلال المقفرة ... للمزيد ينظر / عز الدين إسماعيل : روح العصر ، ص 21- 22 .

لَقَدْ قَلَبَتْ لِلْقَلْبِ ظَهْرَ مِجَنِّـــــــــهَا   وَ لاَ ذَنْبَ إلاَّ أنْ أطَاعَ فَمَا يَعْـــــــصِي
وَفَيْتُ لِحِرْصٍ فِي هَوَاهَا فَخَانَـــــنِي   وَ قِدْمًا أُصِيبَ النَّاسُ مِنْ قِبَلِ الحِــرْصِ
عُمُومٌ مِنَ البَلْوَى بِهَا عَامِرِيَّـــــــةٌ   أبَى الحُسْنُ أنْ ألْقَى بِهَا غَيْرَ مُخْتَــصِّ
لَهَا اللهُ مَاذَا فِي القَلاَئِدِ مِنْ حُـــــلىً   تَشِفُّ وَ مَاذَا فِي الشُّفُوفِ وَ فِي القُمْصِ
نَهَارُ مُحَيًّا تَحْتَ لَيْلِ ذَوَائِـــــــــبٍ   تُرِيهِ وَ تُخْفِيهِ مَعَ النَّقْصِ وَ العَقْــصِ
وَ ذَاتُ ابْتِسَامٍ عَنْ بُرُوقٍ لآلِـــــــىءٍ   مُؤَشَّرَةٍ لَيْسَتْ بِرُوقٍ وَ لاَ عُقْـــــــصِ
تَلُوثُ عَلَى بَدْرِ التَّمَامِ لِثَامَـــــــهَا   لِذَا الوَشْيَ زَرَّتْهُ عَلَى الغُصْنِ وَ الدِعْصِ*
مِنَ اللاَئِي يَهْوَى القَصْرُ لَوْ قُصِرَتْ بِهِ   تَأبَاهُ لِلبَيْتِ المُطَنَّبِ وَ الخُــــــــصِّ
وَ يَدْعُو بِهَا اليَنْبُوعَ لِلعَبِّ وَسْطَهُ   فَتَهْجُرُهُ لِلحَسْوِ مُؤْثِرَةُ المَــــــــصِّ
شَمَائِلُ أعْرَابِيَةٌ فِي اعْتِيَاصِـــــــهَا   أمَطْنَ عَنِ الحُبِّ المُبَرِّحِ وَ المَحْــصِ(1)

افتتح الشاعر قصيدته بمقدمة غزلية ، مستجيبا لتقاليد الشعراء العرب القدماء في افتتاح مدائحهم بالغزل ، شاكيا آلام الهجر و أحزان الحرمان ، مصورا حبيبتـه في صورة تقليدية و قد تزينت بالحلي ، و خضبت يديها بالحناء و تعطرت بـبعض النباتات الزهرية ، ثم إنها قد تنكرت له و تمنعت عليه فليس إلى وصلها سبيل ، ثم يصف محاسنها وصفا حسيا صريحا ، مقابلا بين مفاتنها و ما أحدثته في نفســه و بين وسائل الحرب و ما تتركه على أجسام الأبطال ، و لعل الشاعر قد اتخذ مـن الغزل معادلا موضوعيا ، سكب من خلاله أحاسيسه الملتهبة و عواطفه الجياشة تجاه وطنه و قد حرم منه بعد أن وقع تحت الاحتلال الصليبي ، كما أحسن الشاعر الربط بين مقدمة القصيدة و موضوعها الأساسي ، الذي يمدح فيه السلطان أبـي زكريـا الحفصي بالشجاعة و الإقدام ، و يصف وقائعه التي خاضها ضد أعدائه و خصومه في الداخل و الخارج ، فالمقدمة تشي بموضوع القصيـدة الأساسي مـن الوهلـة الأولى ، فقد تضمنت ـــ رغم كونها غزلية ـــ الكثير من الألفاظ الدالة على أجواء

---

*- الدعص : كثيب صغير من الرمل الناعم ، و هو أقل من الحقف . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (دعص) ، جـ 1 ، ص 982 .
(1)- ابن الأبار : الديوان ، ص 329- 331 .

المعارك و الوقائع و الغزوات التي كان بطلها الممدوح ، مثل : قتلـــي ، نجيعـــي ، تسفكه ، القصاص ، صفاحا ، رماحا ... و غيرها من الكلمات التي تستعمل ــ عادة ــ لوصف المعارك ، و أطال ابن الأبار مقدمته هذه فهي تمثــل أكثــر مــن ثلــث القصيدة .

و يواصل مقدمته قائلا :

سَقَى اللهُ دَارَ المُزْنِ دَارًا قصِيَّةً عَلَى الشَّدِّ وَ التَّقْرِيبِ وَ الوَخْدِ وَ النَّــصِّ*
يُسَائِلُ عَنْ نَجْدٍ صِبَاهَا مُعَاشِــرٌ وَ أسْأَلُ عَنْ حِمْصَ النَّعَامَى وَ أسْتَقْصِي
وَ لَوْ كُنْتُ مَوْفُورَ الجَنَاحِ لَطَارَ بِي إلَيْهَا وَ لَكِنْ حَصَّهُ البَيْنُ بِالقَـــــصِّ
فَشَتَّانَ مَا أيَّامِيَ السُّودُ أوْجُــهًا بِحِسْمَى وَ مَا لَيْلاَتِيَ البِيض فِي حِمْــصِ
بِحَيْثُ ألِفْتُ الوُرْقَ لِلشَدْوِ تَنْبَرِي عَلَى نَهْرِهَا وَ القُضْبُ تَهْتَاجُ لِلرَّقْـــــصِ
وَ فِي يَدِ تَشْبِيبِي قِيَادُ شَبِيبَــتِي وَ خِلِّي وَ حِلْمِي مُسْتَقِيد وَ مُسْتَعْــصِي
كِلاَنَا عَلَى أقصَى الهَوَادَةِ وَ الهَوَى فَلاَ عَذَلٌ يُقْصِي وَ لاَ غَزَلٌ يُقْـــصِي(1)

و بعد انتهاء الشاعر من وقفته الغزلية ، يعاوده الحنين إلى وطنه مسترجعا أيامه السعيدة بالأندلس ــ مسقط رأسه و مرتع صباه و شبابه ــ التي تغرب عنها مكرها ، فيحن إليها و يشتاق إلى بعض ربوعها ، فيذكر منها حمص النـــــعامي و يدعو لها بالسقيا ــ على غرار الشعراء العرب عند وصفهم للأطلال ــ و يتمنى عودته إلى تلك الربوع التي فرق الزمان بيـــنه و بينها ، فاستحالت أيامه ســودا و قد كانت بالأندلس بيضا لياليه ، فهو لا يزال حزينا على ما حل بوطنه دائم الحنين و الشوق إليه ، رغم ما أحاطه به الحفصيون في بلاطهم من أسباب النعمة و رغد العيش ، و أنى يتسنى للإنسان نسيان بلده الذي شهد صباه و احتضن طفولتـــه و شبابه و أرتبط بذكرياته ، و يزداد الموقــف صعوبــة إذا علمنا أن الأمـــر

---

*- النص : رفعك الشيء ، نص الحديث ينصه نصا ، إذا رفعه إلى قائله و أسنده إليه ، و نصت الظبية جيدها ، رفعته ، و قيل النص السير الشديد و الحث ، و هو المعنى المراد في قول الشاعر . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (نصص) ، جــ 3 ، ص 648 .

(1)- ابن الأبار : الديوان ص 331- 332 .

يتعلق بشاعر مرهف الحس رقيق النفس ضعيف التجلد و الصبر أمام المحـــــــن و الأهوال التي عصفت بأهله و فرقت شمله و حالت بينه و بين موطنه الأندلس .

فالحنين إلى الوطن عاطفة جُبِلَ الإنسان عليها لا فكاك له منها ، و إلـــى هـــذا يشير الجاحظ بقوله : ((فاوضت بعض من انتقل من الملوك في ذكر الـــــــديار ، و النزاع إلى الأوطان ، فسمعته يذكر أنه اغترب من بلده إلى آخر أمهد من وطنه ، و أعمر من مكانه ، و أخصب من جنابه ، و لم يزل عظيم الشأن ، جليل السلطان ، تدين له من عشائر العرب ساداتها و فتيانـــها ، و من شعوب العجم أنجادهــــــــا و شجعانها ، يقود الجيوش و يسوس الحروب ، و ليس ببابـــه إلا راغـــب إليـــه أو راهب منه ، فكان إذا ذكر التربة و الوطن حن إليه حنين الإبل إلى أعطانها))[1].

و من مقدماته الغزلية الممزوجة بالوصف قوله يمدح أبا زكريا الحفصي ، بمناسبة تنصيب ولده أبا يحيى على إمارة بجاية سنة(638هـــ) :

أَهْلاً بِهِنَّ أَهِلَّةً وَ كَوَاكِـــــــبَا   زَحَـــفَتْ هِلاَلٌ دُونَهُنَّ مَـــوَاكِبا
تَخْدِي الرَّكَائِب وَ السَّلاَهِبُ*حَوْلَهَا   تُرْدِي كَأَسْـــــطَارِ الكِتَابِ كَتَائِبَا
فَالمَوْتُ بَيْنَ أَوَانِسٍ وَ فَـــوَارِسٍ   جَـــــارُوا عَلَيَّ أَعَادِيًا وَ حَبَائِبَا
هُنَّ الظِّبَاءُ العَاطِيَاتُ سَوَالِـــــفًا   وَ هُـــم الأُسُودُ الضَّارِيَاتُ مَخَالِبَا
جَعَلُوا الدِّمَاءَ خَلُوقَهُمْ وَ خِضَابَهُـــم   مُـــسْتَأصِلِينَ مُسَالِمًا وَ مُـــحَارِبَا
أَنْهَاكَ لاَ تَغْشَ المَضَارِبَ خِيفَـــةً   مِنْ أَعْيُنٍ تَهَبُ الصِّفَاحَ مَضَارِبَا
لَمْ تَرْمِ إِلاَّ أَقْصَدَتْ لَحَظَاتُـــــــهَا   فَـــجَرَى دَمُ الصَّبِّ المُتَيَّمِ صَائِبَا
يَا مَنْ لِقَلْبٍ ذَائِبٍ مِنْ غَـــــــادَةٍ   كَالصُّبْحِ تَسْحَبُ لِلصَّبَاحِ ذَوَائِـــبَا
وَحْشِيَّةٌ فِي فَـــازَةٍ بِمَفَـــــــــازَةٍ   يَنْزُو الجَنَانُ الوَحْشُ مِنْهَا رَاهِبَا
خَيْلاً وَ شوسًا مِنْ حِفَاظٍ صَـــــادِقٍ   تَلْقَى عِرَابًـــا قَبْلَهَا وَ أَعَـــــارِبَا

---

(1)- رسالة الحنين إلى الأوطان ، دار الرائد العربي ، بيروت ، 1982م ، ط 4 ، ص 6- 7 .

*- السلهب : الطويل عامة ، و قيل هو الطويل من الرجال و الخيل ، و فرس مسلهب : ماض ، و منه قول الأعرابي في صفة الفرس : و إذا عدا اسلهب ، و إذا قيد اجلعب ، و إذا انتصب اتلأب . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (سلهب) ، جـــ 2 ، ص 196 .

حُمْرُ القِبَابِ عَلَىَ اليَبَابِ هِيَ المُنَى وَ كَفَى بِهِنَّ أَمَانِياً وَ مَــــآرِبَا
لَوْ لَمْ تُظَلِّلْ بِالرِّمَاحِ عَوَاسِـــــلاً دُونِي وَ تَكْلأْ بِالصِّفَاحِ قوَاضِبَا
فَلَكَمْ طَرِيرِ الحَدِّ يَخْفُرُ طُـــــــرَّةً وَ لَكَمْ أَصَمُّ الكَعْبِ يَكْفُلُ كَاعِبَا
دَعْنِي أَجِدِ شَوْقًا إِلىَ مَخْضُوبَــــةٍ أَطْرَافُهَا بِدَمِي الطَّرِيِّ خَوَاضِبَا
مَنْ رَاحَ بِالبِيضِ النَوَاعِمِ هَائِـــمًا لَمْ يَغْدُ لِلسُّمْرِ الذَّوَابِلِ عَائِــبَا
وَ الصَّبُّ مَنْ خَاضَ الأَسِنَّةَ وَ الظُّبَى نَحْوَ الضِّبَاءِ مُطَاعِنًا وَ مُضَارِبَا
إِنْ لاَ يُسَلْ عَنِّي فَكُلُّ جَـــوَارِحِــي جُرْحٌ رَغِيبٌ بَثَّ فِيهِ رَاغِــــبَا
قَدْ صَيَّرَتْنِي العَامِرِيَّةُ عَامِـــــــرًا* أَلْقىَ الأَسِنَّةَ كَيْفَ شِئْتُ مُلاَعِبَا
أَمَّا الهَوَى فَأَخُو الوَغَى لَمْ أَسْتَــرِحْ مَنْ ذَا لِذَاكَ مُرَاوِحًا وَ مُــنَاوِبَا
فَكَأَنَّ عَهْدًا مِنْ وَلِّي العَهْـــدِ لِــي أَنْ تُسْفِرَ الغَمَرَاتُ عَنِّيَ غَالِــبَا(1) .

يفتتح الشاعر قصيدته بوصف مواكب قبائل الأعراب و فـي مقـدمتهم بنـي هـلال ، و قد وفدوا على الأمير الحفصي بعد مبايعتهم له ، فأتوا عن بكرة أبـيهم لتقديم طقوس الطاعة الولاء ، فيصفهم الشاعر بالكثرة و القوة و شدة البَأس ، فقـد أقبلوا على السلطان رجالا و نساء بين راكب و مترجـل مـسرعين نحـوه ، فقـد خضعت لسلطانه القبائل في مختلف النواحي و الجهات ، ثم يأخذ في وصف محاسن الهلاليات و قد تعلق قلبه بهن ، فجمال الأوانس يسلب الألباب و يفتك بالقلوب كمـا يفتك فرسانهم بالأبطال و المقاتلين ، ثم يشبههن عند رفع رؤوسهن و مد أعنـاقهن من داخل الهوادج بالضباء و قد مدت أعناقها لتناول أوراق الـشجر ، فـأطرافهن مخضبة بالحناء و عيونهن في الحسن آسرات ، كما شبه اشراقة الوجـوه و سـواد الشعر بالفجر و قد خلف وراءه ليلا شديد السواد ، ثم إن هؤلاء النسوة قد ضربـت

*- هو عامر بن مالك عم لبيد بن ربيعة العامري أحد شعراء المعلقات ، و كان عامر بن مالك من فرسان العرب و شجعانهم ، و لقب بملاعب الأسنة ، و يرى محقق ديوان عامر بن الطفيل ، أن عمه أبو براء هو من لقب بملاعب الأسنة و ليس عامرا ، و بالرغم من ذلك فقد كان عامرا من فرسان العرب المعدودين و المشهود لهم بالشجاعة و البأس . للمزيد ينظر/ ابن قتيبة : الشعر و الشعراء ، جـ 1 ، ص 269 . و عامر بن الطفيل : الديوان ، تقديم/ كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، 1383هـ/1963م ، ص 5- 8 .
(1)- ابن الأبار : الديوان ، ص 67- 69 .

عليهن قباب حمراء وهن مرتحلات ، و تولى حراستهن فرسان مدججين بالسلاح ، فليس إلى لقائهن سبيل ، ثم يستدرك و كأنه يقرر حقيقة بديهية فيقول ، إن من أحب الحسان حقيقة هانت في نفسه الصعاب و لم يبال بالمخاطر ، فالحب شبيه الحرب قسيمه فلا يقدم عليه إلا الشجاع المغامر ، مثله في ذلك مثل الحرب و ساحات المعارك .

لقد مزج الشاعر في مقدمة قصيدته هذه بين عدة موضوعات : كالوصف ، و الغزل ، و الفروسية ، معارضا بذلك بعض مقدمات قصائد المديح العربية ، كما تميزت مقدمة هذه القصيدة بالطول نسبيا ، على غرار جل مقدمات قصائد المديح لديه ، فاستهلك طاقات تعبيرية كان الموضوع الأساسي للقصيدة أولى بها ، فقد تعدت العشرين بيتا مشكلة بذلك ثلث القصيدة ، و قصر بقيتها على مدح السلطان أبي زكريا و ولده الأمير أبي يحيى ، واصفا كليهما بالشجاعة حينا و الفروسية حينا ثانيا و المجد و الكرم حينا ثالثا ، الأمر الذي وفر عنصر الانسجام بين مقدمة القصيدة و موضوعها الأساسي .

و من مقدمات ابن الأبار الغزلية ــ أيضاــ قوله يمدح المستنصر الحفصي ، من قصيدة على روي الجيم من بحر البسيط :

ذَكَرْتُ بَلْجَاءَ بِالإصْبَاحِ مُنْبَلِجَا ... وَ قَدْ تَنَفَّسَ عَنْ أَنْفَاسِهَا أَرَجَا

وَ مَا نَسِيتُ بِإِهْزَاجِ الحَمَامِ ضُحىً ... جَرْسَ الحُلِيِّ وَ لاَ وَسْوَاسَهُ الهَـزِجَا

غَدَاةَ زَارَتْ وَ لِلخَلْخَالِ مِنْ خَرَسٍ ... مَا لِلوِشَاحِ مِنَ الإفصاحِ مُعْتَلِجَا

نَجْدِيَّةٌ أَتْهَمَتْ تَقْضِي مَنَاسِكَهَا ... فَلَمْ تَدَعْ يَوْمَ طَافَتْ لِلحَجِيجِ حجا

وَضَّاحَةٌ بَلَجَا نَفَّاحَةٌ أَرَجًا ... حَسَّانَةٌ فَلَجًا فَتَّانَةٌ دَعَجًا

تَفُوتُ كُلَّ فَتَاةٍ فِي مَحَاسِنِهَا ... بِمَا تَفُتُّ بِهِ الأَرْوَاحَ وَ المُهَجَا

فَالخِصْرُ يُنْهِضُهَا ظَمْآنَ مُنْدَمِجًا ... وَ الرِّدْفُ يُنْبِضُهَا رَيَّانَ مُنْتَفِجَا

ضِدٌّ لِغُرَّتِهَا بَادٍ لِطُرَّتِهَا ... للهِ رَأْدُ الضُّحَى يَغْشَاهُ جُنْحُ دُجَى

كَلَفْتُ لِلحُسْنِ فِيهَا بِالغَرَامِ فَمَا ... قَرَّ المَلاَمُ عَلَى سَمْعِي وَ مَا وَلَجَا

قدْ علَّمَتْنِي الغَوَانِي أنْ أدِينَ لَـــــــهَا   وَ لَيْسَ يَجْهَدُ عودٌ يَحْمِلُ الغُنُـــــجَا*
حُبِّي صُرَاحٌ فَلاَ أبْلَلْتُ مِنْ دَنَــــــفٍ   إنْ شِيبَ يَوْمًا بِسُلْوَانٍ وَ إنْ مُــزِجَا
هَذِي التَّبَارِيحُ لَمْ تَبْرَحْ مُحَرَّمَـــــــةً   عِلاَجِ مَا شَقَّنِي مِنْهَا وَ مَا لَعَـــجَا
لاَ أرْتَضِي غَدْرَ سَاجِي الطَّرْفَ غَادَرَنِي   أرْعَى النُّجُومَ إذَا اللَّيْلُ البَهِيمُ سَـجَا
حَمَى القَرَارَ فُؤَادِي وَ الكَرَى بَصَــرِي   وَ أزْعَجَتْهُ دَوَاعِي البَيْنِ فَانْزَعَـــجَا
طَفِقْتُ ألْهَجُ فِيهِ بِالنَّسِيـــــــبِ وَ إنْ   عَهِدْتُهُ بِاجْتِنَابِي مُولَعًا لَهِــــــــــجَا
كَأنَّهُ الزَّمَنُ العَادِي عَلَى أدَبِـــــــي   يَسُومُنِي الصَّبْرَ فِيمَا شَجَّنِي وَ شَــجَا
إذَا اسْتَرَحْتُ إلَيهِ زَادَنِي وَصَــــــبًا   كَأنَّ ذَاكَ عَلَى مِنْوَالِ ذَا نُسِــــــجَا(1)

يبدأ ابن الأبار قصيدته بمقدمة غزلية ، فصورة المحبوبة لا تكاد تفارق خياله ، فالصباح المسفر يذكره طلعتها البهية و وجهها الوضاء ، و عبيـــر نـــسيمه يـــذكره بطيب نشرها ، كما أن هديل الحمام يعيد إليه صوت حليها و أدوت زينتها التقليدية ، فجمال المحبوبة و فتنتها تخلب لب الناسك المتعبد ، ثم يعدد محاسنها فهـــي بلجـــاء الوجه طيبة النشر فلجاء الأسنان دعجاء العينين هيفاء الخصر مكتنزة الردف شديدة سواد الشعر ، فحسنها قد جعل الشاعر يهيم بها ، فقد سلم زمام نفسه لهـــا ، فحبـــه صادق و صريح حتى أنه يتمنى ألا يشفى منه أبدا .

لقد حاول الشاعر العربي عبر العصور ، أن ينحت تمثـــالا نموذجيـــا رائـــع الجمال لصورة المرأة المتخيلة في ذهنه ، من خلال استثمار طاقات اللغـــــــــة و إمكاناتها التعبيرية ، فالمرأة عنده رمزا للخصب و النماء يستدعيها الشاعر مـــن ماضيه المشرق ، لمجابهة ومحاصرة رموز الجدب و الفناء ــ الأطلال الدارســـة و الأماكن المقفرة و الرحلة المؤذنة بالخراب ــ في حاضره المظلم أو معادلة

---

*- امرأة غنجة : حسنة الدل ، و قيل الغنج ملاحة العينين ، و قيل الغنج في الجارية تكسر و تدلل في المشية . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (غنج) ، جــ 2 ، ص 1022 .

(1)- ابن الأبار : الديوان ، ص 103- 104 .

الموقف نفسيا ، و السعي للتخفيف من حدة الصراع و المفارقة الحاصلة على أقل تقدير[1] .

و بعد وصفه للمحاسن و حديثه عن الحب ، يأخذ الشاعر في بث شكواه و تسجيل آلامه النفسية بعد أن تنكرت له هذه المرأة فهجرته و ابتعدت عنه ، فبقي وحيدا دون أنيس لا يغمض له جفن و لا يهدأ له فؤاد ، فبدأ يبحث على العزاء و تخفيف وطأة الهجر من خلال النسيب الذي يقدم به لقصائده ، لكن دون جدوى فقد استعصى عليه و لم تسعفه فيه قريحته الشعرية ، فيأخذ في شكوى الزمن و ما أوقعه به من متاعب و آلام كلما ركن إليه و سلم له زمام نفسه ، و لعل البين و الهجر الذي يشتكي منه الشاعر إنما هو فراق وطنه و الجلاء عن أرضه و أهله و أحبته بالأندلس .

و من مقدمات ابن الأبار الطللية قوله يمدح السلطان أبا زكريا و أولاده بعد التجائه إلى الإمارة الحفصية ، من قصيدة على روي اللام من بحر البسيط :

طَلَّتْ نَجِيعِيَ أَطْلاَءٌ وَ أَطْـــلاَلُ   بِحَيْثُ يُعْقَدُ إِحْرَامٌ وَ إِحْـــلاَلُ

مَنَازِلٌ كَانَتِ الأَقْمَارُ تَنْزِلُـــهَا   بِالْخِيفِ خَفَّتْ بِهِمْ نُوقٌ وَ أَجْمَالُ

جَرَّ البِلَى فَوْقَهُ أَذْيَالَهُ وَ جَـرَى   لِشُهْبِهِ بِالأُفُولِ الرَّاهِنِ الـــفَالُ

وَ كَمْ عَزَيْتُ حَدِيثَ الآنِسَاتِ بِهَا   وَ لِي إِلَى الأُنْسِ إِغْـذَاذٌ وَ إِرْقَالُ*

أَيَّامَ لاَ كَدَرٌ فِي الصَّفْوِ مُعْتَـرِضٌ   وَ لاَ لإِلْفٍ عَلَى الإِعْرَاضِ إِقْبَـالُ

وَ لِلْعَوَاذِلِ عَنِّي تَصَنُّعُـــهَا   كَمَا تُعَنِّي الخُصُورَ الهِيفَ أَكْـفَالُ

هَيْهَاتَ أَعْذَلُ فِي بَيْتِ الهَوَى نَسَبِي   فَفِيمَ يَكْثُرُ لُوَّامٌ وَ عُـــذَّالُ

وَ كَيْفَ يُوجِدُنِي السُّلْوَانُ مَعْـذِرَةً   وَ عُذْرَةٌ لِيَ أَعْمَامٌ وَ أَخْـــوَالُ

---

(1)- جميل عبد المجيد : بلاغة النص – مدخل نظري و دراسة تطبيقية – دار غريب للطباعة ، القاهرة ، 1999م ، ص 69 .

* - الارقال : ضرب من سير الإبل كالرسيم و الخبب و الوخد ... و قيل هو الإجذام و الإجماز أي سرعة سير الإبل ، و أرقلت الدابة أسرعت ، و هو العدو فوق الخبب . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (رقل) ، جـ 1 ، ص 1210 .

كَأَنَّ قَلْبِي فَرَاشٌ فِي تَقَحُّـــــــمِهِ نَارًا لَهَا بِأَكُفِّ الغِيدِ إِشْـــــــعَالُ
أَمَّا قَتُولُ التِي أَهْوَى تَدَانِيَـــــــهَا فَدُونَهَا مِنْ سَرَاةِ الحَيِّ أَقْـــــتَالُ
أُدِيرُ طَرْفِي إِلَىَ دَارَاتِهَا كَلِـــــــفًا وَ مِلْءُ قَلْــبِيَ آمَالٌ وَ آجَـــــالُ
هِيَ الثُّرَيَّا وَ عَيُّوقٌ يَحُفُّ بِـــــــهَا غَيْرَانَ يَكْفُلُ مِنْهَا الظَّبْيَ رِئْـــبَالُ*
غَزَالَةٌ كُلَّمَا أَعْزَتْ لَوَاحِظَـــــــهَا آبَتْ وَ أَفْئِدَةُ العُشَّاقُ أَنْـــــــفَالُ
ظَلَّتْ تُقَلِّصُ عُمْرِي وَ هْيَ فِي حُجُبٍ تَضْفُو عَلَيْهَا لِسُمرِ الخَطِّ أَظْــلاَلُ
تَعَجَّبَتْ مِنْ حَيَاتِي إِذْ رَأَتْ دَنِـــــفِي وَ فِي يَدَيْهَا شفاء لِي وَ إِبْـــــلاَلُ
مَعْسُولَةُ الرِّيقِ لَمْ أُنْكِرِ وَ قَدْ وُصِفَتْ أَنْ قِيلَ فِي قَدِّهَا المَيَّالِ عَـــسَّالُ
كَأَنَّ أَسْنَى الَّلآلِي فِي تَرَائِبِـــــــهَا مِمَّا تَلأْلأَ حُسْنًا وَ هْيَ مِعْـــطَالُ
يُقِلُّ مِنْــهَا قَضِيبُ البَانِ مُعْتَــــدِلاً دِعْصٌ مِنَ الرِّدْفِ مِنْهَارٌ وَ مِنْهَالُ
مَكَثْتُ فِيهَا عَلَىَ عَهْدِي وَ مَا مَكَثَتْ لِلحُبِّ حَالٌ وَ لِلمَحْبُوبِ أَحْـــوَال
وَ السَّيْفُ وَ الرُّمْحُ لاَ أَرْجُو دِفَاعَهُمَا إِذَا تَمَرَّسَ بِي قَلْبٌ وَ خَلْـــخَالُ(1)

يفتتح الشاعر قصيدته بوقفة طللية مستندا في ذلك إلى الإرث الشعري العربي الثري في هذا الباب و الذي يرجع إلى العصر الجاهلي ، فيصف ابن الأبار بقايا رسوم ديار أحبته و قد تحولت إلى مرتع و مرعى للظباء بعد أن كانت مسكنا للأحبة الذين غادروها و ارتحلوا عنها ، فقد أتت عوامل الفناء على هذه الديار فلم يبق منها إلا رسومها الشاخصة ، ثم يسترجع الشاعر ماضيه السعيد و أيام أنـــــسه و صفائه بهذه الديار ، و لقاء أحبته وسط دسائس عذاله و لائميه الذين يعملون ســـرا و علانية لصرفه عن وجه الحبيبة و صرف وجها عنه ، غير أن حاضره قد أضحى تعيسا بعد تفرق الشمل و هجرة الأحبة ، و على الرغم من ذلك فإن لائميــه و عذاله لم يكفوا عن ملاحقته بالأدى ، و لعله يشير إلى خصومه و منافسيه بالبلاط الحفصي الذين يريدون أن يفسدوا علاقته مع الأمير ، ثم يستدرك ليعود إلى حديث

---

*- الرئبال : من أسماء الأسد و الذئب ، و قيل من تلده أمه وحده . للمزيد ينظر/ ابن منظور : لسان العرب المحيط ، مادة (رأبل) ، جـــ 1 ، ص 1088- 1089 .
(1)- ابن الأبار : الديوان ص 243- 244 .

الحب ، فيشير إلى أنه مجبول على الهوى فلا يستغرب منـــه ، و كيــف يــستغرب الحب من رجل ينسب إلى بني عذرة ، ثم يصور نفسه في صورة الحبيب المتهالــك اللجوج الذي لا يكف عن محاولة لقاء حبيبته المحروسة وســط فرســان قومهــا ، فيكتفي بتوجيه عينيه نحو منزلها و تمني اللقاء ، غير أن ذلك مستحيل الوقـــوع ، و بعدها يأخذ الشاعر في وصف محاسنها ، فهي حلوة الريق ممشوقة القوام مسقولة الرقبة ممتلئة الوسط ، و قد بقي الشاعر وفيا لها مقيما على عهدها ، بالرغم من قلة وفائها و عدم تمسكها بالعهد على عـــادة الغواني .

وتحمل هذه المقدمة الطللية دلالات عميقة تتجاوز حـــدود الوصـــف الحـــسي للرسوم الدارسة ، وبقايا الديار المرتحل عنها ، والحبيبة الظاعنة ، ففي الجمع بـــين الأطلال والمرأة ــ وهما عنصران أساسيان تقوم عليهما المقدمة الطليلة ــ إشـــارة إلى ما يذكر بالفناء والدمار من جهة ، وما يذكر بالخصب والحياة من جهة أخرى ، وما اجتماع هذين الضدين إلا دليلا على إحساس الشاعر بالتناقض العام الماثل فـــي العالم الخارجي أو المستقر في عالمه الباطني(1).

و بالنظر إلى أن الطلل هو تفجع وبكاء على فقدان المكان ، فقد عبر الـــشاعر عن تمسكه بالأرض ، من خلال ذكره لأماكن معينة والاستفاضة في أوصافها إلى حد الهيام بها ، وهو الموقف الذي يقفه ابن الأبار القضاعي من موطنه الذي نـــزح عنه مكرها ، من خلال مقدماته الطللية التي يفتتح بها بعض مدائحه للحفصيين .

---

(1)- عز الدين إسماعيل : روح العصر ، ص 19- 20 .

- التخلص و الخروج :

حرص ابن الأبار على تحسين تخلصه و تجويد انتقاله في مدائحه في البلاط الحفصي ، من مقدمة القصيدة إلى الغرض الأساسي الذي أنشئت من أجله ، مستجيبا في ذلك لتوجيهات النقاد القدماء الذين بسطوا القول في هذا المفصل الهام من مفاصل القصيدة المركبة ، كما حددوا أساليب التخلص و طرق الانتقال بين موضوعات القصيدة .

و قد اعتنى شعراء الأندلس بتحسين تخلصاتهم من موضوع إلى موضوع آخر داخل قصائدهم المركبة ، ((و سلك شعراء الأندلس مسالك عدة للتخلص الرقيق و الانتقال الهادئ في قصائد المديح باستخدام أدوات للربط ، مثل : كأن المخففة أو الثقيلة و الكاف ، و الواو ، و الفاء ، و أو ، و أساليب الشرط و القصر و الاستفهام غير الحقيقي ؛ لإيهام المتلقي باتصال المعنى داخل السياقات المختلفة و انسيابه انسيابا عفويا))(1) .

و من تخلصات ابن الأبار البارعة قوله :

كِلاَنَا عَلَى أَقْصَى الهَوَادَةِ وَ الهَوَى فَلاَ عَذْلٌ يُقْصِي وَ لاَ غَزَلٌ يُقْصِي

كَأَنَّ جَنَاهَا مِنْ جَنَى العَيْشِ بَعْدَهَا لِيَحْيَى بْنُ عَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ أَبِي حَفْصِ

إِمَامٌ أَجَارَ الحَقَّ لَمَّا اسْتَجَارَهُ وَ قَدْ رَسَخَ الإِدْعَانُ لِلغَمْطِ وَ الغَمْصِ*(2)

ينهي ابن الأبار مقدمة قصيدته بعد وقفته الغزلية ، باسترجاع أيامه السعيدة بالأندلس ، التي شهدت أيام لهوه و أنسه و غزله بمن يحب ، فلم يستطع العذال أن يفرقوا بينه و بين محبوبته و لم ينقطع غزله فيها ، ثم يعقد مشابهة باستعمال أداة التشبيه الكاف المقرونة بأن المشددة ، بين أيام صفاءه الماضية بالأندلس و أيامه الحاضرة في كنف السلطان أبي زكريا الحفصي ، الذي أحاطه برعايته و وفر له

---

(1)- أشرف محمود نجا : قصيدة المديح في الأندلس ، ص 174 .

* - الغمص : غمصه حقره و استصغره و لم يره شيئا ، و غمص النعمة تهاون بها وكفرها ، و ازدرى بها . للمزيد ينظر/ ابن منظور: لسان العرب المحيط ، مادة (غمص) ، جـ 2 ، ص 1017.

(2)- ابن الأبار : الديوان ، ص 332 .

حياة رغدة و عيشا كريما ، الأمر الذي يوجب على الشاعر أن يمدحه و يحسن الثناء عليه ، فلا يتأخر عن ذلك الواجب فيتحرك لسانه بالشكر و يلهج بالمدح و الثناء على الممدوح .

و من تخلصات ابن الأبار الجيدة قوله :

نَدَرَتْ دَمِي قَبْلَ اقْتِرَاحِ عِنَاقِهَا فِئَةٌ لَهَا نَحْوَ الأَذَى إِعْنَاقُ
لَمْ تَدْرِ أَنِي فِي جِوَارِ خَلِيفَةٍ بِيَمِينِهِ الآجَالُ وَ الأَرْزَاقُ
لاَ يُشْتَكَى فِي عَصْرِهِ بِإِضَافَةٍ وَ لَهُ بِمَا يَسَعُ المُنَى إِطْلاَقُ(1)

بعد أن يصف الشاعر عواطفه التي تجيش في صدره نحو محبوبته و يتمنى لو تبادله المشاعر نفسها ، غير أنها محروسة بفرسان قومها و رجال أهلها المتأهبين لقتله و إهدار دمه دون تريث و لا توان ، لكنهم يجهلون أن الشاعر في حمى الخليفة و جواره ، و قد يكون ابن الأبار يشير من طرف خفي إلى خصومه بالبلاط الحفصي ، الذين يسعون للتخلص منه و إبعاده عن البلاط ، غير أن الشاعر يبالغ في وصف الممدوح بإدعاء أن الآجال و الأرزاق بيمينه و طوع أمره*، لكن تخلصه من الغزل إلى المديح كان بارعا ، فلا يشعر معه السامع بفجوة في الانتقال من المقدمة إلى الغرض الأساسي للقصيدة ، لأنه تدرج في معانيه و قرب بين طرفي الجزء المتخلص منه و الجزء المتخلص إليه .

و قال ابن الأبار متخلصا من الغزل إلى مديح السلطان أبي زكريا الحفصي و أولاده عند التجائه إليه ، من قصيدة لامية على بحر البسيط :

وَ السَّيْفُ وَ الرُّمْحُ لاَ أَرْجُو دِفَاعَهُمَا إِذَا تَمَرَّسَ بِي قَلْبٌ وَ خَلْخَالُ
لَوْلاَ اتِّصَالِي بِسُلْطَانِ الأَمِيرِ لَقَدْ لاَقَتْ بِهَا القَدُّ آرَابٌ وَ آجَالُ

(1)- المصدر السابق : ص 387 .
*- لقد وقع ابن الأبار في المبالغة الممجوجة ، فالآجال و الأرزاق بيد الله عز و جل ، و ليست بيد البشر ، و لم يستطع الشاعر أن يحترز من الوقوع في هذه المبالغات التي يتجنبها الشعراء — عادة — بتوظيف بعض الأدوات اللغوية مثل : لولا ، و أفعال المقاربة مثل كاد ، أوشك ...

مَلِكٌ تَمَهَّدَتِ الدُّنْيَا بِدَوْلَتِـــــــــهِ وَ قَدْ تَحَيَّفَهَا لِلحَيْفِ زِلْــزَالُ[1]

فقد أنهى الشاعر مقدمته الغزلية بحديثه عن ســطوة الحــب عليــه و ســلطة المحبوبة على قلبه ، و قد أشار إليها بذكر بعض أدوات زينتها و حليها ، و أنــه لا يبالي بالمخاطر التي يواجهها في مثل هذا المقام ، ثم يتخلص من الغزل فيــذكر أن اتصاله بالممدوح هو الذي جنبه المهالك التي كادت أن تقوده إلــى حتفــه ، فلــولا السلطان الذي احتمى به لكان من الهالكين ، ثم ينتقل إلى مدح الــسلطان ، فالدولــة التي أقامها قد أقرت الأمن و أوجدت الاستقرار للبلاد .

(1)- المصدر السابق : ص 244 .

- خاتمة القصيدة :

اعتنى ابن الأبار بتحسين إنتهاءات مدائحه بالبلاط الحفصي اعتناءه بمطالعها ، مستجيبا في ذلك لتوجيهات النقاد الذين اشترطوا وجوب تضمين خواتيم القصائد حكمة بالغة أو مثلا سائرا أو تشبيها بديعا ، من أجل اثارة انفعالات الممـــــــــدوح و إطلاق يده بالمكافأة و إجزال الهدية .

((و ليس أقدر على إثارة انفعالات الممدوح ، من الدعاء له بالخير و العـــزة و دوام الأجل و الملك و تحقيق الأهداف و الآمال و النصر على الأعـــــــــداء و المشركين ، و ما شابهها من معان))[1] .

و من خواتيم قصائد ابن الأبار قوله مادحا السلطان أبا زكريا ، من قصيدة على روي القاف من بحر الكامل :

دَامَتْ لَنَا الأَيامُ أَعْيَادًا بِـــهِ   وَ لَهَاهُ فِي أَجْيَادِنَا أَطْوَاقُ

وَ الفِطْرُ مِثْلُ النَّحْرِ فِي أَعْدَائِهِ   مِمَّا يُسَالُ نَجِيعُهَا وَ يُرَاقُ[2]

لقد تحولت كل أيام السنة في نظر الشاعر بوجود الأمير بين رعيته ، إلى أعياد مستمرة يملؤها البشر و يغمرها السرور و تحفها البهجة ، و إن نعم الممـــــــدوح و أياديه البيضاء على الرعية قد صارت أطواقا في أعناقهم ، بالمقابل فإن تصدي الممدوح لأعدائه و مواجهتهم لا تعرف التوقف حتى في الأعياد الدينية كعيد الأضحى و عيد الفطر ، كما ينطوي البيت على تورية طريفة في كلمة النحر التي تفيد عيد الأضحى من جهة و تفيد نحر الأعداء و مقاتلتهم من جهة أخرى ، فالممدوح بار برعيته شديد البأس على أعدائه .

---

(1)- أشرف محمود نجا : قصيدة المديح في الأندلس ، ص 187 .
(2)- ابن الأبار : الديوان ، ص 388 .

و قال ــ كذلك ــ يمدح السلطان أبا زكريا و يستعطفه و يسترضيه ، بعد غضبه عليه و إبعاده عن البلاط ، من قصيدة دالية على بحر الرمل :

وَ لَهُ الفَضْلُ عَلَى أَمْلاَكِــهَا   شَبَهًا صَاغُوا وَ صَاغَ العَسْجَدَا

لاَ عَدَاهُ النَّصْرُ وَ التَّأْيِيدُ مَا   غَارَ فِي الآفَاقِ نَجْمٌ وَ بَــــدَا(1)

لقد ارتفع السلطان على كل ملوك العرب و تفوق وازداد مكانة ، ففضلــه عليهم كفضل الذهب على النحاس و سائر المعادن ، ثم يدعو الشاعر في ختام القصيدة للمدوح بدوام النصر على الأعداء واستمرار التأييد من قبل الرعية ما دام الليل و النهار .

و قال ــ أيضا ــ يمدح السلطان أبا زكريا و أولاده الثلاثة من قصيدة لامية على بحر البسيط :

حَتَّى المَدَائِحُ مِنْ جَدْوَاكَ لِي هِبَةٌ   مِنِّي كِتَابٌ وَ مِنْ عَلْيَاكَ إِمْلاَلُ

فِضْ أَيُّهَا البَحْرُ مَعْرُوفًا وَ مَعْرِفَةً   تَعْلِمْ وَ تَرْوِ صَدَى هِيمٍ وَ جُهَّالُ(2)

يشيد الشاعر بأفضال الممدوح و خيره العميم و أياديه البيضاء عليه التي لا تعرف الفتور ، بل إن كل مدائحه و ما أبدعته قريحته من غرر الأشعار و بدائع الأفكـــار و لطائف المعاني ، هي من إلهام الممدوح و إملاءاته و ما دور الشاعر فيها إلا تقييدها بالكتابة ، ثم يشبه الممدوح بالبحر الخضم و يطلب منه أن يفيض بالخير و الكرم و العلم و المعرفة على من حوله ، حتى يرتوي كل ظمآن و ينير فكر كل جاهل .

---

(1)- المصدر السابق : ص 161 .
(2)- المصدر نفسه : ص 248 .

3- القصيدة البسيطة :

جاءت الكثير من مدائح ابن الأبار للحفصيين في شكل قصائد بسيطة مستقلة الموضوع ، فقد أسقط مقدمة القصيدة و ما يلازمها من عناصر من بعض مدائحه في البلاط الحفصي ، بادئا بموضوعه من الوهلة الأولى ، و لعلنا لا نجانب الصواب و لا نتنكب الحقيقة إذا قلنا ، إن معظم قصائد مديح ابن الأبار للحفصيين كانت بسيطة مستقلة الموضوع ، و بالرغم من بساطتها فقد جاءت بارعة الاستهلال محكمة البناء في لفظها و معناها حسنة الخاتمة .

و من قصائد ابن الأبار البسيطة المستقلة الموضوع ، قوله يمدح السلطان أبا زكريا بمناسبة إسناد ولاية العهد لابنه محمد المستنصر ، بعد و فاة ولي العهد السابق ولده زكريا أبي يحيى حاكم بجاية ، من بحر الطويل على روي النون :

رَأى اللهُ مَا أَرْضَاهُ مِنْ سَعْيِهِ الأَسْنَى فَجَدَّدَ بِالعَامِ الجَدِيدِ لَهُ الحُسْــــــنَى

وَ شَيَّدَ بِالتَّأيِيدِ أَرْكَانَ أَمْــــــــرِهِ فَلَمْ تُبْقِ لِلأعْدَاءِ صَوْلَتُهُ رُكْــــــنَا

غَزَتْهُمْ جُيُوشُ الرُّعْبِ* قَبْلَ جَيُوشِهِ فَإِنْ أُخِذُوا هَوْنًا فَقَدْ وُقِدُوا وَهْـــــنَا

وَ عَيَّدَتِ الأَضْحَى خِلاَلَ دِيَارِهِـــمْ فَلاَ غَرْوَ أَنْ قِيدُوا لِنَحْرِهُـمُ بُــدْنَا

أَلاَ تِلْكَ أَعْنَاقُ البِلاَدِ بِأَسْــــــرِهَا خَوَاضِعُ لَمَّا دَوَّخَ السَّهْلَ وَ الحَــزْنَا

أَبَى النَّصْرُ أَنْ يُلْوِي بِدَيْنٍ لِــوَاؤُهُ فَمَنْشُورُهُ يَطْوِي المَعَاقِلَ وَ المُـــدْنَا

إِذَا المَغْرِبُ الأَقْصَى رَمَى بِقِيَــادِهِ إِلَيْهِ فَمَاذَا يَصْنَعُ المَشْـــرِقُ الأَدْنَى

كَأَنِّيَ بِالزَّوْرَاءِ تَخْطُبُ أَمْنَــــــــهُ وَ قَدْ بَثَّ فِي مَرَّاكُشَ العَدْلَ وَ الأَمْنَا(1)

---

*- يشير الشاعر بقوله جيوش الرعب ، إلى قوله (صلى الله عليه و سلم) ، ((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَ جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَ طَهُورًا ...)) . للمزيد و الإطلاع على الحديث كاملا بسنده و متـــنه ، ينظ/ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري ، دار المعرفة ، بيروت ، كتاب التيمم ، جـــ 1 ، ص 70 .

(1)- ابن الأبار : الديوان ، ص 296-297 .

يتحدث الشاعر عن المكتسبات التي ما فتئ السلطان أبـي زكريـا الحفـصي يحققها في مملكته باستمرار ، فقد وفقه الله ــ عز و جل ــ في كل ما يقدم عليه من أعمال البر و الإحسان ، فنال بها الممدوح رضاه و بركاته ، فقد أرسى دعائم دولته التي خضعت لها الممالك و الامارات طائعة أو مكرهة ، كمـا تـصدى الممـدوح بشجاعة لأعدائه فلاحقهم و أنزل بهم الرعب بما حملته الأخبار إليهم من عزمـه و استعداده لقتالهم قبل أن تصل جيوشه إليهم ، فلما بلغ ديارهم أوقع بهم الهزيمـة و تركهم بين قتيل و أسير و هارب ، و خضعت لإرادته الممالك و الإمـارات ، و سلمت له زمام أمرها ، فالنصر حليفه ملازما لرايته أينما سـار و حيثمـا حـل بالحصون و المدن ، فقد دخل في بيعته و ألقى مقاليد أمره له المغرب الأقصى رغم بعده و حصانته ، فكيف لا ينقاد له المشرق الأدنى القريب منه ، فتطلعت بغـداد ــ عاصمة الخلافة الإسلامية ــ تنشد أمنه و تخطب رضاه ، بعد ما بلغها من عدلـه و معروفه بمراكش التي استجابت لمبايعته من قبل .

فالشاعر يبدأ قصيدته مباشرة بمدح السلطان أبي زكريا دون تمهيد و لا مقدمة ، متحدثا عن شجاعة الممدوح و انتصاراته مغربـا و مـشرقا و حكمـه العـادل ، فاستجابت له الحصون و أذعنت لأمره المدن و انصاعت لمشيئته القلاع و دخلـت في حماه البلاد القصية فضلا عن البلاد القريبة .

و قال ــ أيضا ــ يمدح المرتضى أبا زكريا و يهنئه بمناسبة فتح تلمسان ، من بحر البسيط على روي القاف :

لِمَنْ وَقْعَةٌ بِالغَرْبِ ضَعْضَعَتِ الشَّرْقَا   أَرَاقتْ نَجِيعَ المَارِقِينَ فَمَا يَـــرْقَا

وَ أَزْجَتْ مِنَ النَّقْعِ المُثَارِ سَحَائِـبًا   تَأَلَّقَ مَصْقُولَ الحَدِيدِ بِهَا بَـــرْقَا

مُطَبِّقَةٌ عَرْضَ البِلاَدِ وَ طُولَـــهَا   فَلاَ وَجْهَ إلاَّ وَاجَهَتْهُ وَ لاَ أُفْـــقَا

كَأَنَّ شِيَاتِ البُلْقِ تَحْمِلُ شِـــرَّةً   لِقَلْبِيَ بَلْ أَوْضَاحُهَا تُشْهِرُ البُلْـــقَا

تَطَاوَحَ فِيهَا مَنْ بَغَى كَيْفَمَا نَبَــغَى   وَ حَاقَ الرَّدَى إلاَّ بِمَنْ دَافَعَ الحَـــقَّا

فَمِنْ أَصْيَدٍ جِيدًا لِفِيهِ مُجَــــــدَّلٍ وَ مِنْ أَشْوَسٍ طَرْفًا وَ مِنْ أَهْرَتٍ شَدْقَاَ
أُسُودٌ وَ لَكِنَّ الأُسُودَ حَقِيقَـــــــةً سُقَاتُهُمْ صَرْفَ المَنِيَةِ وَ الزَّنْـــــــقَاَ
أَدَارُوا عَلَيْهِمْ كُلَّ حَمْرَاءَ ضُمُنِّــتْ بَشَاشَةَ مَنْ يَسْقِي وَ إِجْهَاشَ مَنْ يُسْقَى
عُصَاةٌ أَطَاعَ اللهَ فِيهِمْ مُبِيرُهُـــــمْ فَحَصَّهُمُ قَدّاً وَ عَتَّهُــــــــــــمْ دَقاَ
أَخَامِسُ تُنْمِيهِمْ زَنَاتَةٌ لِلْــــوَغَى وَ حُقَّ عَلَى الأَغْصَانِ أَنْ تُشْبِهَ العِـرْقاَ(1)

يفتتح ابن الأبار قصيدته بالمديح مباشرة ، متسائلا عن هذه الغزوة العظيمة التي دارت رحاها بالغرب و بلغت أصداؤها أسماع الشرق ، فقد غزا السلطان أبو زكريا الحفصي بني عبد الواد حكام تلمسان ، و أنزل بهم الهزيمة و استحل دماء الخارجين عن أمره ، و كان لهول هذه المعركة أن حجب الغبار نور الشمــــس و تراءت السيوف تلمع كأنها البرق في وسط السحاب ، و قد اتسعت رقعة هذه المعركة لتشمل البلاد كلها ، و تحرك لهذه الموقعة قلب الشاعر خفاقا ، فاندحر البغي و ارتفع الحــق ، تم يتوقف الشاعر عن وصف أجواء المعركة التي يظهر أنه قد حضرها فيأخذ في وصف أبطالها من الطرفين ، فيشبههم بالأسود الضارية المتحفــزة للوثوب ، ثم يصف خصوم الممدوح بأنهم عصاة يستحقون القصاص العادل ، و يذكر الشاعر قبيلة زناتة التي ينتسب إليها حكام الدولة الزيانية بتلمسان ، و أن مقاتليها أبطال أشاوس ورثوا الشجاعة عن أسلافهم ، فبالرغم من محاربتهم للممدوح إلا أن الشاعر أنصفهم و لم يقلل من شأنهم ، فقد استدركوا الموقــــف و دخلوا في حمى الممدوح طائعين .

و قال ابن الأبار يمدح أبا زكريا بمناسبة العفو عنه ، من قصيدة لامية على بحر الطويل :

تَحَلَّتْ بِعَلْيَاكَ اللَّيَالِي العَوَاطِـــــلُ وَ دَانَتْ لِسُقْيَاكَ السَّحَابُ الهَوَاطِلُ
وَ مَا زِينَةُ الأَزْمَانِ إِلاَّ مَنَاقِـــــبٌ يُفَرِّعُهَا أَصْلاَنِ : بَأسٌ وَ نَائِـــلُ
إِذَا الصَّوْلُ وَ الطَّوْلُ اسْتَقَرَّا بِرَاحَــةٍ تَرَقَّتْ لَهَا نَحْوَ النُّجُومِ أَنَامِـــلُ

(1)- المصدر السابق : ص 379- 380 .

وَ مَنْ دَانَ هَذَا الدِّينُ حَقّاً بِنَصْــــرِهِ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ أَهْلِ دُنْيَاهُ خَـــــاذِلُ
لَكَ الخَيْرُ هَذِي العُجْمُ وَ العُرْبُ تَغْتَدِي بِهَا مُنْشَآتٌ أَوْ تَرُوحُ رَوَاحِـــــلُ
تَمَلَّكَهَا رُغْبٌ وَ رُعْبٌ مُخَامِـــــــرٌ فَرُسْلٌ عَلَى حُكْمِ المُنَى وَ رَسَائِـــلُ
وَ رَدَّ عَلَى رَغْمِ الأُنُوفِ وُجُوهَـــــهَا إِلَيْكَ أَسَاطِيلٌ سَطَتْ ، وَ جَحَافِـــلُ(1)

يباشر الشاعر مدحه للسلطان أبي زكريا الحفصي مــن مطلــع القــصيدة دون مقدمة و لا تمهيد ، فيقول إن الليالي التي غابت عنها نجومها التي كانت تتحلى بهــا و تتزين ، قد و جدت في مجد الممدوح و علو شأنه بديلا عنها ، كمــا أن كرمــه الفياض و جوده العميم فاق جود السحائب الممطرة ، فاعترفت له بالفضل و سلمت له بالسبق ، ثم يقف ليقرر بديهية مسلم بصحتها مفادها ، أن أحسن ما في الدهـــر و أسما ما في الوجود فضيلتان : الشجاعة و الكرم ، فقد حازهما الممدوح و تميــز بهما ، فبلغ المجد و السؤدد ، ثم يمدحه بنصرة الدين و إعلاء لواءه فأطاعه الــناس و لم يخذله أحد ، فأضحى مأمول الخير مرهوب الجانب ، و قد قصده الناس قاطعين البحار بالسفن أو الفيافي و القفار بالرواحل ، كما أن الممالك من عرب و عجم قــد تهيبته فراحت تخطب وده بالرسائل و الوفود ، و سبب ذلك قوة جيشه العرمرم الذي اكتسح البر و البحر ، فأرغم الخصوم و المناوئين على مسالمته و طلب عفوه.

لقد استجاب ابن الأبار في مدائحه بالبلاط الحفصي للــشكل الفنــي للقــصيدة العربية القديمة ، غير أن هذه الاستجابة لم تكن تامة و مطلقة ، و جــاءت مدائحــه للحفصيين على نمطين : قصائد مركبة متعددة الموضوعات التزم فيها بأهم أجــزاء القصيدة العربية التقليدية ، من مقدمة و حسن التخلص إلى المديح و خاتمة ، غيــر أنه أسقط بعض أنواع المقدمات و بعض عناصرها ــ أيضا ــ كوصف الرحلـــة و الراحلة و مشاهد الطريق وصولا إلى الممدوح ، هذه العناصر التي أصــبحت لا تتلاءم مع روح العصر و طابع البيئــة و دوق الشاعر و الممدوح معا .

---

(1)- المصدر السابق : ص 235- 236 .

أما من ناحية الطول و القصر في مقدمات ابن الأبار ، فقـد اسـتهلكت جـل مقدماته ثلث القصيدة ، و هو طول نسبي ملحوظ و ربما تجاوزت بعض مقـدمات قصائده الأربعين بيتا ، الأمر الذي جعله يستنزف الكثير من الألفاظ و المعاني التي كان موضوع القصيدة الأساسي أولى بها .

كما أنه اكتفى بنوعين من المقدمات هي : المقدمة الغزلية في الغالب الأعـم ، و المقدمة الطللية في القليل النادر ، متخليا عن غيرهما من الأنواع الأخرى .

أما الكثرة الكثيرة من مدائحه بالبلاط الحفصي ، فجاءت على شـكل قـصائد بسيطة مستقلة الموضوع ، حيث يبدأها مباشرة دون مقدمة و لا تمهيـد ، متنـاولا المديح من أول وهلة ، غير أنها لا تخلو من براعة الاسـتهلال و لا مـن حـسن الخاتمة .

و على العموم فإن ابن الأبار في مدائحه للحفـصيين ، ينقـاد حينـا لطريقـة الأقدمين في بناء قصائدهم و يتنكر لها حينا آخر ، و يتناول الغرض مباشـرة دون مقدمة و لا تمهيد في أحايين كثيرة ، حيث يطرق المديح من مطلع القـصيدة إلـى نهايتها .

ب ــ الصورة الشعرية :

1- توطئة نظرية :

الصورة الشعرية شكل تعبيري عما يجيش في نفس الشاعر أو الأديب من عواطف و أحاسيس ، و ما يختلج في ذهنه من أفكار و معان ، فيعمل على إيصالها إلى المتلقي، بشكل يجلب انتباهه و يثير ذائقته الفنية و يدفعه للتفاعل معها ، و لتحقيق هذه الغاية يتوسل الشاعر أو الأديب اللغة و ما تمنحه له ألفاظها و عباراتها و أساليب أدائها ، من طاقات تعبيرية مشحونة و مكثفة و موحية بما يقصد التعبير عنه .

و من تعريفات الصورة الشعرية ما جاء في قاموس مصطلحات الأدب : ((الصورة الأدبية هي ما ترسمه مخيلة الأديب باستخدام اللفظ كما ترسمه ريشة الفنان ، و تكون متأثرة بحالة الأديب النفسية ، إما بهيجة ، و إما كئيبة ، و تتجلى الصورة في التشبيه و المجاز و الاستعارة و الكناية ، و المعروف أن الصورة الأدبية الموفقة تخلق في النص جمالا و جذبا))[1].

و أشار النقد الأدبي القديم إلى الصورة الشعرية و عدها إحدى الركائز الأساسية للشعر ، غير أن حديث القدماء حول الصورة الشعرية كان مجملا ، إذ لم يفصلوا القول فيها و لم يحددوا أنواعها و أشكالها و طرق توظيفها بدقة .

و من النقاد القدماء الدارسين لتراثنا الأدبي الذين أشاروا باقتضاب إلى التصوير في الشعر ، نجد الجاحظ من خلال تعريفه للشعر فقد ذكر قائلا : ((فإنما الشعر صناعة و ضرب من النسج و جنس من التصوير))[2] .

---

(1)- محمد بوزواوي : قاموس مصطلحات الأدب ، دار مدني للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر ، 2003م ، ط 1 ص 161 .

(2)- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : الحيوان ، تحقيق/ عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط 4 ، 1395هـ/ 1975م ، جـ 3 ، ص 131 .

و لم يتجاهل عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ/ 1078م) الصورة الشعرية فأشار إليها بقوله : ((و جعلوا كالمواضعة بينهم أن يقولوا اللفظ و هم يريدون الصورة))[1] .

و حاول ابن رشيق ــ من جهته ــ أن يفصل القول في الصورة الشعرية عند حديثه عن الوصف و التشبيه و الفرق بينهما ، فعد الوصف صورة مباشرة و التشبيه صورة غير مباشرة ، فقال : ((الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ، و لا سبيل إلى حصره و استقصائه ، و هو مناسب للتشبيه ، مشتمل عليه ، و ليس به لأنه كثيرا ما يأتي في أضعافه ، و الفرق بين الوصف و التشبيه أن هذا إخبار عن حقيقة الشيء ، و أن ذلك مجاز و تمثيل . و أحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع))[2] .

أما حازم القرطاجني فقد عد التخييل عماد الصناعة الشعرية فقال : ((واعتماد الصناعة الشعرية على تخييل الأشياء التي يعبر عنها بالأقاويل ، و بإقامة صورها في الذهن بحسن المحاكاة))[3] .

أما النقد الأدبي الحديث فقد احتفى بالصورة الشعرية و اعتنى بدراسة جوانبها عناية فائقة ، و لعلنا لا نبالغ حين نقول إن نقاد الأدب و صيارفته في عصرنا هذا ، لم يعتنوا بقضية من قضايا الشعر عنايتهم بالصورة الشعرية ، وذلك من خلال تحديد مفهومها و إحصاء أنواعها و أشكالها و إيضاح خصائصها و مجالات توظيفها في القصيدة .

و يأتي جابر عصفور في طليعة الدارسين المحدثين الذين أولوا عنايتهم بالصورة الشعرية ، فقد عرفها بقوله : ((الصورة الفنية طريقة خاصة من طرق التعبير ، أو وجه من أوجه الدلالة ، تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من

(1)- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، دار المعرفة ، بيروت ، 1986م ، ص 338 .
(2)- ابن رشيق : العمدة ، جـ 2 ، ص 294 .
(3)- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ، ص 62 .

المعاني من خصوصية و تأثير . و لكن أيا كانـــت هــذه الخـــصوصيـــة ، أو ذاك التأثير ، فإن الصورة لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته . إنهـــا لا تغيـــر إلا مـــن طريقة عرضه و كيفية تقديمه))[1] .

و تناول مصطفى ناصف الصورة الشعرية بالدراسة و البحث ، فقد عدها نتـــاج مشترك لتعاون الحواس و الملكات ، و أنها عنصر إثارة للعواطف و الأفكار .

((إن التصوير في الأدب نتيجة لتعاون كل الحواس ، و كل الملكات ؛ و الشاعر المصور حين يربط بين الأشياء يثير العواطف الأخلاقية و المعاني الفكرية ، و في الإدراك الاستعاري خاصة تتبلـــور العاطفـــة الأخلاقيـــة و تتحـــدد تحـــددا تابعـــا لطبيعته))[2].

و أدلى علي البطل ــ هو الآخرــ بدلوه في موضوع الصورة الشعرية ، فقـــد أفردها بالدراسة من خلال كتابه الموسوم (الصورة في الشعر العربي حتى أواخـــر القرن الثاني الهجري) ، فبحث في أصولها و تطورها في الشعر العربـــي القـــديم وصولا إلى نهاية القرن الثاني الهجري ، و يعرفها بقوله : ((فالـــصورة تـــشكيل لغوي ، يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة ، يقف العـــالم المحـــــسوس فـــي مقدمتها))[3] .

كما نشير إلى أن موضوع الصورة قد خص بالبحث و الدراسة العميقـــين مـــن طرف الدارسين الغربيين ، فقد كانت الصورة و لا تزال عندهم تحظى باهتمامهـــم و تتصدر دراساتهم النقدية لشعر شعرائهم .

و من هؤلاء نجد فرانسوا مورو(François Moreau) الذي يعترف مـــن الوهلة الأولى بصعوبة ضبط مفهوم الصورة و تحديد مدلولها بدقة ، فيقـــــــول :

---

(1)- جابر عصفور : الصورة الفنية – في التراث النقدي و البلاغي ، دار الثقافة للطباعة و النشر ، القاهرة ، 1974م ، ص 392- 393 .
(2)- مصطفى ناصف : الصورة الأدبية ، دار الأندلس ، بيروت ، ط3 ، 1983م ، ص 8 .
(3)- علي البطل : الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري– دراسة في أصولها و تطورها ، دار الأندلس ، بيروت ، ط 2 ، 1981م ، ص 30 .

((إن الصورة (Image) هي واحدة من الكلمات التي ينبغي أن يستعملها عالم الأسلوب بحذر و ضبط دقيقين ، إذ إنها غامضة و غير دقيقة في نفس الآن ، غامضة لكونها تسمح باستعمالها بمعنى عام مبهم جدا وواسع جدا ، و ذلك بالنظر إلى هذا الاستعمال من منظور أسلوبي ، و غير دقيقة لأن استعمالها ، و لو في مجال البلاغة المحصور ، عائم و غير محدد بدقة))(1) .

و للصورة الشعرية أنواع متعددة و أشكال مختلفة ، و يعود سبب هذا إلى تعدد و تنوع و اختلاف الأدوات البلاغية و الأساليب اللغوية التي تتشكل منها .

و يعترف جابر عصفور بصعوبة حصر الأنواع البلاغية للصورة الفنية ، فيلجأ إلى اختيار أهم الأدوات البلاغية المشكلة لها ، فيقول : ((و ليس ثمة مفر من التوقف عند التشبيه و الاستعارة فحسب ، و الاختيار هنا له ما يبرره بالطبع ، فالتشبيه هو أكثر الأنواع البلاغية أهمية بالنسبة للناقد و البلاغي القديم ، و الحديث عنه بمثابة مقدمة ضرورية لا يمكن تأمل الاستعارة و المجاز دونها . أما الاستعارة فإنها تتيح لنا أن نشير إلى المجاز دون أن نفصل فيه ، فضلا عن أنها ــ و هذا هو المهم ــ توضح النتائج التي ترتبت على فهم القدماء لفاعلية الخيال الشعري و حدوده و طبيعته))(2) .

يقول علي البطل متحدثا عن أنواع الصورة الشعرية : ((يتميز في تاريخ تطور مصطلح الصورة الفنية مفهومان ، قديم يقف عند حدود الصورة البلاغية في التشبيه و المجاز ، و حديث يضم إلى الصورة البلاغية نوعين آخرين هما الصورة الذهنية و الصورة باعتبارها رمزا))(3) .

لقد كانت الصورة الشعرية و لا تزال ، الأداة المفضلة و الوسيلة الفنية الأكثر تأثيرا لدى الشعراء ، فقد استعملوها في نقل تجاربهم الشعرية و تجسيدها للمتلقي

---

(1)- فرانسوا مورو : البلاغة – مدخل لدراسة الصور البيانية – ترجمة محمد الولي ، عائشة جرير ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، 2003م ، ص 15 .
(2)- جابر عصفور : الصورة الفنية ، ص 207 .
(3)- علي البطل : الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، ص 15 .

بشكل يثير انتباهه و يحرك عواطفه و يدعوه للتفاعل معها ، و ذلك يعود لما تتوفر عليه الصورة ، من قدرة على الإيحاء بالمعنى و تكثيفه ، و خصوبة الخيال و حيوية الحركة ، و إمكانية عرض المعاني و الأفكار عرضا حيا مؤثرا ، و إبرازها عبـــر تقنية التجسيم و التشخيص و باقي الأدوات البلاغية التي تتشكل منها ، حتى لتوشك أن تمثلها عيانا و حقيقة للمتلقي .

((و لذلك فقد كانت العناية بالصورة و التماس اللطيف و الغريب منها و الإكثار من التشبيهات و الاستعارات من أهم المعايير الجمالية التي شكلت ذوق العصـــر ، و بخاصة ذوق الطبقة الأرستقراطية في المجتمع ؛ طبقة الحكام من الملـــــــــوك و الأمراء و الوزراء و غيرهم من ذوي الجاه و المال و النفوذ))[1] .

غير أن الشعراء المتأخرون في مدائحهم للخلفاء و الأمراء و الأشـــراف ، قـــد ضلوا عاكفين على الصور الشعرية القديمة التي أنتجتها قرائح أسلافهم و رســـمتها مخيلة سابقيهم من شعراء العربية بمهارة و دقة .

((و ظل هذا المديح المتكسب يتقلب على العصور الإســـلامية منـــذ العـــصر العباسي ، فيزداد عكوفا على الصور التقليدية ، و يردد ما قيل من قبـــل ، و يعيـــد على المسامع ما قاله هؤلاء الفحول لأنهم بلغوا ذروة المديح ، و لابد من انحدار بعد العلو الشاهق ، فأصبح الشعراء في محيط ضيق من المعاني و عدد محـــدود مـــن الصور و معجم مرسوم من الألفاظ و التراكيب ، كأن الخيال قد بلغ النهاية ، فليس للشعراء أن يضيفوا في مديحهم للملوك إلا ما يقع في الندرة بعد الندرة مـــن فكـــرة طارئة و حادثة طارقة))[2] .

فالركود الذي أصاب الشعرية العربية على غرار ما أصاب جل نواحي الحياة في الفترة الأخيرة من حياة الدولة العباسية ، كان مؤذنا بزوال هذه الدولة نفسها التي

---

(1)- أشرف محمود نجا : قصيدة المديح في الأندلس – قضاياها الموضوعية و الفنية عصر الطوائف ، ص 201 .

(2)- سامي الدهان : المديح ، ص 35 .

حكمت العالم الإسلامي زمنا طويلا يفوق الخمسة قرون ، فتراجع الإبداع و جفت مصادره ، فسقط الشعراء في دائرة التقليد و الاجترار ، و عكفوا على الصناعة اللفظية و الزخاف البديعية الأمر الذي ذهب برواء الشعر و رونقه .

((و إذا عدنا إلى الشاعر المغربي وجدناه قد اعتمد في بناء صوره على الأدوات البلاغية القديمة المستخدمة في بناء الصورة ، كالتشبيه و الاستعارة و الطباق و المقابلة و غيرها من المقومات الأسلوبية الأخرى ، و إذا كانت القدرة على قول الشعر و نظمه تتفاوت من شاعر لآخر ، و هي ظاهرة عامة موجودة في سائر العصور ، فإن استعمال المحسنات و الزخاريف البديعية ، يختلف من شاعر متمكن قوي الديباجة إلى شاعر ضعيف ، تعوزه الملكة الشعرية فيلجأ إلى اصطياد الألفاظ المتقابلة أو المتجانسة أو المتطابقة ، وسيلة لتغطية ضعفه و رغبة في استهواء الممدوح))[1] .

لقد استقى ابن الأبار معظم صوره و معانيه من الإرث الشعري العربي القديم ، فجاءت صوره تقليدية وفق أنماط الصور الشعرية التي ابتدعها خيال أسلافه من فحول الشعراء العرب ، على غرار معاصريه من شعراء الأندلس و المغرب ، و ظل الشاعر وفيا لهذه التقاليد الموروثة في بناء صوره الشعرية ، و لم يشذ عنها إلا في بعض الجزئيات و الخصائص التي وفرتها البيئة الأندلسية و المغربية ، أو ما سمحت به شاعريته و ما يمتلكه من طاقات تعبيرية خاصة به في هذا المضمار .

إن وفاء ابن الأبار للتقاليد العربية الموروثة في بناء الصورة الشعرية له ما يبرره ، فمن طبيعة الأشياء أن كل تجربة جديدة لابد لها من نموذج تحاكيه و تترسم خطاه و تنسج على منواله ، حتى إذا نضجت هذه التجربة و استوت على سوقها ،

---

(1)- محمد إحدادن : الحياة الأدبية و الثقافية في المغرب الأوسط حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، مخطوطة رسالة دكتوراه دولة في الأدب العربي ، كلية الآداب و اللغات ، جامعة الجزائر ، 2006م ، ص 245 .

انطلقت لتؤسس لنفسها شخصيتها المستقلة و لتضيف إلى نماذج الأسلاف عناصر جديدة من عبقريتها و تميزها .

و كان لتوجيهات النقاد و حثهم الشعراء على ضرورة السير على طريقة القدماء في تشكيل الصور الشعرية ، أثره الواضح و الكبير على تقليد المتأخرين للمتقدمين من فحول شعراء العربية ، فمن خالف هذا المنهج تعرض للمؤاخذة و التوبيخ .

و التقليد في صناعة الشعر أمر ضروري لكل شاعر مبتدئ ، لكن لابد له من الالتزام ببعض الضوابط التي تحكمه ، ((فلا ريب أن صناعة الشعر و سائر الفنون يعوزها أول الأمر الاقتداء بالنوابغ و الفحول و احتذاء نماذجهم و النسج على منوالهم . و لكن هذا الأمر ينبغي أن ينظر إليه من حيث أنه مرحلة فحسب ، و إلا بقي الشاعر يدور في فلك سواه و غابت ملامح شخصيته في غمار أساليب الآخرين))(1) .

و قد تعددت أنماط الصورة الشعرية في قصيدة المديح لابن الأبار القضاعي في البلاط الحفصي و تنوعت أشكالها ، إذ تعج مدائحه للحفصيين بالكثير من الصور الشعرية ، مثل : الصورة المباشرة التي تعتمد على الوصف و استعمال اللفظ بمعناه الحقيقي ، و الصورة البيانية التي تقوم على الأساليب البلاغية من مجاز و تشبيه و استعارة و كناية ، و الصورة العقلية التي توظف الحجاج و تستعمل البراهين و ضرب الأمثلة ، بحثا عن الإقناع و إثباتا للشمائل و محاسن الصفات للممدوح .

---

(1)- عمر الدقاق : نقد الشعر القومي ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1978م ، ص 165 .

1- أنواع الصورة :

- الصورة المباشرة :

الصورة الشعرية المباشرة ، هي تلك الصورة التي لا يعتمد الشاعر في بنائها على الأدوات و الأساليب البلاغية التي تعطي ـــ عادة ـــ للألفاظ دلالات جديدة غير دلالاتها الحقيقية ، بل تتشكل بواسطة الوصف المباشر اعتمادا على المعاني الحقيقية للألفاظ ، الأمر الذي يجعلها في معظم الأحيان بعيدة عن الخيال قريبة من الواقعية و التقريرية .

فالصورة المباشرة إذن ((هي الصورة التي تحكي واقع ما يصفه الشاعر على حقيقته ، و لا يدخل فيها التصوير البياني من تشبيه و استعارة و غيرها من فنون علم البيان))[1].

و من أمثلة الصورة المباشرة قول ابن الأبار يمدح السلطان أبا زكريا الحفصي، من قصيدة على روي النون من بحر مخلع البسيط :

وَ سِرْتَ تَمشِي إلى المُصَلَّى   هَوْنًا يُغَشِّي العُدَاةَ وَهْــنَا

ثُمَّ أَبَحْتَ المُلُوكَ كَـــــفًا   هَامُــوا بِتَقْبِيلِــهَا وَ رِدْنَا

وَ قَدْ مَلأتَ البِلادَ أَمْـــــنًا   وَ قَدْ غَمَرْتَ العِــبادَ مَــنًّا[2]

يصف ابن الأبار في هذه الأبيات السلطان أبا زكريا الحفصي ، آو قد خرج في صبيحة عيد الضحى قاصدا المصلى ، لأداء صلاة العيد مشيا على الأقدام في تواضع و وقار ، ثم أقبلت الوفود من ملوك و أمراء لتهنئته بالعيد و بازدياد ولده عثمان ، فالمناسبة مزدوجة و السعادة تغمر الجميع ، فالسادة و الأشراف يتهافتون لتقبيل كف السلطان ، و تقديم طقوس الطاعة و الولاء فى حب و رضى كبيرين ، فقد نشر الأمن و أرسى الاستقرار في كامل مملكته ، و وطد أسس دولته التي دانت

---

(1)- محمد أحمد دقالي : الحنين في الشعر الأندلسي ، ص 467 .
(2)- ابن الأبار : الديوان ، ص 304 .

لعزتها مختلف الممالك ، و أذعنت لسلطانها المدن و الأمصار ، و غمر بكرمـــــه و عطفه كل رعيته .

فهذا الوصف يقدم لنا صورة مباشرة تنقل الحدث بأمانة و واقعية ، فقد انعـــدم الخيال فيها و جفت منها العاطفة و فقد الإيحاء ، فالشاعر استعمل الألفاظ بمعانيهـــا الحقيقية ، بعيدا عن المجاز و التشبيه و الاستعارة و باقي فنون البلاغة ، فكأننا أمام تقرير عادي حول حدث من الأحداث ، أو تأريخا لواقعة من الوقائع ، فالألفاظ على قدر المعاني .

و من الصور المباشرة ــ كذلك ــ قوله يمدح السلطان أبا زكريا و ابنه محمـــد المستنصر ، بمناسبة تنصيبه وليا للعهد سنة (646هـ) ، من قصيدة دالية على بحر الرجز :

وَ لَمْ يَدَعْ أُمَّةَ أَحْمَدَ سُدَى حَيْثُ ارْتَضَى لِعَهْدِها مُحَمَّدا
لله ما أَشْرَفَ آثارَهُـــــمَا فِي الصَّالِحَاتِ والِدًا وَ وَلَـــدا
مَا بَينَ هَادٍ مِنـهُمَا وَ مُهْتَدٍ تَبْدُوا كَمَالاتُ الوُجُودِ إذّ بَـــدَا[(1)]

إن السلطان أبا زكريا لم يرد أن يترك رعيته دون راع من بعده ، فقام بتعيـــين ولده محمد وليا لعهده ، حرصا منه على استمرار الدولة و صيانة للأمة من الضياع و التمزق ، ثم يشيد الشاعر بالأعمال الصالحة و الخدمات الجليلـــة التـــي قـــدمها السلطان و ولي عهده للرعية ، فلا تزال آثار منجزاتهما ماثلة للناس ، فقد اتبع الولد نهج الوالد في حكم البلاد و رعاية مصالح العباد ، فكان خير خلف لخير سلف .

فالشاعر يسرد حدث إسناد ولاية العهد من قبل السلطان لولده محمد ، و يصف الأعمال الصالحة التي قدماها للأمة ، واقتفاء الولد آثار أبيه في الحكم ، و هو سرد مباشر بلغة تقريرية جافة من العواطف خالية من الخيال ، هي أقرب إلى الوصـــف

(1)- المصدر السابق : ص 166 .

التاريخي منها إلى لغة الشعر ، فقد غلب على هذه الصورة الفكر و انحصر الفن ، وغابت عنها فنون البلاغة و البيان .

وتكثر مثل هذه الصور المباشرة التي ينقل من خلالها الشاعر واقع ما يـــراه نقلا أمينا ، في شعر الاستنجاد و الاستنهاض عند ابن الأبار ، خاصة إذا كان بصدد وصف آثار النكبة و تقرير الحال التي آلت إليها المدن الأندلسية عقب اجتياحها من طرف الجيوش الصليبية ، أما في مدائحه فالشاعر قليل اللجوء إلى مثل هذه الصور لعدم قدرتها على تحقيق الغرض المرجو من المديح ، و عجزها عن الإشادة بفضل الممدوح وتخليد ذكره ، و قلة فاعليتها في تحريك عواطفه و ودغدغة أحاسيسه لنيل رضاه و استحقاق الجائزة و المكانة عنده .

- الصورة البيانية :

الصورة البيانية هي تلك الصورة التي تتأسس على علم البيان خاصة و الفنون البلاغية عامة ، و لذلك تسمى بالصورة البيانية أو البلاغية ، و هي صورة غير مباشرة ؛ لأن الألفاظ المشكلة لها تتخلى عن معانيها و دلالاتها الحقيقية ، لتكتسب معانٍ و دلالات أخرى مجازية ، و تكون أكثر إيحاء بالمعنى و أوفر حظا من الخيال و أبلغ أثرا في النفس .

((و لعل أول ما تتميز به الصورة البلاغية ، هو التزامها بالحدود العقلية و اكتفاؤها بمحاكاة الواقع ، و يستوي في ذلك أن تكون الصورة تشبيهية أو استعارية أو كنائية . كما تتميز ــ في الغالب ــ بقيامها على طرفين هما المشبه و المشبه به ، أو المستعار منه و المستعار له ، أو المكنى به و المكنى عنه))[(1)] .

و من روائع الصور البيانية عند ابن الأبار ، قوله يمدح السلطان أبا زكريا الحفصي من قصيدة همزية على بحر الكامل :

تَقَعُ الجَلائِلُ وَ هْوَ رَاسٍ رَاسِخٌ فِيهَا يُوَقّعُ لِلسُّعُودِ جَلاءَهَا
كَالطَّودِ فِي عَصْفِ الرِّيَاحِ وَ قَصْفِهَا لا رَهْوَهَا يَخْشَى وَ لا هَوْجَاءَهَا
سَامِي الذَّوَائِبِ فِي أعَزِّ ذُؤَابَةٍ أعْلَتْ عَلَى خِيَمِ النُّجُومِ بِنَاءَهَا
كَالغَيْثِ صَبَّ عَلَى البَسِيطَةِ صَوْبَهُ فَسَقَى عَمَائِرَهَا وَ جَادَ قَوَاءَهَا[(2)]

يصور الشاعر ممدوحه في صورة جبل عظيم شامخ القمة لا تهزه الأحداث الجسام و لا تحركه الرياح العاتية ، فالممدوح يتصف بالثبات و الرزانة و الاستقرار عند شدائد الوقائع و أثناء عظائم الأحداث ، ثم يصفه بالعلو و الرفعة فقد تجاوزت مكانته نجوم السماء ، كما أن فضل الممدوح قد شمل الجميع في المدن العامرة و الفيافي الخالية ، و لم يستثني أحدا فهو كالغيث أينما و قع نفع .

---

(1)- الربعي بن سلامة : تطور البناء الفني في القصيدة العربية ، دار الهدى عين مليلة ، الجزائر ، 2006م ، ص 164 .
(2)- ابن الأبار : الديوان ، ص 39 .

لقد اعتمد ابن الأبار على الأدوات البيانية من تشبيه في قولــه : (كــالطود ، كالغيث) ، و استعارة مثل قوله : (وهو راس راسخ) ، وهــي صــورة بيانيــة تقليدية مألوفة لكثرة تداولها في الشعر العربي ، فقد شبه الشعراء القــدماء الثبــات بالجبل و الجود بالمطر ، لكن الشاعر بالغ في وصف ممدوحه و غالى فــي نعتــه بالرفعــة و العلو ، فجعله أعلى مكانة و أسما منزلة من نجــوم الــسماء ، و هــي مبالغة ممجوجة و غير مستساغة ، فقد أطلق العنان لخياله المجنح فجنح بــه عــن المألوف و خرج به عن حد الاعتدال ، ((فالمبالغة بهذا الشكل قد لا تكون مستساغة لأنها مبنية على الوهم ، فلا النجوم لها خيم و لا السلطان يعلوها ، و ليس هذا مــن الخيال الصالح للأدب))[1] .

يقول ابن الأبار مادحا أبا زكريا مصورا شجاعته و يمنه و بركته على الناس :

إنْ صَالَ وَسْطَ الزُّحُوفِ لَيْثًا صَابَ خِلالَ المُحُولِ مُزْنَا[2]

فالممدوح يضارع الليث في الشجاعة و الإقدام في ساحات المعارك و ميــادين الوغى ، كما يشبهه بالسحاب الممطر الذي يزيل عن الأرض الجفاف و الجـــدب و يعيد لها خصبها و اخضرارها ، فكذلك الممدوح بكرمه و بره برعيته التي تنتظر منه ما تنتظره الأرض من السحاب الممطر .

و هي صورة تقليدية أساسها التشبيه ، فقد جرت عادة الــشاعر العربــي منــذ العصر الجاهلي على تشبيه الشجاع بالأسد و الجواد بالسحاب الممطر ، ولم يخرج ابن الأبار في تشبيهاته عن تلك التقاليد العربية الراسخة في هذا المجال ، بل كــان وفيا لها فقد وظفها في مدائحه للحفصيين .

(1)- إسماعيل زردومي : شعر الاستغاثة للأندلس – مخطوطة رسالة الماجستير ، كلية الآداب ، جامعة باتنة ، 1995م ، ص 172 .
(2)- ابن الأبار : الديوان ، ص 303 .

و قال يمدح أبا زكريا الحفصي مصورا جوده و كرمه ، من قصيدة بائية على بحر الكامل :

مَلِكٌ أَقَامَ الحَقَ عِنْدَ قُعُــودِهِ   وَ أَعَادَ فَيْضَ الجُودِ بَعْدَ نُضُوبِهِ[1]

ينوه الشاعر بممدوحه و ما اتصف به من عدل و جود ، فقد أســس مملكتــه على العدل و المساواة ، كما أنه أعاد الكرم و الجود ليفيض ببركاته و يغمر النــاس به بعد أن كاد يجف نبعه و يتوقف تدفقه ، و الشاعر في هذا البيــت يــصور عــن طريق الاستعارة المكنية ، الجود و الندى الذي أعاد السلطان إحياءه و بعثه ، فــي صورة نهر متدفق قد فاض ماؤه على ضفافه فسقى كل ما حولــه ، فكــذلك جــود الممدوح و كرمه الذي أذهب البؤس و الفقر على الرعية ، و زاد في جمال الصورة بعض المحسنات البديعية كالطباق في قوله : (أقام ، قعوده ، فيض ، نــضوبه) ، الأمر الذي جعلها أكثر وضوحا في الذهن و أشد تأثيرا في النفس .

و هي صورة بيانية تقليدية قوامها الاستعارة المكنية ، و قد كثر توظيفها فــي شعر المديح العربي على مر العصور و اختلاف البيئات .

و من أمثلة الصورة البيانية في مدائح ابن الأبار قوله من القصيدة نفسها :

مُتَبَسمًا وَ رِمَاحُهُ تَبْكِي دَمًا   فِي اليَوْمِ تُحْجَبُ شَمْسُهُ بِكُعُوبِهِ

حَيْثُ المُهَنَّدُ مُسْمِعٌ بِصَلِيلِهِ   وَ المَوْتُ سَاقٍ لِلكُمَاةِ بِكُوبِــــهِ[2]

فقد صور الشاعر شجاعة الممدوح و ثبات جأشه و ثقته الكبيرة فــي تحقيــق الانتصار على الأعداء ، فهو يخوض المعارك و يواجه الأهوال مبتسم الوجه طلــق المحيا ــ خلافا لعادة المحارب في مثل هذه المواقف ، حيث يكون عــابس الوجــه مقطب الجبين ــ كأنه قد ضمن النصر قبل أن تنتهي المعركة ، فقد عظــم الخطب و جسم الكرب فالقتال يشتد و المعركة تزداد ضراوة و قد حجب غبارها أشعة

---

(1)- المصدر السابق : ص 78 .
(2)- المصدر نفسه : ص 79 .

الشمس ، فلا تسمع في خضم ذلك إلا أصوات السيوف و لا ترى إلا الرماح تقطر دما ، و قد أضحى الموت يتخطف الأبطال من كل جانب ، ففي ظل هذه الأجواء الدامية و الأخطار المحدقة ، يقف الممدوح يستعرض الأبطال و المقاتلين باسم الثغر منبسط أسارير الوجه ، فالصورة بيانية قوامها الاستعارة المكنية ، فالرماح تبكي و السيوف تصيح و الموت كأنه إنسان يسقي بكأسه الأبطال ، و هي صورة تقليدية كثيرا ما رسمها الشعراء لممدوحيهم و هم يخوضون المعارك و يقودون الجيوش*.

و من الصور القائمة على التشبيه في مدائح ابن الأبار بالبلاط الحفصي ، قوله يمدح الخليفة المستنصر ، من قصيدة على روي الحاء من بحر الكامل :

كَالطَّودِ إلاَّ عِنْدَ نَغْمَةِ مَادِحٍ   فَهُنَاكَ يَجْمَعُ لِلأَنَاةِ مُزَاحَا(1)

يشبه الشاعر ممدوحه في الثبات و الرزانة و رسوخ قدمه ، بالجبل العظيم الشامخ القمة الذي لا تحركه العواصف و لا يتغير بتغير الزمان ، لكنه رقيق النفس مرهف الحس سريع التأثر عند سماعه للمديح و الإنشاد ، كثير المزاح طيب المعشر، فالممدوح يتميز بالصرامة و الجد و الصلابة و الثبات في موقف الجد ، كما يتميز بروح الدعابة و الهزل و المزاح في المواقف و المقامات التي تتطلب ذلك.

و من صوره القائمة على التشبيه ــ كذلك ــ قوله يمدح حاكم بجاية بعد أن أسندت له ولاية العهد من قصيدة دالية على بحر الكامل :

هَدِي بِجَايَةُ قَدْ سَدَدْتَ ثُغُورَهَا   بِمُبَارَكٍ يُمْضِي الأُمُورَ مُسَدَّدَا
كَالغَيْثِ كَفًا إنْ حَبَا ، كَاللَّيْثِ   قَلْبًا إنْ حَمَى ، كَالبَدْرِ وَجْهًا إنْ بَدَا(2)

---

*- لقد صور المتنبي سيف الدولة الحمداني في قلب المعركة وضاح الوجه باسم الثغر يستعرض الأبطال و الفرسان من جيش العدو مهزومين تنزف جراحهم دما ، حيث يقول المتنبي يمدح سيف الدولة عقب انتصاره في موقعة الحدث : **تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً   وَ وَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَ ثَغْرُكَ بَاسِمُ** . ينظر/ المتنبي : الديوان ، تحقيق عبد الرحمان البرقوقي ، دار صادر ، بيروت ، ط 18 ، 1998م ، ص 387 .

(1)- ابن الأبار : الديوان ، ص 114 .

(2)- المصدر نفسه : ص 168 .

يوجه الشاعر الخطاب إلى السلطان أبي زكريا ، فيقول له إنك قد حصنت مدينة بجاية و سددت ثغورها بتنصيب ولي العهد محمد حاكما لها ، ثم يصف هذا الأخير باليمن و البركة ، و أن له كفاءة ودراية في تسيير شؤون الحكم ، ثم يعدد مناقبه و شمائله ، فيشبهه بالمطر النافع في الجود و الكرم إن هو أعطى و أكرم ، و بالليث الضاري في الشجاعة و الإقدام إن هو تصدى للأعداء ، و بالقمر في وسط الشهر وجها في الجمال و الإشراق إن أطل على الناس .

فهذه الصورة تقوم على التشبيه من جهة ، فالممدوح يشبه الغيث في الجود و الليث في الشجاعة و البدر في جمال الوجه ، و تقوم على المجاز من جهة ثانية حيث نلمحه في قوله (كالغيث كفا) فهو مجاز لغوي علاقته السببية ، حيث ذكر كف اليد التي هي سبب الكرم و مصدره .

و من الصور البيانية القائمة على الاستعارة و المبنية على التجسيم و التشخيص، قول ابن الأبار يمدح السلطان أبا زكريا من قصيدة همزية من بحر الكامل :

بَرَكَتْ بِكُلِّ مَحَلَّةٍ بَرَكَاتُهُ شَفْعًا يُبَادِرُ بَدْلُهَا شُفَعَاءَهَا(1)

يصور ابن الأبار شمائل ممدوحه و شيمه الكريمة تصويرا حسيا ، فبركات السلطان أبي زكريا و أياديه البيضاء على رعيته قد عمت البلاد و حلت بكل مكان ، وفي كل موضع ، فجوده غمر الناس جميعا فلم يبق منهم محتاجا و لا محروما إلا شملته هذه البركة ، وزاد في وضوح هذه الصورة و تأثيرها قدرة الشاعر الفنية و مهارته في تجسيم و تشخيص* الصفات المعنوية في صور مادية محسوسة تطفح

---

(1)- المصدر السابق : ص 39 .

* - التجسيم بمعناه الفني هو أن يتخيل الأديب الفنان الأمر المعنوي أو العرض صورة مادية معينة يرسمها في ذهنه ويصير هذا الأمر في خياله جسما ، على وجه التمثيل والتشبيه والاستعارة ، ومثال ذلك أن يتخيل للمعاني المجردة ذواتا محسوسة تحس وترى ، والمصورون الفنانون يمتازون بهذه الطبيعة فيتخيلون – العدالة كما رسموها – امرأة تمسك بيدها ميزانا وهي معصوبة العينين ... فإذا رأينا شاعرا يذكر : الرجاء الدامي ، أو الأمل البسام ، أو الألحان الجريحة ، أو الآمال الهاتفة الراقصة ، أو الصمت الذاهل الشريد ، فإن ذلك من باب التجسيم و التشخيص ، وإذا كانت الاستعارة أهم أدوات التجسيم فإن الكناية والتشبيه ، والتشبيه التمثيلي من أدواته أيضا . للمزيد ينظر/ صلاح عبد الفتاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، شركة الشهاب ، الجزائر ، ص 101- 103 . والمتصفح للقرآن الكريم يجد أن الكثير من الآيات قد حفلت بخاصية التجسيم =

بالحركة و تمتلئ بالإيحاء ، فقد جسد في هذا البيت و شخص بركة الممدوح و يمنه و خيره العميم ــ و هي صفة معنوية ــ في صورة حسية مرئيـــة و مدركة بحاسة البصر ، هي صورة ناقة و قد بركت في مكانها لتسقي بلبنها كـــــل الناس ، و لقد كانت الناقة عند العرب رمزا للكثير من الصفات و المعاني السامية* .

((و هكذا جاءت الصورة الفنية في شعرنا العربي القديم مستمدة من معطيـــات الحواس ، خاصة المرئي منها و المسموع ، فكانت ضربا من المحاكاة لعالم الواقع ، يقربها من فنون الرسم و التصوير و التمثيل . و لقد جعلت الحسية الصورة الفنيـــة قريبة المأخذ ، سهلة الإدراك ، جزئية العلاقة في ما يربط بـــين طرفـــي الـــصورة التقليدية : المشبه و المشبه به ، أو المستعار و المستعار منه ، أو الفكـــــرة و مـــا يكـــنى به عنها))(1) .

= ومن الأمثلة على ذلك نذكر قوله تعالى : ((قَدْ خَسِرَ الذِّينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ، وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ)) . فالذنوب جسمت هنا كأنها أحمال تحمل على الظهور زيادة في التجسيم وإمعانا في إيضاحها وتقريرها في ذهن السامع . ينظر/ سورة الأنعام ، الآية 31 .

* - تغنى الشاعر العربي القديم بناقته طويلا و أطنب في وصفها ، و جعلها رمزا للكثير من المعاني و الصفات، فهي مركبته في رحلته و أنيسه في وحشته و سفينته لقطع بحرا من رمال الصحراء و وسيلته إلى الممدوح ، بالإضافة إلى كونها مصدرا لطعامه و شرابه ولباسه ، فالناقة أداة في الصراع من أجل البقاء و رمزا للثـــــبات و الصمود و المقاومة ، و عنوانا للخصب و الخير و البركة .

(1)- حسن كاتب : الصورة الفنية في شعر حاتم الطائي – مادة تشكيلها و تداخل الحواس فيها - مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، الجزائر ، عدد 12 – ديسمبر 1999م- شركة دار الهدى عين مليلة ، الجزائر ، ص 185 .

- الصورة العقــلية :

الصورة العقلية هي التي يعتمد الشاعر في تشكيلها على معطيات عقليـــــة ، و تقوم على الحجاج من أجل إقناع المتلقي بالمعنى المراد نقله ، و دفعه للتفاعل معه و اتخاذ موقف صريح منه ، وإبعاد الشك و التردد عنه ، بفضل البراهين و الحجج و الأمثلة التي يسوقها الشاعر ؛ لتقوية اليقين في صوره و معانيه التي يريد إيصالها إلى المتلقي .

و من هذا المنطلق لم يهمل الشعراء في مدائحهم عنصر الإقنـــاع و الحجـــاج العقلي ، فضمنوا صورهم ألوانا من الحجج و البراهين و طائفة من الأمثـــــــــال و الشواهد العقلية ؛ ((بغرض المضاعفة من قدرة الصورة على التأثير الانفعالـــي و الإثارة لمشاعر الممدوح لحثه على اتخاذ الموقف المناسب إزاء التجربة الشعرية التي يتلقاها ... و إقناعه بصحة ما ترمي إليه الصورة من صفات و معانٍ و دلالات رفيعة يراد إثباتها للموصوف كي يتناسب ذلك و رغبـــة الـــشعراء فـــي الدعايـــة لممدوحيهم بنسبة الفضائل و الصفات العظيمة إليهم ، و توسل الشعراء فـــي ســـبيل ذلك بالمحور التماثلي التشبيهي الذي تقترن من خلاله صورتان مركبتان توضـــعان جنبا إلى جنب ، و بينهما وجه سبه يدرك من مضمون السياق ، و هو نـــوع مـــن التمثيل))[1] .

و على هذا الأساس جاءت الكثير من الصور الشعرية لابن الأبار في مدائحـــه للحفصيين ، عقلية تقوم على ضرب المثل و ايراد الحجـــة و البرهـــان ، لتحقيـــق عنصر الإقناع في صوره و معانيه .

و من الصور العقلية في مدائح ابن الأبار للحفصيين التي يجـــنح فيهـــا نحـــو الحجاج و الإقناع بضرب الأمثلة ، قوله يمدح السلطان أبا زكريا من قصيدة بائيـــة على بحر الكامل :

---

(1)- أشرف محمود نجا : قصيدة المديح في الأندلس – قضاياها الموضوعية و الفنية عصر الطوائف ، ص 228 .

يَا حَضْرَةَ التَّوْحِيدِ زَانَكِ حَاضِرًا ثُمَّ اسْتَقَلَّ يَسُدُّ ثَغْرَكَ غَائِـــبَا
وَ الأُسْدُ قَدْ تَنْزَاحُ عَنْ غَابَاتِهَا لِتُعِزَّ أَطْرَافًا لَهَا وَ جَوَانِــــبَا
وَ البِيضُ لَوْلاَ هَجْرُهَا أَغْمَادَهَا مَا وَاصَلَتْ بَرْيَ الرِّقَابِ ضَوَارِبَا(1)

ينادي الشاعر الحضرة الحفصية و يصفها بالتوحيد ، فهي من قــلاع الإســلام الكبرى و حصونه المنيعة ، و إن بني حفص لا يزالون على عهد الدولة الموحديــة سائرون ، فازدهرت هذه الدولة بوجود السلطان أبي زكريا على رأسها ، و قد خرج إلى احدى ثغورها ــ بجاية ــ فنصب ابنه حاكما عليها لحمايتها و تسيير شؤونها ، ثم يقيم الشاعر عقد مماثلة و مشابهة بين خروج السلطان من الحضرة لتعزيز الأمن و تحقيق الاستقرار ببعض أطراف مملكته ، و بين خروج الأسد من وسط الغابة إلى أطرافها لبسط السيطرة على الغابة كلها ، و من جهة أخرى فإن خروج السلطان إلى ثغر بجاية يشبه مفارقة السيوف لأغمادها في المعارك ، فلولا ذلك لما تحققت الفائدة منها في رد كيد المعتدين و إنزال القصاص العادل بهم .

و أتى ابن الأبار بهذين المثالين لتأكيد أهمية الخطوة التي أقدم عليها السلطان ، و إقامة الدليل و الحجة على جدواها في إرساء الــسلم و حفــظ الأمــن و تعزيــز الاستقرار .

و من الصور العقلية في مدائحه للحفصيين ــ أيضاــ و التي يلجأ فيها إلــى الإقناع و الحجاج بالأدلة و البراهين ، قوله يمدح السلطان أبا زكريا مــن قــصيدة صادية على بحر الطويل :

خِلاَفَتُهُ أَلْوَتْ بِكُلِّ خِلاَفَــــــةٍ كَذَلِكَ بُطْلاَنُ القِيَاسِ مَعَ النَّــصِ(2)

يمدح ابن الأبار السلطان الحفصي بحسن سياسته لشؤون مملكته التي انصاعت لإرادتها بقية الممالك فدخلت في حماه ، فخلافته قد أزاحت كل خلافة غيرها فبســط

---

(1)- ابن الأبار : الديوان ، ص 71 .
(2)- المصدر نفسه : ص 336 .

حكمه على جميع الممالك و الدول ، فكما أن القياس و الاجتهاد الفقهي يبطل بوجود النص الشرعي ، فكذلك خلافة السلطان الحفصي تلغي و تبطل كل خلافة سواها .

فالشاعر يقيم الحجة على بطلان أي خلافة في وجود خلافة أبي زكريا ، عــن طريق القاعدة الأصولية القائلة : (لا اجتهاد مع نص) .

و قوله ــ كذلك ــ من القصيدة نفسها :

فَلاَ يَرْجُ ظَمْآنٌ سِواهُ لِرَيِّـــــهِ مُحَالٌ وُجُودُ الظِّلِّ فِي عَدَمِ الشَّخْصِ(1)

يمدح الشاعر السلطان الحفصي بالكرم و الجود ، فقد أضحى الممدوح ملاذ كل محتاج و رجاء كل فقير ، فلا كريم غيره في عصره و لا جواد سواه مـــن عامة الناس و خاصتهم ، فاستحالة و جود ندا له في الجود و الكرم ، كاســتحالة و جــود الظل في غياب الأجسام المادية الشاخصة و المنتصبة .

فقد استدل ابن الأبار على تفرد ممدوحه بالكرم و الجود ، عن طريق حجــة منطقية مأخوذة من عالم الطبيعة هي : استحالة و جود الظل عند انعدام الأجـــسام الماديـــة الشاخصة .

لقد كانت الصورة الشعرية في مدائح ابن الأبار للحفصيين تقليديـــة ، إذ حــاكى أسلافه من الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي في صياغتهم لصورهم و ما أبدعته مخيلاتهم ، ولم يخرج عن هذا الإطار الفني المتوارث إلا في القليل النادر ، و كان يرتفع حينا في صوره إلى مصاف الفحول من الشعراء العرب ، و يــسقط أحيانــا كثيرة بسبب نضوب الخيال لديه و نزوعه إلى العقل و المنطق و المباشــــــــرة و التقريرية ؛ لكونه مؤرخا و فقيها و لغويا قبل أن يكون شاعرا ، فسيطرة المقاييس العلمية على فكره أضعفت من انطلاق خياله ليحلق في آفاق أرحب ، و هذه النزعة تلمس أكثر ما تلمس في صوره المباشرة و كذا في صوره العقليــة حيــث تكــادان تخلوان من الفنون البلاغية و البيانية ، أما صوره البيانية فكان تواردها في مدائحه

(1)- المصدر السابق : ص 338 .

للأسرة الحفصية تواردا غزيرا ، بل إننا لا نبالغ في شيء إذا تقلنا ، إن معظم صور ابن الأبار في مدائحه للحفصيين تشكلت من الفنون البيانية من تشبيه و استعارة و مجاز و كناية ، فالاستعارة ــ مثلا ــ كان نصيبها من التواجد في صوره و معانيه وفيرا ، فكثرة الاستعارة في لغة الشعر أمرا لازما ، حيث ((تتصدر الاستعارة بشكل كبير بنية الكلام الإنساني ، إذ تعد عاملا رئيسا في الحفز و الحث ، و أداة تعبيرية ، و مصدرا للترادف و تعدد المعنى ، و متنفسا للعواطف و المشاعر الانفعالية الحادة))(1) .

و جاءت معظم الصور الشعرية عند ابن الأبار في مدائحه للحفصيين حسية عامة و بصرية خاصة ، ولم يشد ابن الأبار في هذا الأمر عن المسار الطويل للشعرية العربية ؛ فالتصوير الحسي طابعا مسيطرا و ملازما للشعر العربي القديم مند نشأته و في كل البيئات التي عرفها مشرقا و مغربا ، و هذه الحسية تهمة طالما رددها النقد الحديث و وصم بها الشعر العربي القديم الذي يكتفي ــ حسبه ــ بوصف ظواهر الأشياء دون أن يتعمق بواطنها .

((إن ما يؤخذ على الصور الحسية ــ عادة ــ من برودة و محدودية في التأثير ليس أمرا صحيحا دائما ، فكثيرا ما تستحيل هذه الصور الميتة ، على يد شاعر موهوب ، إلى صور متحركة عامرة بضروب الحياة ، مؤثرة في المتلقي تأثيرا بعيد المدى))(2) .

---

(1)- يوسف أبو العدوس : الاستعارة في النقد الأدبي الحديث – الأبعاد المعرفية و الجمالية ، الأهلية للنشر و التوزيع ، الأردن ، ط 1 ، 1997م ، ص 11 .

(2)- حسن كاتب : الصورة الفنية في شعر حاتم الطائي – مادة تشكيلها و تداخل الحواس فيها - مجلة العلوم الإنسانية ، عدد 12 ، ص 186 .

خاتمة البحث :

بعد دراسة و بحث و محاورة واستنطاق لأهم المـصادر و المراجـع التـي تمحورت حول مختلف جوانب الحياة في القرن السابع الهجري بالأندلـــــــس و المغـرب ، توصل البحث إلى النتائج التي يمكن إجمالا أن نعدها من مكملات ما دار في دراسات و بحوث أخرى ، بالرغم من قلتها كما سبق الذكر ، و هـي و إن كانت جديرة بالاهتمام ، إلا أن الدراسة و البحث فـي الأدب المغربـي ، لا يـزال بحاجة إلى مزيد من الدرس و البحث و التنقيب ، قصد الوصول إلى مـــــدركات و معارف أخرى هي في حكم الغائب عن الباحثين و الدارسين عموما .

فقد عرفت الحياة السياسية بالأندلس وبلاد المغرب الكثير من الأحـــــــداث و الصراعات بين المسلمين فيما بينهم من جهة ، و بين المسلمين و النصارى مـن جهة أخرى ، و أدت إلى سقوط المدن و الممالك الإسلامية بالأنـدلس فـي أيـدي النصارى ، وتراجع المسلمين و هجرتهم إلى المشرق و المغرب ، و كانت هزيمة الموحدين في موقعة العقاب سنة (609هـ) إيذانا بهذا التراجع ، ولم يتبق للمسلمين بالأندلس في نهاية القرن السابع الهجري إلا مملكة غرناطة بقيادة بني نصر.

كما شهد هذا القرن ببلاد المغرب تفكك الدولة الموحدية إلـى ثـلاث دويـلات متنافسة هي :

ـ دولة بني حفص بالمغرب الأدنى و شـرق المغـرب الأوسـط ، عرفـت ازدهـارا كبيرا ، و هاجر إليها الأندلسيون بكثرة ، واستقطبت جل العلماء و الأدباء من أهل الأندلس .

ـ دولة بني زيان بالمغرب الأوسط ، و عاصمتها تلمـسان ، و كـان طابعهـا حربيا أكثر إلى جانب عنايتها بالعلم و العلماء أيضا .

ـ دولة بني مرين بالمغرب الأقصى ، و التي قضت نهائيا على دولة الموحدين وذلك سنة(667 هـ) .

و عرفت الحياة الاقتصادية بجوانبها الثلاثة : (الزراعة ، و الصناعة ، و التجارة) في الأندلس خلال القرن السابع الهجري نشاطا ملحوظا ، و ساعد على هذا النشاط عوامل مختلفة منها : العامل الجغرافي ، و العامل المناخي ، و كذا العامل البشري ، و على غرار ذلك عرفت الحياة الاجتماعية تطورا متزايدا ، و برزت مظاهر الثراء و الرفاهية بجلاء في بداية هذا القرن ، غير أن الأوضاع السياسية المتفجرة ؛ جعل النشاط الاقتصادي يخبو و ينكمش ، فانعكس سلبا على الجانب الاجتماعي ، و بدأت هجرة الأندلسيين نحو بلاد المغرب تتزايد .

و في بلاد المغرب عمل الموحدون و حكام الإمارات المستقلة عنهم ، على توفير الشروط الضرورية لدفع العجلة الاقتصادية إلى الأمام ، و من أهم هذه الشروط : تحقيق الأمن و الاستقرار ، فنشطت الحركة الاقتصادية ، و ساهم ذلك في تحسين معيشة السكان و ازدهار الحياة الاجتماعية ، و استمر هذا الوضع إلى نهاية القرن السابع الهجري .

ازدهرت الحياة الثقافية خلال هذا القرن بالأندلس و المغرب ، و حرص الخلفاء الموحدون على رعاية المثقفين في كل مجالات العلم و المعرفة ، وقد استمدوا نشاطهم الثقافي من توجيهات و تعاليم مؤسس دولتهم محمد بن تومرت ، و برغم الخلافات السياسية داخل الأسرة الموحدية ، و الصراعات الدامية مع الممالك النصرانية ، و التي أدت إلى هجرة أبناء الأندلس و مثقفيها ؛ فقد واصلت الحياة الثقافية سيرها الأمام متوثبة تارة و متأنية ثارة أخرى .

و عمل حكام الإمارات المستقلة عنهم في الأندلس و بلاد المغرب على ترقية الحياة الفكرية ، و بذلوا جهودا كبيرة في بناء المراكز الثقافية ، و جلب العلماء و تقريبهم ، و لم تخب جذوة العلم و نهم المعرفة في أبناء الأندلس و المغرب حتى في أحلك الأيام و أصعب الأوقات ، و نبغ الكثير من العلماء و المثقفين في جل مجالات العلم و المعرفة ، و من أمثال هؤلاء العلماء : ابن الأبار القضاعي الأندلسي الفقيه المؤرخ الكاتب الشاعر .

و ينحدر ابن الأبار من قبيلة عربية ، هي قبيلة قضاعة اليمنية التي استوطن جل أفرادها المهاجرين شرق الأندلس خاصة مدينتي أندة و بلنسية و المناطق المجاورة لهما .

نشأ ابن الأبار في بيت علم و ثراء ، تنشئة صالحة محاطا برعاية عائلته التي وفرت لابنها ظروفا تساعد على النبوغ و التفوق ، فشب الشاعر شغوفا بالمعرفة ، حريصا على طلب العلم ؛ فقد كان والده من أعيان بلنسية و علمائها .

كان مسار ابن الأبار في طلب العلم حافلا و ثريا ، فقد حفظ القرآن عن والده و أخذ العلوم الشرعية و اللغة و الأدب ، إذ تتلمذ على أكثر من مائتي شيخ من علماء الأندلس ، وفق نظام الدراسة المتبع وقتئذ و هو نظام الاستماع و الإجازة .

لم يركن ابن الأبار للراحة و الفراغ بل لقد كانت الرحلة لطلب العلم ديدنه والسفر لتحصيل المعارف دأبه ، الأمر الذي يفسر نبوغه المبكر و مكانته التي حققها .

شغل ابن الأبار مناصب سياسية مرموقة ، فقد قربه بعض الحكام و الأمراء ، بالأندلس أو بالإمارة الحفصية ، لعلمه الغزير و كفاءته في إدارة شؤون الحكم .

عرف ابن الأبار بنفسيته المتأججة و حدة في طبعه كانت تعتريه ، نغصت عليه حياته و جلبت له العقاب و غضب الأمراء الحفصيين ، فقد تعرض للإبعاد عن الخدمة بالبلاط الحفصي و النفي إلى بجاية في الكثير من المناسبات .

توفي ابن الأبار بتونس يوم الثلاثاء 21 محرم سنة(658هـ/6 جانفي1260م) ، بعد أن بلغ من العمر ثلاثا و ستين سنة ، حيث أقدم المستنصر الحفصي على قتله و إحراق جثته و كامل كتبه بعد أن وجهت له العديد من التهم ، فقد وقع ابن الأبار ضحية مؤامرة حيكت حوله بإحكام ، و تحالفت ضده أطراف عملت في السر و العلانية على التخلص منه ، و راحت تجمع ضده التهم و تستثمر الفرص للإيقاع به ؛ لأنه يشكل تهديدا لمصالحها بالبلاط الحفصي ، و لم تدخر هذه الأطراف جهدا في سبيل تحقيق غايتها المنشودة ، فكانت نهايته نهاية مأساوية .

اشتهر ابن الأبار القضاعي بغزارة التأليف و جودة التصنيف ، فقد ألف ما يزيد عن الخمسين كتابا في مختلف مجالات المعرفة الإنسانيـــة : التاريخ ، الفقه ، الحديث ، سير و تراجم الأعلام ، الأدب نثرا و نظما ، اللغة ، و نشرت بعض كتبه بعد تحقيقها من طرف ثلة من الباحثين و الأساتذة المحققين عربا و مستشرقين .

ترك ابن الأبار ديوانا شعريا يضم العديد من الأغراض الشعرية ، وخاصة المديح الذي يغطي أكثر من ثلثي الديوان معظمه في مدح الأسرة الحفصية الحاكمة فقد كان يقيم في بلاطهم منذ سنة (636هـ) إلى غاية مقتله سنة (658هـ) .

و قد قام الأستاذ عبد السلام الهراس بتحقيق هذا الديوان و نشره سنـــة (1986م) .

لم تبتعد موضوعات مدائح ابن الأبار في البلاط الحفصي عن التقاليد الموروثة في القصيدة العربية ، لا في مبانيها و لا في معانيها و أساليبها و ألفاظها ، و لم يشذ عنها إلا في تلك الخصائص التي تمنحها البيئة و يفرضها روح العصر أو تخضع للفروق الفردية القائمة بين الأشخاص ، و قد تمكن ابن الأبار من استلهام هذا الموروث الشعري العربي و التجاوب معه ، حيث أعاد إنتاجه من جديد مع شيء من التحوير لتحقيق الانسجام و التكيف مع معطيات المكان و مقتضيات الزمان ، الأمر الذي جعله يتناص مع ما أبدعته قرائح أسلافه من الشعراء مشرقا و مغربا .

و ألقت ثقافة ابن الأبار الدينية ــ باعتباره فقيها ــ ظلالها على مدائحه في اللفظ و المعنى ، فقلما تخلو قصيدة من إحالة صريحة أو ضمنية إلى بعض آيات القرآن الكريم و الحديث الشريف أو العبارات الدينية المتداولة على ألسنة الفقهاء .

جاءت صور ابن الأبار أقرب إلى الواقعية شأن شعر العلماء و الفقهاء ، و كان الطابع العام لمدائحه هو تسجيل الأحداث و سرد الوقائع و رواية الأخبار في غالب الأحيان ، فهي أشبه بوثيقة تاريخية إضافية للأحداث التي عرفها القرن السابع الهجري و تاريخ الدولة الحفصية في مرحلة النشأة و التأسيس ، و هذا الأمر متوقع

من شخصية معروفة بالتاريخ و الفقه أكثر من معرفتها بالشعر ؛ فهو مؤرخ شاعر و ليس شاعرا مؤرخا ، و مع ذلك فإننا لا نعدم الكثير من مواطن الجــودة ، فقد عانق الخيال الشعري في تلاحم قلما يحصل للشعراء دوي الشاعرية الفذة و الموهبة المبدعة .

استند الشاعر إلى قاموس لغوي فصيح ، و ابتعد عن الغرابة في اللفــــــظ و المعاضلة في المعنى ، مع الجنوح للصنعة اللفظية و المحسنات البديعية من أجل خلق جوا موسيقيا مشحونا بالأفكار و المعاني التي يريد أن يوحي بــــــها ، مستجيبا ــ بذلك ــ للمناسبة التي قال فيها قصيدته .

و كان ابن الأبار ــ بمسلكه هذا ــ مسايرا لطابع عصره ، الذي عرف أهله توظيفا كبيرا لهذه الأساليب التعبيرية ، و هي سمة وصمت الأدب في مرحلة الضعــف و الانحطاط، التي آذنت بقدومها في الفترة التي عاش فيها أو قبلها بقليل .

و لعل للأوضاع السياسية التي ميزت عصر ابن الأبار و إقامته في البلاط الحفصي دورا حاسما في جنوحه نحو هذه الأساليب البديعية و الميل إلى الزخرفة اللفظية ؛ لما يتطلبه المقام من حذر و التواء و تورية في مخاطبة هؤلاء الحكام ، خوف غضبهم و خشية بطشهم و رغبة التقرب منهم و نيل الحظوة عندهم .

استجاب ابن الأبار في مدائحه للحفصيين للشكل الفني للقصيدة العربية القديمة ، غير أن هذه الاستجابة لم تكن مطلقة ، فجاءت مدائحه على نمطين : قصائد مركبة التزم فيها بأهم أجزاء القصيدة العربية التقليدية من مقدمة و حسن التخلص إلى المديح و خاتمة ، غير أنه أسقط بعض أنواع المقدمات و بعض عناصرها ــ أيضا ــ كوصف الرحلة و الراحلة و مشاهد الطريق وصولا إلى الممدوح ، التي أصبحت لا تتلاءم مع روح العصر و طابع البيئـــة و دوق الشاعر و الممدوح معا .

تميزت مقدمات مدائح ابن الأبار بالطول النسبي ، فقد استهلك جلها ثلث القصيدة ، ربما تجاوز في بعض مقدمات قصائده الأربعين بيتا ، الأمر الذي جعلـــه يستنزف الألفاظ و المعاني التي كان موضوع القصيدة الأساسي أولى بها .

كما أنه اكتفى بنوعين من المقدمات هي : المقدمة الغزلية في الغالب الأعم ، و المقدمة الطللية في القليل النادر ، متخليا على غيرهما من الأنواع الأخرى .

أما الكثرة الكثيرة من مدائحه بالبلاط الحفصي ، فجاءت على شكل قصائد بسيطة مستقلة الموضوع ، حيث يبدأها مباشرة دون مقدمة و لا تمهيد ، متناولا المديح من أول وهلة ، غير أنها لا تخلو من براعة الاستهلال و لا من حسن الخاتمة .

و يمكن القول : إن ابن الأبار في مدائحه للحفصيين ينقاد حينا لطريقة الأقدمين في بناء قصائدهم ، و حينا يتنكر لها ، و أحيانا كثيرة يتناول الغرض مباشرة دون مقدمة و لا تمهيد ، حيث يطرق المديح من مطلع القصيدة إلى نهايتها .

جاءت الصورة الشعرية في مدائح ابن الأبار للحفصيين تقليديـــة ، إذ حـــاكى أسلافه من الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي ، ولم يخرج عن هذا الإطار الفنـــي المتوارث إلا في القليل النادر .

و كان يرتفع حينا إلى مصاف الفحول من الشعراء العرب ، و يـــسقط أحيانـــا كثيرة ؛ لنضوب الخيال لديه و نزوعه إلى العقل و المنطق و المباشرة و التقريرية ؛ لكونه مؤرخا و فقيها و لغويا قبل أن يكون شاعرا ؛ فسيطرة المقاييس العلمية على فكره أضعفت من انطلاق خياله ، و هذه النزعة تلمس أكثر ما تلمس فـــي صـــوره المباشرة و صوره العقلية حيث توشك أن تخلو منهما الفنون البلاغية و البيانية .

أما صوره البيانية فكان تواردها في مدائحه تواردا غزيرا ، و كانت تتشكل من الفنون البيانية من تشبيه و استعـــارة و مجاز و كناية ، فالاستعارة ـــ مثلا ـــ كـــان نصيبها من التواجد في صوره و معانيه وفيرا ، و يعد هذا التواجد للاستعارة فـــي لغة الشعر أمرا لازما .

و تميزت جل الصور الشعرية في مدائح ابن الأبار للحفصيين ، بالحسية عامة و بصرية خاصة ، فالتصوير الحسي هو الطابع المسيطر و الملازم للشعر العربـــي القديم مند نشأته و في كل البيئات التي عرفها مشرقا و مغربا .

قائمة المصادر و المراجع

*** - القرآن الكريم ، برواية حفص عن عاصم .**

*** - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري ، دار المعرفة ، بيروت .**

أولا المصادر :

1 - ابن الأبار أبو عبد الله محمد : التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق/ السيد عزت العطار الحسيني ، مكتبة الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، 1956 م .

2 - ابن الأبار أبو عبد الله محمد : الديوان ، تحقيق/ عبد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر/ ديون المطبوعات الجامعية ، تونس/ الجزائر ، ط 2 ، 1986م .

3 - ابن الأبار أبو عبد الله محمد : المقتضب من تحفة القادم ، تحقيق/ إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الإسلامية/ دار الكتاب المصري/ دار الكتاب اللبناني ، ط 2 ، 1982 م .

4 - ابن الأثير ضياء الدين : المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر ، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1995م .

5 - التجيبي أبو بحر صفوان بن إدريس : زاد المسافر و غرة محيا الأدب السافر ، أعده و علق عليه/ عبد القادر محداد ، دار الرائد العربي ، بيروت ، 1980م .

6 - التنسي محمد بن عبد الله : تاريخ ملوك بني زيان (مقتطف من : نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان) ، تحقيق/ محمود بوعياد ، وزارة الثقافة (الجزائر عاصمة الثقافة العربية) ، الجزائر ، 2007م .

7 - الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر : الحيوان ، تحقيق/ عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط 4 ، 1395هـ/ 1975م .

8- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر : رسالة الحنين إلى الأوطـــان ، دار الرائـــد العربي ، بيروت ، ط 4 ، 1982م .

9- الجرجاني عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، دار المعرفة ، بيروت ، 1986م .

10- ابن جني أبو الفتح عثمان : ما يحتاج إليه الكاتب من مهموز و مقصـــــــور و ممدود ، تحقيق/ عبد الباقي الخزرجي ، دار الشهاب للطباعة و النشـــر ، باتنة ـــ الجزائر ، 1986م .

11- الحموي تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله : خزانة الأدب و غايـــة الأرب ، تحقيق/ عصام شعيتو ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط 1 ، 1987م .

12- ابن الخطيب لسان الدين : تاريخ إسبانيا الإسلامية (أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام) ، تحقيق/ ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، لبنان ، ط 2 ، 1956م .

13- ابن خلدون عبد الرحمن: كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ، دار الكتـــاب اللبناني ، بيروت ، 1981 م .

14- ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة ، دار صادر ، بيـــروت ، لبنـــان ، ط 1 ، 2000 م .

15- ابن خلدون يحيى : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيـــق/ عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، 1980 م .

16- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبـــي بكـــر : وفيـــات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، تحقيق/ إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .

17- ابن رشيق أبو علي الحسن : العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد ، وزارة الثقافة (الجزائر عاصمة الثقافة العربيـــة) ، الجزائر ، 2007م .

18 - الزبيدي محمد مرتضى : تاج العروس من جواهر القاموس ، دار مكتبة الحياة ، مصر ، ط 1 ، 1306هـ.

19 - زهير بن أبي سلمى : الديوان ، شرح و تحقيق/ أحمد طلعت ، دار القاموس الحديث / دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 .

20 - ابن سعيد علي بن موسى المغربي : المُغرب في حلى المَغرب ، تحقيق/ شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط 2 .

21 - السويدي محمد أمين البغدادي : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، دار إحياء العلوم ، بيروت .

الشنقيطي الشيخ أحمد: شرح المعلقات العشر و أخبار شعرائها ، دار الأندلس ، بيروت ، ط 5 ، 1404هـ/1983م .

22 - الصفدي صلاح الدين : الوافي بالوفيات ، دار النشر فرانز شتاينر ، شتوتغارت ، ألمانيا ، ط 2 ، 1991 م .

23 - ابن طباطبا العلوي : عيار الشعر ، تحقيق/ عبد العزيز بن ناصر المانع ، دار العلوم للطباعة و النشر ، الرياض ، 1985م .

24 - عامر بن الطفيل : الديوان ، تقديم/ كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، 1383هـ/1963م

25 - ابن طولون محمد : فص الخواتم فيما قيل في الولائم ، مطبعة دمشق ، سوريا ، ط 1 ، 1983م .

26 - الغبريني أحمد : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق/ رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1970م .

27- ابن قتيبة : الشعر و الشعراء ، تحقيق/ أحمد محمد شـاكر ، دار الحـديث ، القاهرة ، 1427هـ/2006م .

28- قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق/ كمال مـصطفى ، مكتبـة الخـانجي ، القاهرة ، ط 3 ، 1979م .

29- القرطاجني حازم : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، تحقيق/ محمد لحبيب بـن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، 1966 م .

30- القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، نسخة مصورة عـن الطبعـة الأميرية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و الطباعـة و النـشـر ، القاهرة .

31- ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن حسن بن علـي بـن الخطيـب : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تقديم/ محمد الشاذلي النيفـر ، عبـد المجيـد الريحي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1968 م .

32- ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن حسن بن علـي بـن الخطيـب : الوفيات ، تحقيق/ عادل نويهض ، المكتب التجاري للطباعة و النشر و التوزيـع ، بيروت ، ط 1 ، 1971م .

33- الكتبي أحمد بن شاكر: فوات الوفيات ، تحقيق/ إحسان عباس ، دار الثقافـة ، بيروت ، 1974م .

34- المبرد أبو العباس محمد بن يزيد : الفاضل ، تحقيق/ عبد العزيـز الميمنى ، دار الكتـب المصريـة ، القاهـرة ، ط 2 ، 1995م ،

35- المتنبي : الديوان ، تحقيق/ عبد الرحمان البرقوقي ، دار صادر ، بيـروت ، ط 18 ، 1998م .

36- المقري أحمد بن محمد التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق/ إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ، 1968 م .

37- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين : لسان العرب المحيط ، تقديم/عبد الله العلايلي ، إعداد و تصنيف/ يوسف خياط و نديم مرعشلي ، دار لسان العرب ، بيروت ، 1970م .

38- النمري أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي : بهجة المَجالس ، و أنس المُجالس و شحذ الذاهن و الهاجس ، تحقيق/ محمد مرسي الخولي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، 1402هـ/1982م .

ثانيا المراجع :

39- أحمد أمين : ظهر الإسلام ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ط 5 ، 1969 م .

40- إسماعيل عز الدين : روح العصر ، دار الرائد العربي ، لبنان ، 1978م .

41- البطل علي : الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري – دراسة في أصولها و تطورها ، دار الأندلس ، بيروت ، ط 2 ، 1981م .

42- ترحيني فايز : الإسلام و الشعر ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، 1990م .

43- جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، مطبعة الهلال ، مصر ، 1913م .

44- الحاجري محمد طه : في تاريخ النقد و المذاهب الأدبية – العصر الجاهلي و القرن الأول الإسلامي- دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، 1982م .

45- حساني مختار : موسوعة تاريخ و ثقافة المدن الجزائرية ، دار الحكمة ، الجزائر ، 2007م .

46- الحفناوي أبو القاسم محمد : تعريف الخلف برجال السلف ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 2 ، 1405هـ / 1985م .

47- حمادي عبد الله : دراسات في الأدب المغربي القديم ، دار البعث للطباعة و النشر ، الجزائر ط 1 ، 1406هـ/ 1986م .

48- الخالدي صلاح عبد الفتاح: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، شركة الشهاب ، الجزائر .

49- خليف يوسف : في الشعر العباسي ــ نحو منهج جديد ، دار غريب للطباعة ، القاهرة .

50- الدقاق عمر : ملامح الشعر الأندلسي ، دار الشرق العربي ، بيروت ، 1973م .

51- الدقاق عمر : نقد الشعر القومي ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1978م .

52- دقالي محمد أحمد : الحنين في الشعر الأندلسي(القرن السابع الهجري) ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، مصر، ط 1 ، 2008 م .

53- الدهان سامي : المديح ، دار المعارف ، مصر ، ط 4 ، 1984م .

54- الركابي جودت : في الأدب الأندلسي ، دار المعارف ، مصر ، 1980م .

55- أبو زهرة محمد : تاريخ المذاهب الإسلامية ، دار الفكر العربي ، مصر ، 1976م .

56- بوزواوي محمد : قاموس مصطلحات الأدب ، دار مدني للطباعة و النشر و التوزيع ، المدية ، ط 1 ، 2003م .

57- السد نور الدين : الشعرية العربية ــ دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي ــ ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995م .

58- ابن سلامة الربعي : تطور البناء الفني في القصيدة العربية ، دار الهدى عين مليلة ، الجزائر ، 2006م .

59- الصلابي علي محمد : دولة الموحدين ، مؤسسة اقرأ للنشر و التوزيع و الترجمة ، مصر ، ط 1 ، 2007م .

60- ضيف شوقي : تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الإمارات) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 1 ، 1995 م .

61- الطمار محمد : تاريخ الأدب الجزائري ، وزارة الثقافة (الجزائر عاصمة الثقافة العربية) ، الجزائر ، ط 1 ، 2007 م .

62- الطويلي أحمد : في الحضارة العربية التونسية ، دار المعارف ، تونس ، ط1، 1988م .

63- عبد المجيد جميل : بلاغة النص ــ مدخل نظري و دراسة تطبيقية ــ دار غريب للطباعة ، القاهرة ، 1999م .

64- عبيدات داود عمر سلامة : الموحدون في الأندلس ، دار الكتاب الثقافي ، الأردن ، 2005 م .

65- أبو العدوس يوسف : الاستعارة في النقد الأدبي الحديث ــ الأبعاد المعرفية و الجمالية ــ الأهلية للنشر و التوزيع ، الأردن ، ط 1 ، 1997م .

66- العربي إسماعيل : المدن المغربية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984م .

67- العريس محمد : موسوعة شعراء العصر الأندلسي ، دار اليوسف ، بيروت ، ط 1 ، 2005م .

68- عصفور جابر : الصورة الفنية ــ في التراث النقدي و البلاغي ــ دار الثقافة للطباعة و النشر ، القاهرة ، 1974م .

69- العقاد عباس محمود : اللغة الشاعرة ، مكتبة غريب ، القاهرة ، 1988م .

70- علام عبد الله علي : الدولة الموحدية بالمغرب (في عهد عبد المؤمن بن علي) ، وزارة الثقافة (الجزائر عاصمة الثقافة العربية) ، الجزائر ، 2007 م .

71- عنان محمد عبد الله : عصر المرابطين و الموحدين في الأندلس ، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، مصر ، ط 1 ، 1964 م .

72- فيلالي عبد العزيز : تلمسان في العهد الزياني ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2002 م .

73- كنون عبد الله : النبوغ المغربي في الأدب العربي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت .

74- لاشين عبد الفتاح : الخصومات البلاغية و النقدية في صنعة أبي تمام ، دار المعارف القاهرة ، 1982م .

75- لويس ارشيبالد : القوى البحرية و التجارية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، تقديم محمد شفيق غربال ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، 1370هـ/1950م .

76- مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، إخراج ، إبراهيم أنيس و آخرون ، دار المعارف ، مصر ، ط 1 ، 1973 م .

77- مرتاض محمد : النقد الأدبي القديم في المغرب العربي ـ نشأته و تطوره (دراسة و تطبيق) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2000م .

78- مقلد محمد يوسف : شعراء موريتانيا القدماء و المحدثون ، منشورات مكتبة الوحدة العربية ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط 1 ، 1962م .

79- مورو فرانسوا : البلاغة ـ مدخل لدراسة الصور البيانية ـ ترجمة محمد الولي و عائشة جرير ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، 2003م .

80- موسوعة العلماء و الأدباء الجزائريين ، إعداد/ رابح خدوسي و آخرين ، دار الحضارة ، الجزائـــــر ، 2003 م .

81- ناصف مصطفى : الصورة الأدبيـــة ، دار الأنـــدلس ، بيـــــروت ، ط 3 ، 1983م .

82- نجا أشرف محمود : قصيدة المديح في الأندلس ــ قضاياها الموضـــــــــوعية و الفنية عصر الطوائف ــ دار الوفاء لدنيا الطباعـــة و النـــشر ، مـــصر ، ط 1 ، 2003م .

83- نويهض عادل : معجم أعلام الجزائر ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليـــــــف و الترجمة و النشر ، بيروت ، ط 2 ، 1980 م .

ثالثا الدوريات :

84- الطالبي محمد : الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين، مجلة الأصالة ، تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية الجزائـــر ، مطبعـــة البعـــــث ، الجزائر ، 1973 م ، العدد 16 .

85- كاتب حسن : الصورة الفنية في شعر حاتم الطائي ــ مادة تشكيلها و تـــداخل الحواس فيها ــ مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، الجزائر ، عدد 12 ــ ديسمبر 1999م ــ شركة دار الهدى عين مليلة ، الجزائر .

86- لراوي العلمي : ابن الأبار بين التأليف و الإبداع ، مجلة العلـــوم الإنـــسانية ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، الجزائر ، عدد 13 ــ جوان 2000م ــ شـــركة دار الهدى عين مليلة ، الجزائر .

رابعا الرسائل الجامعية :

87- إحدادن محمد : الحياة الأدبية و الثقافية في المغرب الأوسط حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، مخطوطة رسالة دكتوراه دولة في الأدب العربي ، كليـــة الآداب و اللغات بجامعة الجزائر ، 2006م .

88- زردومي إسماعيل : شعر الاستغاثة للأندلس ــ مخطوطة رسالة الماجستير ، جامعة باتنـــة ، 1995م .

89- عالية علي: شعر الفلاسفة في الأندلس ــ في القــرنين الخـــامس و الـــسادس الهجريين ــ مخطوطة رسالة دكتوراه ، جامعة باتنة ، 2004- 2005م .

90- لراوي العلمي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي الشهير بابن الأبار (595- 658هــ/1199- 1260م) حياته و مؤلفاته و دراسة فنية لشعره ، مخطوطة رسالة الدكتوراه ، جامعة الإخــوة منتــوري ، قــسنطينة ، 1997- 1998م .

فهرس المحتويات

الفصل الثاني : موضوعات قصيدة المديح عند ابن الأبار القضاعي في البلاط الحفصي

الفصل الثالث : البناء و الصورة في قصيدة المديح عند ابن الأبار في البلاط الحفصي